جامعة المثنى

كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم الجغرافية

المادة
تاريخ الدولة العربية الاسلامية
المرحلة الثانية

الاستاذ المساعد الدكتور
نعيم عودة صفر الزيدي

المحاضرة الاولى

مصادر السيرة النبوية:

تنحصر المصادر الرئيسية المعتمدة للسيرة النبوية في أربعة مصادر:

القرآن الكريم :

وهو مصدر أساسي نستمد منه ملامح السيرة النبوية، فقد تعرض القرآن الكريم لنشأته أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى] {الضحى: ٥- ٦] كما تعرض لأخلاقه الكريمة العالية} وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ] {القلم: ٤]. وقد تحدث القرآن عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى وعنت في سبيل دعوته، كما ذكر ما كان المشركون ينعتونه به من السحر والجنون صدا عن دين الله عز وجل، وقد تعرض القرآن لهجرة الرسول كما تعرض لأهم المعارك الحربية التي خاضها بعد هجرته، فتحدث عن معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، وتحدث عن بعض معجزاته ، كمعجزة الإسراء والمعراج .

وبالجملة فقد تحدث عن كثير من وقائع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان الكتاب الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في التشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي، فإن ما تعرض له من وقائع السيرة يعتبر أصح مصدر للسيرة على الإطلاق.

ولكن من الملاحظ أن القرآن لم يتعرض لتفاصيل الوقائع النبوية، وإنما تعرض لها إجمالا، فهو حين يتحدث عن معركة لا يتحدث عن أسبابها، ولا عن عدد المسلمين والمشركين فيها، ولا عن عدد القتلى والأسرى من المشركين، وإنما يتحدث عن دروس المعركة وما فيها من عبر وعظات، وهذا شأن القرآن في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم الماضية، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نكتفي بنصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية لنخرج منها بصورة متكاملة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

السنة النبوية الصحيحة:

السنة النبوية الصحيحة التي تضمنتها كتب أئمة الحديث المعترف بصدقهم والثقة بهم في العالم الإسلامي هي:الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه. ويضاف إليها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب وخاصة البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق، أما الكتب الأخرى، فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضا.من هذه الكتب التي حوت القسم الأكبر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ووقائعه وحروبه، وأعماله، نستطيع أن نكون فكرة شاملة- وإن كانت غير متكاملة أحيانا- عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومما يزيد الثقة بها والاطمئنان إليها أنها رويت

بالسند المتصل إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وهم الذين عاشروا الرسول ولازموه، ونصر الله بهم دينه، وقد رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، فكانوا أكمل أجيال التاريخ استقامة أخلاق وقوة إيمان، وصدق حديث، وسمو أرواح، وكمال عقول، فكل ما رووه لنا عن الرسول بالسند الصحيح المتصل يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجنا الشك فيها. ويحاول المستشرقون المغرضون وأتباعهم من المسلمين الذين رق دينهم، وفتنوا بالغرب وعلمائه أن يشككوا في صحة ما بين أيدينا من كتب السنة المعتمدة، لينفذوا منها إلى هدم الشريعة، والتشكيك بوقائع السيرة، ولكن الله الذي تكفل بحفظ دينه قد هيأ لهم من يرد سهام باطلهم، وكيدهم إلى نحورهم وقد تعرضت في كتابي (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) إلى جهود علمائنا في تمحيص السنة النبوية، وسردت شبه المستشرقين ومن تابعهم، وناقشتها نقاشا علميا، أرجو الله أن يثيبني عليه، ويجعله في صفحات حسناتي يوم العرض عليه.

الشعر العربي المعاصر لعهد الرسالة :

مما لا شك فيه أن المشركين قد هاجموا الرسول ودعوته على ألسنة شعرائهم، مما اضطر المسلمين إلى الرد عليهم على ألسنة شعرائهم، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وغيرهما، وقد تضمنت كتب الأدب، وكتب السيرة التي صنفت فيما بعد قسطا كبيرا من هذه الأشعار التي نستطيع أن نستنتج منها حقائق كثيرة عن البيئة التي كان يعيش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي ترعرعت فيها عقيدة الإسلام أول قيامها .

كتب السيرة :

كانت وقائع السيرة النبوية روايات يرويها الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم، وقد اختص بعضهم بتتبع دقائق السيرة وتفاصيلها، ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونوها في صحائف عندهم، وقد اختص بعضهم بالعناية التامة بها، أمثال أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٢- ١٠٥هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣- ٩٣هـ) ومن صغار التابعين عبد الله بن أبي بكر الأنصاري (توفي سنة ١٣٥هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠- ١٢٤هـ) الذي جمع السنة في عهد عمر بن عبد العزيز بأمره، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (توفي سنة ١٢٩هـ). ثم انتقلت العناية بالسيرة إلى من بعدهم، حتى أفردوها بالتصنيف، ومن أشهر أوائل المصنفين في السيرة محمد بن إسحاق بن يسار (توفي سنة ١٥٢هـ) وقد اتفق جمهور العلماء والمحدثين على توثيقه، إلا ما روي عن مالك، وهشام بن عروة بن الزبير من تجريحه، وقد حمل كثير من العلماء المحققين تجريح هذين العالمين الكبيرين له بعداوات شخصية كانت قائمة بينهما وبين ابن إسحاق.ألف ابن إسحاق كتابه (المغازي) من أحاديث وروايات سمعها بنفسه في المدينة ومصر، ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، فقد فُقِدَ

فيما فُقِدَ من تراثنا العلمي الزاخر، ولكن مضمون الكتاب بقي محفوظا بما رواه عنه ابن هشام في سيرته عن طريق شيخه البكائي الذي كان من أشهر تلامذة ابن إسحاق

سيرة ابن هشام :

هو أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، نشأ بالبصرة وتوفي سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ على اختلاف الروايات، ألف ابن هشام كتابه (السيرة النبوية) مما رواه شيخه البكائي عن ابن إسحاق، ومما رواه هو شخصيا عن شيوخه، مما لم يذكره ابن إسحاق في سيرته، وأغفل ما رواه ابن إسحاق مما لم يتفق مع ذوقه العلمي وملكته النقدية، فجاء كتابا من أوفى مصادر السيرة النبوية، وأصحها، وأدقها، ولقي من القبول ما جعل الناس ينسبون كتابه إليه، فيقولون: سيرة ابن هشام وشرح كتابه هذا عالمان من الأندلس: السهيلي (٥٠٨-٥٨١هـ)والخشني(٥٣٥-٦٠٤هـ).

طبقات ابن سعد:

هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، ولد بالبصرة سنة ١٦٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٢٣٠هـ كان كاتبا لمحمد بن عمر الواقدي المؤرخ الشهير في المغازي والسيرة (١٣٠- ٢٠٧هـ) سار ابن سعد في كتابه (الطبقات) على ذكر أسماء الصحابة والتابعين- بعد ذكر سيرة الرسول عليه السلام- بحسب طبقاتهم، وقبائلهم، وأماكنهم، ويعتبر كتابه (الطبقات) من أوثق المصادر الأولى للسيرة، وأحفظها بذكر الصحابة والتابعين.

تاريخ الطبري:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤- ٣١٠هـ) إمام، فقيه، محدث، صاحب مذهب في الفقه لم ينتشر كثيرا ألف كتابه في التاريخ غير مقتصر على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، بل ذكر تاريخ الأمم قبله، وأفرد قسما خاصا لسيرته عليه السلام، ثم تابع الحديث عن تاريخ الدول الإسلامية حتى قرب وفاته.

يعتبر الطبري حجة ثقة فيما يروي، ولكنه كثيرا ما يذكر روايات ضعيفة أو باطلة، مكتفيا بإسنادها إلى رواتها الذين كان أمرهم معروفا في عصره، كما في رواياته عن أبي مخنف، فقد كان شيعيا متعصبا، ومع ذلك فقد أورد له الطبري كثيرا من أخباره بإسنادها إليه، كأنه يتبرأ من عهدتها، ويلقي العبء على أبي مخنف

تطور التأليف في السيرة:

ثم تطور التأليف في السيرة، فأفردت بعض نواحيها بالتأليف خاصة، كـ (دلائل النبوة) للأصبهاني، و(الشمائل المحمدية) للترمذي، و(زاد المعاد) لابن قيم الجوزية، و(الشفاء) للقاضي عياض، و(المواهب اللدنية) للقسطلاني وهي مشروحة في ثماني مجلدات بقلم الزرقاني المتوفى سنة ١١٢٢هـ.هذا ولا يزال العلماء يؤلفون في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بأسلوب حديث

يتقبله ذوق أبناء العصر، ومن أشهر الكتب المؤلفة في العصر الحديث كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) للشيخ محمد الخضري رحمه الله، وقد لقي كتابه قبولا حسنا، وقررت دراسته في المعاهد الدينية في أكثر أنحاء العالم الإسلامي.

المحاضرة الثانية

محمد قبل النبوة

نسبة الشريف :

كان محمد (ص) من صميم قريش ، ذات الشرف البازخ والفضل الشامخ والمكانة العالية والمنزلة السامية بين العرب وليس في سلسلة نسبة الشريف مسترذل من الآباء ولأمهات بل الآباء سادة قادة والأمهات أطهار أحرار ولاشك شرف النسب وطهارة العنصر من اهم شروط النبوة .

كان أبوه عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب . وكانت امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فالوالدان يجتمعان في الجد كلاب والذي ينتهي نسبه الى عدنان من ولد اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام فنسبة (ص) من أشرف الأنساب وأطهرها .

ابوه(ص):

كان عبد الله في حوالي الرابعة والعشرين من عمره حين خطب له ابوه عبد المطلب آمنة بنت وهب . وفي نفس الوقت الذي تزوج فيه ابنه من آمنة تزوج عبد المطلب وكان قد تجاوز السبعين من ابنة عمها ،(هاله) ، فولدة له حمزة عم النبي قريبه في السن .

أقام عبد الله ثلاثة ايام مع زوجه عند أهلها كما هي العادة حينذاك ثم انتقل معها الى منازل اسرته .ولكن مقامة معها لم يطل فقد خرج في تجارة الى الشام وتركها حاملا.

وفاة ابية :

وصل عبدالله في رحلته الى غزة ، ثم عاد وفي طريق عودته مرض فاضطر البقاء في يثرب عند اخوال جدة، من بني عدي بن النجار ، وتابعت القافلة مسيرتها الى مكة .

لما علم عبد المطلب بمرض ابنه اوفد اكبر ابنائه الحارث ويأتي به ولكن الحارث وصل الى يثرب بعد أن كان أخاه عبد الله قد وسد قبره وهو في شبابه الغض لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره. فجع الاب عبد المطلب بموت ابنه وفجعت زوجته آمنه بموت رجلها وخسرت بذلك سعادتها وكان عزائها الوحيد ما خلفه في احشائها فبقيت تعيش مع الامل تنتظر وليدها والاثر الوحيد الباقي من زوجها .

أما ثروة عبد الله فلم تكن بالثروة الكبيرة فهو في مقتبل العمر وبداية العمل التجاري وما زال ابوه حياً فلم يرث شيئاً بعد ولكنه خلف لزوجه على بعض الروايات خمسة من الابل وقطيعا من الغنم وجارية اسمها ام ايمن حاضنة النبي (ص) بعد مولده وهي ثروة لا تجعل صاحبها من الاثرياء ولا من الفقراء المعدمين .

مولده (ص):

بعد مرور سبعة اشهر على وفاة عبدالله وضعت آمنة غلاماً فأرسلت الى جده عبد المطلب حيث كان بالحرم يطوف بالكعبة تزف اليه الخبر السعيد فامتلا قلبه بالبشر والسعادة وعاد ليرى في الوليد الحفيد صورة لأبنه الفقيد ثم أخذه الى الكعبة فرحاً به وسماه محمداً ثم اعاده الى أمه لتحد فيه السلوى والعزاء. واختلفت روايات المؤرخين في سنة مولد محمد (ص) قيل : قبل عام الفيل وقيل في نفس العام وقيل بعده . كما اختلف في الشهر وفي اليوم وفي الوقت ، أكان ليلاً او نهاراً وتقرر جمهرة من المؤرخين أن مولده كان في فجر يوم الاثنين، لاثنتي ليلة خلت من ربيع الاول ، ويحدد بعضهم ميلاده في ٢٠اب (أغسطس) سنة ٥٧٠م ، اي عام الفيل ، اما اسمه ، محمداً، فإنه لم يكن شائعاً بين العرب على الرغم من انه كان معروفاً عندهم وقد قيل ان رجالا من قريش سألوا عبد المطلب عن اختياره هذا الاسم ولم يكن من اسماء آبائه واجداده فقال : اردت أن يكون محموداً في السماء، لله ، وفي الارض ، لخلقه.

رضاعته (ص):

كان من عادة بعض الأسر الشريفة المقتدرة ارسال أطفالها مع المراضع الى البادية ، يقضي الطفل سني طفولته فيها ،حيث الهواء النقي والصحة والقوة واللغة السليمة ، وكان لبعض العوائل شهرة بمرضعاتها، وفي انتظار مجيء المراضع ، اخذته ثويبة ، جارية عمه ابي لهب فأرضعته ، كما ارضعت عمه، حمزة فكانا اخوين في الرضاع، ولم ينس محمد لمرضعته ثويبة عملها . على الرغم من انها لم ترضعه الا اياماً، فكان يصلها ما عاشت ، ويحفظ لها الود، الى ان ماتت في السنة السابعة للهجرة وكان ابو لهب قد اعتقها حين بشرته بمولد محمد(ص).

وجاءت المراضع الى امه في مكة ، وزهدن في اليتيم محمد كعادتهن طمعاً في الخير المنتظر من الاباء ، ولم يبقى لحليمة بنت ابي ذؤيب من قبيلة بني سعد بن بكر غير محمد ، فأخذته لأنها خجلت ان ترجع مع صاحباتها دون رضيع وقال لها زوجها الحارث بن عبد العزى " عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة "وتذكر حليمة وزوجها انهما عرفا البركة في الغنم واللبن ، منذ اخذا هذا الرضيع اليتيم .

ولاشك ان حياة البادية افادت محمداً كما تفيد كل طفل يربى فيها : ففي البادية نما جسمه ، وفيها تعلم اللغة العربية من ينابيعها حتى كان يقول بعد ذلك لا صحابة " أنا أعربكم أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر" .

قضى الطفل محمد سنتين في البادية حيث كانت ترضعه حليمة وتحتضنه ابنتها الشيماء، وعاد بعد فطامه مع حليمة الى أمه بمكة ، ولكن حليمة كانت احرص الناس على رجوعها به وسألت امه ذلك ، فأجابتها وعادت به الى البادية حيث قضى عامين آخرين تعود خلالهما على خشونة العيش وقسوة الصحراء مما لابد منه لكل من يعيش اشهر وسنوات في الخيام ، وسط البيئة البدوية عند بني سعد . وبقيت حليمة موضع حبه ورعايته ، بقية حياته ، وما جاءته مرة الا وأكرمها ، وعادت من لدنه تحمل الخير والمال وخاصة بعد زواجه من خديجة.

أعادت حليمة محمداً الى أهله ، وهو في الرابعة من عمره، فعاش في حجر أمه ، وكفالة جده الشيخ الهرم ، فكان يغدق عليه من عطفه وحبه ما يعوض عليه ما فقده من حنان الاب ورعايته وكثيراً ما اجلسه معه عند الكعبة على فراشه بينما كان ابناء عبد المطلب يجلسون حوله

وفاة أمه:

شعر محمد باليتم وعرف معناه لأول مرة عندما اخذته أمه لأخوال جده من بني النجار في زيارة يثرب فرأى هناك البيت الذي مات فيه ابوه والقبر الذي دفن فيه . ولاشك أنه سمع الكثير من أمه عن ابيه ورأى عبرات الحزن تنحدر من عينيها.

وبعد شهر عزمت آمنة على العودة الى مكة وفي طريق العودة مرضت وتوفيت ودفنت في قرية الأبواء. وعادت ام ايمن ببيتيم الابوين الى مكة بعد ان رأى وهو في تلك السن المبكرة وحشة السفر والغربة مرض أمه ووفاتها فكان الالم يحز في قلبه ويعصر نفسه وان كان الجد الكبير قد حاول تخفيف آلام حفيده بزيادة اكرامه والعطف عليه .

وفاة جده:

لم ينعم محمد (ص) طويلا بعطف جده فقد مات عبدالمطلب ، في حوالي الثمانين من عمره ، وكان محمد ما يزال في الثامنة وخسرت قريش بوفاة زعيمها العظيم ركناً من اركانها وشخصية من اعظم شخصياتها ، وضعفت مكانة بني هاشم بموته واخذ بنو امية يستعدون لينالوا الزعامة وقد طمعوا فيها من قبل ، وخسر محمد بوفاة جده القلب الكبير والعناية ، والجنان.

كفالة عمه له (ص):

كان عبد المطلب قد اختار من ابنائه ابا طالب دون غيره لكفالة حفيده محمد خاصة وان ابا طالب هو اخ شقيق لعبدالله والد محمد ويتصف بالنبل وكرم الاخلاق وكان ابو طالب عند حسن

ظن ابيه فقد ضم محمداً الى بنيه ، بل آثره عليهم في كثير من الاحيان ، مقدراً ظروف اليتم وشعور الفتى الصغير وقد توالت عليه الكوارث والاحزان .

رحلته الاولى الى الشام :

كان محمد في الثانية عشرة من عمره (وقيل في التاسعة) عندما عزم عمه ابو طالب على السير بقافلة تجارية الى بلاد الشام وتعلق قلب محمد بهذه الرحلة ،وتذكر الروايات انه عندما وصلت القافلة الى بصرى وهي قرية بين الشام وبلاد العرب وحلت فيها حيث كان يقوم فيها سوق تجاري كبير تقصده قوافل العرب وتجارها ، اجتمع الراهب "بحيري" بالفتى الصغير محمد ويذكر ابن هشام في السيرة تفاصيل هذا اللقاء فيقرر أن بحيري قال لمحمد " ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى ما اخبرتني عما أسألك عنه " واجابه محمد بقوله :" لاتسألني باللات والعزى شيئاً فو الله ما ابغضت شيئاً قط بغضهما " . وتذكر الرواية ان الراهب بحيري : تفرس محمداً وعرف فيه امارات النبوة ، مما كان قد عرفه من الكتب السماوية ، وأنه قال لابي طالب : " ماهذا الغلام منك ؟ فأجابه : " ابن اخي مات ابوه " وأمه حبلى به " فقال بحيري " ارجع بابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود ،فو الله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم فأسرع به الى بلاده ".

وكانت هذه اول رحلة لمحمد يتوسع خلالها افق معارفه ، ويطلع على مواطن بعض القبائل العربية في وادي القرى وجنوب بلاد الشام وربما سمع بعض الاخبار عن سيطرة الروم على عرب الشام ، ثم عاد مع عمه الى مكة . وقد اكتفى ابو طالب بربحه من تلك القافلة ورجع ليعيش مع عياله حياة فيها شيء من التفتير لكثرة افراد اسرته وقلة ما يملك .

اشتراكه (ص) في حرب الفجار :

ان سبب حرب الفجار التي وقعت بين قبيلة كنانة ،حليفة قريش وقبيلة قيس عيلان (من هوازن)، بسبب مقتل عروة الرحال الهوزاني ، على يد البراص بن قيس الكناني ، وقيادة هذا الاخير لقافلة ملك الحيرة ، مما اوقع القتال عدة سنوات بين القبيلتين العربيتين ، وكادت الدائرة تدور على قيس لولا تدارك الامر بعض العقلاء ودعوا الى الصلح وهكذا انتهى الامر بين الطرفين .

وقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد سن محمد (ص)خلال هذه الحرب فقبل ان كان في الخامسة عشرة وقيل في العشرين . كما اختلفت في الدور، الذي قام به خلال معاركها ، فمنهم من قال إنه يجمع السهام ويعطيها اعمامه ومنهم من ذكر انه رمى السهام بنفسه ،وربما كان الاختلاف بسبب استمرار الحروب عدة سنين .مما تصح معه مختلف الروايات .

وقد ذكر الرسول الكريم (ص) هذه الحادثة فقال : (قد حضرته مع عمومتي ورميت فيها بأسهم ، وما احب أني لم اكن فعلت). ولاشك ان مثل هذه الحوادث كانت كدروس في الحياة يتدرب خلالها محمد (ص) على القتال ، والصبر على المشاق والتغلب على العقبات اعداداً لما كان ينتظره في المستقبل القريب من مهام جسام .

حلف الفضول :

ضجت مكة بالمظالم خاصة بعد وفاة عبد المطلب الذي كان موحداً كلمتها جامعاً بطونها ، وقد فقدت بعده الزعامة وضاعت هيبة الحكم وتفرقت كلمة القوم ، وازداد طمع المرابين وكثرت أنات المستغيثين ، وصيحات المظلومين ، فدعا الزبير بن عبد المطلب الى اجتماع حضرة شيوخ بعض الاسر من هاشم وبني تيم ، وذلك في دار عبدالله بن جدعان التميمي ، وتعاهد الحضور على نصرة المظلوم ، حتى يؤدي اليه حقه . وسمي هذا الاجتماع "" حلف الفضول " وقد حضره محمد مع اعمامه وذكره بعد بعثته فقال (ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به في الأسلام لأجبت).

اخلاقة :

عاش محمد في بيت ابي طالب يشارك اهله وقومة بعض اعمالهم وينأى بنفسه عن كثير من عاداتهم واخلاقهم وعقائدهم ، كان يذهب في الاشهر الحرم الى اسواق العرب يستمع الشعر والخطب والاحاديث ، وكان يعجب بما يقوله الأحناف ،ويبتعد عما يرى شباب قومه قد انغمسوا فيه من لهو وشرب ومجون ، فما دنس حياته ، قبل البعثة بشيء مما يدنس الشباب حياتهم به . وصدق الرسول الكريم حين وصف نفسه فقال " ادبني ربي فأحسن تأديبي " وصدق فيه قول الله عز وجل " وإنك لعلى خلق عظيم "، فلا عجب اذا رأينا قريشاً تلقبه قبل البعثة بالامين ، في حادثة حسم مشكلة الحجر الاسود في اثناء بناء الكعبة ،ان قبولهم ورضاهم دليل مكانته بين قومه ، وصدق فيه قول الله عز وجل " لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ". انها صفات واخلاق اتصف بها محمد منذ طفولته وفتوته وشبابه ، حتى رجولته تلك الصفات التي تؤهل صاحبها للزعامة القوية ، اذ قال احد المشركين من خصومه فيه الكلمة التالية :(ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد له).

رحلته الثانية الى الشام :

لقد كانت خديجة بنت خويلد من أوفر اهل مكة مالا وكانت قد تزوجت مرتين من بني مخزوم ثم ازدادت ثروتها بالتجارة ، وكانت تستأجر رجالا من قريش يتاجرون بمالها مقابل اجر يتقاضونه منها ، وقد رفضت رجالا من كبار قريش تقدموا لخطبتها ، اعتقاداً منها انهم يريدونها لمالها . ولما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره ، رغب ابو طالب ان يجد له عملا يدر

عليه ربحاً اكثر من رعاية الغنم ، وعرض على محمد ان يكلم له خديجة بنت خويلد لتستأجره في تجارتها، فقبل محمد ما عرضه عمه عليه ،وخرج ابو طالب فكلم خديجة كلاما يعرب عن رأي الناس في محمد وثقتهم به : (هل لك يا خديجة ان تستأجري محمداً فقد بلغنا انك استأجرت فلانا ببكرتين (ناقتين صغيرتين) ولسنا نرضى لمحمد دون اربع بكرات) فقبلت خديجة ويقال انها قالت (لو سألت ذلك لبعيد بغيض ، فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب) واسرع ابو طالب يقول لابن اخيه : (هذا رزق ساقه الله اليك).

خرج محمد بقافلته التجارية بأموال خديجة ، ورافقه غلامها ، ميسرة وسار متجهاً نحو الشام حتى وصل بصري فباع ما كان يحمل وربح واشترى من مصنوعات الشام ما اوصته صاحبة المال بشرائه واقتربت القافلة من مكة تحمل من الارباح ما لم تحمله من قبل واستقبلت خديجة محمداً فقص عليها خبر رحلته وما صادفه من توفيق في البيع والربح كما اخبرها غلامها ميسرة بأمانة محمد ومهارته مما ضاعف ارباحها . كما حدثها عن اخلاقه ورقة شمائله وطيب نفسه .

زواجه(ص) من خديجة :

يبدو ان خديجة اخذت تميل الى محمد (ص) بقلبها وعواطفها وترغبه زوجاً تفخر به بين سيدات مكة وهي التي رفضت طلب الكثيرين من اكابر قريش ، حين أتوها خاطبين . انتهت علاقة محمد التجارية بخديجة وذهب الى داره بعد أن إخذ أجره مضاعفاً. وبدأت علاقة جديدة لم يشعر بها محمد، فقد كانت بدايتها عند خديجة وفي قلبها وفكرها .لقد ملا محمد برجولته وجماله وبأخلاقه وصفاته ،وبكلامه وعذب حديثه قلب خديجة .

وتذكر الاخبار ان خديجة كانت لها الرغبة في الزواج من محمد وقد نقل تلك الرغبة صديقتها نفيسة بنت منية ، وقد اسرت تلك الرغبة لكن كان محمد متردداً كون خديجة غنية بمالها وقد رفضت اكابر القوم ، الا ان نفيسة طمأنته وزفت بشرى قبوله الى خديجة وتقدم ابو طالب فخطبها من عمها عمر بن أسد ، حيث كان ابوها خويلد قد توفي وتم القبول وكان صداقها عشرين بكره ، تم زواج محمد وهو في الخامسة والعشرين من عمره من خديجة وهي في الاربعين وكان زواجاً موفقاً سعد به الزوجان.

اولاده(ص):

انتقل محمد الى دار خديجة وانجب جميع ذريته منها عدا ابراهيم الذي ولد فيما بعد من مارية القبطية وقد توفي ولداهما : القاسم وعبد الله الطاهر ، صغيرين اما البنات وهن : زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة . فلم يطل العمر الا بصغرهن فاطمة . ولاشك ان الالم قد حز في نفس كل من محمد وخديجة عندما فقد ابنيهما القاسم ثم عبدالله ، فلم يبقى لهما الا البنات فقد زوج زينب ابن خالتها ابي العاص بن الربيع بن عبد شمس، انتهى الزواج بعد الاسلام اما رقية وام

كلثوم فزوجهما من عتيبة وعتبة ابني عمه ابي لهب ، وقد طلقهما بعد الاسلام ثم زوجهما الواحدة بعد الاخرى عثمان بن عفان ، اما فاطمة فقد تزوجت بعد الاسلام من علي بن ابي طالب .

المحاضرة الثالثة

ظهور الدعوة الاسلامية

لما قارب محمد(ص) الاربعين من عمرة عرفت عنه عادة التحنف ، او التحنث، وهي اعتزال الناس ، والانقطاع للتفكير والعبادة . وربما كان يجد في تلك الساعات الراحة النفسية بابتعاده عما كان يعبد قومه من الاصنام والاوثان والنصب ، مما لم ترض نفسه ، في يوم من أيامه ، بعبادتها او التماس الخير منها فكان يفكر فيما هو خير منها وكان يميل الى دين الحنفية من بقايا ديانة ابراهيم. وميلا منه الى هذا النوع من التفكير الديني ورغبة في حياة العزلة والبعد عن قومه ، لدأ الى الاعتكاف في غار حراء ويقع في اعلى جبل الى الشمال من مكة ، ويتيح هذا الغار للمقيم فيه الخلوة والتفكير في الكون وما وراء الكون ،فكان محمد يقضي شهر رمضان من كل عام ، في هذا الغار ، مكتفياً بالقليل من الاد يحمل اليه ويطيل هناك ساعات التفكير العميق ويمارس حياة روحية طاهرة يهدف من ورائها الى معرفة الحقيقة ، وسر وارتفع عن مستوى تلك الآلهة التي ما آمن يوماً بها وما استهدف محمد في تلك الفترة من حياته أن يصل الى ما يريد عن طريق أقوال الكهان وحائف رهبان النصارى وأخبار اليهود ، ولم يعرف تاريخ أيامه تلك اي تردد منه على امثال هؤلاء وإنما كان يتوخى كشف الحقيقة والتوصل الى الايمان بالتفكير الدقيق في هذا الكون وآيات الخالق فيه . لقد كان محمد في غار حراء ينسى كل شيء : ينسى الجوع والظمأ، ينسى الأهل والولد ، لكنة لم ينسى البحث والتفكير والتأمل ، وكان يسمو بفكره عن العالم المادي فينسى كل ما حوله ، يغيب في تفكيره وتأملاته ساعات تليها ساعات يبحث عن سر الكون يبحث عن الحق ، يبحث عن الله (جل جلاله).

الوحـــــــــــــــــــــــي :

كان محمد (ص) في الاربعين من عمره عندما هبط الوحي وهو يتعبد ويتأمل في غار حراء وبعد أن أعدته العناية الآلهة إعداداً روحياً وفكرياً لهذه الساعة العظيمة . وكان بدء نزول الوحي يوم الاثنين ١٧ رمضان ، وتراءى له جبريل فقال له: " أقرأ " فأجاب " ما انا بقارئ " فشده جبريل إليه وأعاد عليه القول وأجاب محمد (ص) نفس الجواب فشده ثانية بقوة ، ثم أطلقه وقال له " أقرأ "باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقراء وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم " فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم .

فرجع بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلُوني، زَمِّلُوني، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسبُ المعدومَ ، وتقري الضَّيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ . فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس الَّذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً ، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ وفَتَرَ الوحي " .

الدعوة السرية :

في بيئةٍ سادت فيها الوثنيّة بين القبائل العربيّة زمانا طويلاً ، وتربّى فيها أهلها على العصبيّة المقيتة والحميّة الجاهلية ، وضاعت فيها معالم الديانات السماوية ، وانتكست فيها الفطر والمفاهيم حتى صار الباطل حقّاً ، والفضيلة رذيلة ، لم يكن أمام النبي – صلى الله عليه وسلم – تجاه هذا الواقع سوى أن يؤجّل الإعلان بدعوته على الملأ ، ويكتفي بدعوة من حوله سرّاً ، حتى لا يكون الصدام المباشر في أوّل الأمر سبباً في فشل مهمّته التي بعثه الله بها .

وكان من الطبيعي أن يبدأ – صلى الله عليه وسلم – بعرض الإسلام على أهله وأقرب الناس إليه ، وفي مقدّمتهم زوجته خديجة رضي الله عنها ، فكانت أوّل من آمن به على الإطلاق ، وأوّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وأول من وقف على شهادة أهل الكتاب بصدق نبوّته من خلال عمّها ورقة بن نوفل .

ثم عرض – صلى الله عليه وسلم – الإسلام على ابن عمّه علي بن أبي طالب ، فسارع إلى الإجابة على الرغم من صغر سنّه ، ثم أسلم مولاه زيد بن حارثة ، وأسلمت بناته زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقيّة رضي الله عنهنّ ، وبذلك حاز بيت النبوّة على شرف الأسبقيّة في الإسلام .

وبعد ذلك انتقل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى دائرة أصحابه ومعارفه ، فدعا أبا بكر رضي الله عنه ، الذي لم يتردّد لحظةً في تصديقه والإيمان به ، وقد حفظ النبي – صلّى الله عليه وسلم – له هذا الفضل فقال : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ، وتردّد ونظر ، إلا أبابكر) رواه ابن إسحاق .

وكان في إسلام أبي بكر رضي الله عنه فاتحة خيرٍ على الإسلام ودعوته ، فقد كانت قريشٌ تحبّه لسعة علمه وحسن ضيافته ، ومكانته كرجلٍ من كبار التجّار الذين لهم ثقلٌ في المجتمع المكّي ، ولذلك استجاب له الكثير من الناس ، ومنهم : عثمان بن عفّان ، و طلحة بن عبيد الله ، و الزبير بن العوّام ، و سعد بن أبي وقاص ، و عبدالرحمن بن عوف ، و عثمان بن مظعون ، و أبو سلمة بن عبد الأسد ، و أبو عبيدة بن الجراح ، و الأرقم بن أبي الأرقم ، و خبّاب بن الأرت ، و عمار بن ياسر وأمّه ، رضي الله عنهم أجمعين .

وسارع كل واحدٍ من هؤلاء إلى دعوة من يطمئنّ إليه ويثق به ، فأسلم على أيديهم جماعة من الصحابة ، حتى وصل عدد الذين أسلموا في تلك الفترة – وفقاً لمصادر السيرة – ما يزيد على الأربعين ما بين رجلٍ وامرأة ، وهؤلاء هم السابقون الأوّلون الذين ذكرهم الله عزّ وجل في قوله : { والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار } (التوبة : ١٠٠) .

وقد يبدو هناك شيء من التعارض في الروايات التي تحدّد أوائل من أسلم ، وهذا الاختلاف يرجع سببه إلى كتمان هؤلاء الصحابة خبر إسلامهم .

وبمراجعة أسماء أوائل من أسلم من الصحابة نلاحظ انتماءهم إلى قبائل من داخل قريشٍ وخارجها ، فقد كانوا من "بني أميّة وبني أسد وبني عبد الدار وبني جمح وبني زهرة ومذحج ودوس " وغيرها ، وفيه دلالةٌ واضحةٌ على معالم هذه الدعوة الجديدة ، وبعدها عن الدعوات العصبيّة الجاهليّة ، ولو كانت كذلك لكان بنو هاشم قوم النبي – صلى الله عليه وسلم – أوفر الناس حظّاً ، وأكثرهم أتباعاً لهذه الدعوة الجديدة .

ومما يُشار إليه هنا أيضاً أن أغلب من أسلم في تلك الفترة كان من وجهاء قومه ومن أشرافهم، ولم يكن بينهم من الموالي سوى ثلاثة عشر رجلاً ، مما يدل على أن دعوة الإسلام لم تكن مجرّد ثورة على الأغنياء والوجهاء ، أو هروباً من حياة العبودية والفقر ، وإنما كانت رسالةً قائمة على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وعقيدة صافيةً تصحّح علاقتهم مع خالقهم ، ومنهجاً ربّانيّاً ينظّم حياتهم .

واستمرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذه الدعوة السرّية أكثر من ثلاث سنوات ، ظلّ فيها يعلّم حقائق التوحيد ، ويغرس معاني الإيمان ومحاسن الأخلاق ، وتمّ اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم لهذه المهمّة

وفي هذه الفترة شُرعت الصلاة ركعتين في الصباح ، وركعتين في المساء ، وذلك في قوله تعالى : { وسبح بحمد ربك بالعشيّ والإبكار } (غافر : ٥٥) ، وكان الصحابة يستخفون بصلاتهم في الوديان والشعاب لئلا يفتضح أمرهم .

واستمرّ الناس في الانضمام تحت لواء الدين الجديد حتى تكوّنت الجماعة الإسلاميّة الأولى واشتدّ عودها ، وحان الانتقال إلى مرحلة المواجهة والجهر بالدعوة ، بما قد تحمله من أذى

وتعذيب وتضحيات ، وكانت البداية عند نزول قوله تعالى: { وأنذر عشيرتك الأقربين } (الشعراء : ٢١٤

الجهر بالدعوة :

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث الناس به، ثم إن الله عز وجل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي في الناس بأمره ويدعو إليه، وكان مدة ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستسر به إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين فيما بلغني من بعثه، ثم قال الله له:] فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤] ثم قال: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٤-٢١٥] {وَقُلْ إِنِّيۤ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ} [الحجر: ٨٩] فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته صلى الله عليه وسلم إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون.

دفاع أبي طالب عن الحبيب

وحدَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مظهراً له لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعُتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدَبَ عليه، وقام دونه، ولم يسلمه لهم. مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظُهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرَي الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، فتذامروا عليه، وحض بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب، إن لك شِنًّا وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يملك أحد الفريقين، أو كما قال، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه.

محاولة للتوفيق بين النبي والمشركين

وذكر أن أبا طالب لما قالت له قريش هذه المقالة، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا له، فابق علي وعلى نفسك، ولا تحُمِلّني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه في بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر الله وأهلكِ فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قام"، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا.

مساومة قريش لأبي طالب

ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل، قال: والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا، فقال المطعم بن عدي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك، فحقب الأمر، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضًا.

المحاضرة الرابعة

الهجرة الى المدينة

طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها الهجرة في القرآن الكريم: آيات الهجرة: ١- الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين. ٢- الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم. ٣- الطائفة الثالث: الهجرة الى الله ورسوله. ٤- الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية: ١- الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية. ٢- التكيّف بعد الهجرة اخلاقية رد الامانات الى الناس.

طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها:

هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة غرّة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث، وفي تلك الليلة بات امير المؤمنين (ع) على فراش النبي (ص)، كما اشرنا الى ذلك

آنفاً. وكان علي (ع) « يجهز النبي (ص) حين كان بالغار، ويأتيه بالطعام [بعد ان] استأجر له ثلاث رواحل، له (ص) ولابي بكر ودليلهم عبد الله بن أرقط، وخلّفه النبي (ص)... وأمره أن يؤدي عنه امانته ووصايا من كان يوصي اليه، وما كان يؤتمن عليه من مال [فإنما كان يسمّى الامين]، فأدى امانته كلّها... وأمر النبي (ص) علياً (ع) ان يلحقه بالمدينة، فخرج علي (ع) في طلبه بعد ما أخرج اليه فكان يمشي من الليل، ويكمن بالنهار حتى قدم المدينة. فلما بلغ النبي (ص) قدومه قال: ادعوا لي علياً، فقالوا: انه لا يقدر ان يمشي فأتاه النبي (ص) فلما رآه النبي (ص) اعتنقه وبكى رحمة له مما رأى بقدميه من الورم وكانتا تقطران دماً.... ثم « دعا له بالعافية ومسح رجليه فلم يشتكهما بعد ذلك».

و«روى الثعلبي في تفسيره قال: لما اراد النبي الهجرة خلّف علياً لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده». وعلّق السيد ابن طاووس في طرائفه: «ثم العجب انه ما كفاه ذلك كله حتى يقيم ثلاثة ايام بمكة بعد النبي (ص) يردّ الودائع، ويقضي الديون ويجهّز عياله ويسدّ مسده، ويحمل حرمه الى المدينة بقلب راسخ ورأي شامخ» . وهاجر (ع) الى يثرب وله ثلاث وعشرون سنة، وللنبي (ص) ثلاث وخمسون، ولفاطمة (ع) ثمان سنين.

واول ما نزل النبي (ص) حين هاجر من مكة الى المدينة في قباء. واول مسجد بُني في الاسلام وهو مسجد قباء يبعد عن المدينة، بالحساب المتري، ثلاث كيلو مترات ونصف. وبقي رسول الله (ص) في قبا مدة عشرين ليلة ينتظر قدوم امير المؤمنين (ع). ومدة بقائه في قبا كان (ص) يصلي قصراً.

الهجرة: في القرآن الكريم :

الهَجرُ في اللغة: ضد الوصل. يقال هَجَرَهُ هَجراً وهِجراناً. والاسم: الهِجرَةُ. والهِجرَتان: هجرةٌ الى الحبشة، وهجرةٌ الى المدينة. والمهاجَرةُ من أرضٍ الى أرضٍ: تركُ الوطن.

ومع ان القرآن الكريم تعرض الى موضوع الهجرة في مواطن عديدة، الا انه لم يعرّفها، بل ترك تحديدها وتعرفها الى العرف الاجتماعي. فما يعرفه العرف من الهجرة ينطبق على منطوق الآية الشريفة، كما هو الحال في قوله تعالى: (يا أيُّها الذينَ آمَنوا أوفُوا بالعُقودِ...) فترك تعريف معنى العقد الى العرف الاجتماعي. وكذلك ترك تحديد معنى الهجرة الى العرف.

والملاحظ ان الآيات القرآنية التي تناولت الهجرة انما قصدت الهجرة الى المدينة، ولم تشر الى هجرة الحبشة. ولذلك فأننا نميل الى اعتبار اطلاق لفظ «الهجرة» على «الخروج الى الحبشة» اطلاقاً مجازياً. والا فلم تكن تلك هجرة دائميه. بل كانت هجرة مؤقتة بأذن من الله ورسوله من اجل الامن والراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم وفتنتهم. ولذلك يطلق على الهجرة الاولى الى ارض الحبشة الخروج الى الحبشة. ولا يطلق على الهجرة الثانية الى المدينة الخروج الى المدينة.

وقد خرج جعفر بن ابي طالب (رض) الى الحبشة، ولكن علياً (ع) لم يخرج اليها، بل بقي مع رسول الله (ص) يحميه ويحمي الرسالة ضد الشرك. وكان مجموع الذين ذهبوا الى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً.

ولكن الهجرة الى المدينة كانت هجرة حقيقية، لان رسول الله (ص) كان عازماً على تأسيس دولته الدينية هناك. وكان مصمماً على التعامل مع الاحداث تعاملاً عالمياً لا ينحصر بأم القرى او قريش او العرب، بل الدنيا كلها. فكانت الهجرة الى المدينة دائميه ولم تكن عملية مؤقتة.

آيات الهجرة:

ويمكننا تصنيف الآيات القرآنية التي وردت في الهجرة الى اربع طوائف هي: في صفة المهاجرين المؤمنين، وادانة الذين لم يهاجروا من دار الشرك او حرمانهم من بعض حقوقهم، وتقييد الهجرة بكونها في سبيل الله، وضرورة مساعدة المهاجرين.

١- الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين

لقد انحصر المسلمون في تلك الفترة بالخصوص بطائفتين، هم: المهاجرون الذين هاجروا من مكة الى المدينة، والانصار وهم الذين آووا النبي (ص) واحتفوا بالمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله (ص). وعدا ذلك، كان هناك قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر.

فجعل الله بين المهاجرون والانصار ولاية شرعية: (إنَّ الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسهِم في سَبيلِ اللهِ والذينَ آوَوا ونَصَروُا أولئِكَ بَعضُهُم أولياءُ بَعضٍ...). ووصف أعمالهم بأنها اثر من آثار الايمان الحق: (والذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ والذينَ آوَوا ونَصَروا أولِئكَ هُمُ المُؤمِنونَ حَقّاً لَهُم مَغفِرَةٌ ورِزقٌ كَريمٌ) ، ثم وصف الذين هاجروا لاحقاً بالقول: (والذينَ آمَنوا مِن بَعدُ وهاجَروا وجاهَدوا مَعَكُم فأولئكَ مِنكُم...). وفضّل الله عزّ وجلّ المهاجرين ورفع درجتهم: (الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ بأموالِهِم وأنفُسِهِم أعظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وأولئكَ هُمُ الفائزونَ).

فمن صفات الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووهم ونصروهم:

١- ولاية بعضهم على بعض، أي التولي بين المهاجرين والانصار، عدا ولاية الارث لأنها مختصة بالأرحام والقرابة.

٢- انهم مؤمنون حقاً. فقد اثبتوا في اعمالهم وافعالهم انهم اتصفوا بالصفات الحقيقية للأيمان. فوعدهم الله بالمغفرة والرزق الكريم.

٣- ان الهجرة كانت من لوازم الايمان، فكان يسبق الكلام عن الهجرة كلام عن الايمان بصيغة: الذين آمنوا وهاجروا... فنستفيد مفهوماً ان الاعمال من غير ايمان بالله عزّ وجلّ _ وبضمنها الهجرة _ لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله.

٤- اظهار صفة التفاضل بين المهاجرين وغير المهاجرين من المؤمنين. فالمؤمن المهاجر اعظم درجة عند الله، لأنه بذل ما استطاع في سبيله عزّ وجلّ، من الايمان والهجرة والجهاد.

٢ - الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم :

وهي على قسمين:

الاول: نفت فيه الولاية بين المؤمنين المهاجرين والانصار من جهة وبين المؤمنين غير المهاجرين الباقين في مكة من جهة أُخرى، الا ولاية النصرة اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق. وفي ذلك قال تعالى: (... والذينَ آمَنوا ولَم يُهاجِروا ما لَكُم مِن ولايَتهم مِن شَيءٍ حتّى يُهاجِروا وإنِ استَنصَروُكُم في الدينِ فَعَلَيكُم النَّصرُ إلاّ على قَومٍ بَينَكُم وبَينَهُم ميثاقٌ...) . وما نزل في قوم من المشركين اظهروا الايمان للمؤمنين ثم عادوا الى مقرهم وشاركوا المشركين في شركهم: (... فلا تتخِذوا مِنهُم أولياءَ حتّى يُهاجِروا في سَبيلِ اللهِ...) فنهاهم عن ولايتهم الا ان يهاجروا في سبيل الله، فان تولوا فليس عليهم فيهم الا اخذهم وقتلهم. فكان على المؤمنين ان يكلّفوا هؤلاء المعنيين بالآية بالمهاجرة، فان اجابوا فليوالوهم. وان تولوا فليقتلوهم.

والثاني: ادانت الذين ظلموا انفسهم بالأعراض عن دين الله وترك اقامة شعائره من جهة وجودهم في بلاد الشرك ولم يهاجروا الى بلاد الله الواسعة التي يُعبد فيها الله سبحانه دون خوف. فقال تعالى: (إنَّ الذينَ تَتَوفّاهُمُ الملائِكَةُ ظالِمي أنفُسِهِم قالوا فيمَ كُنتُم قالوا كُنّا مُستَضعَفينَ في الأرضِ قالوا أَلَم تَكُن أرضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِروا فيها فأولئكَ مأواهُم جَهنَّمُ وساءَت مَصيراً) وفي الآية استثناء منقطع بالمستضعفين الذين لا يتمكنون من الهجرة: (إلاّ المُستَضعَفينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والوِلدانِ لا يَستطيعُونَ حيلَةً ولا يَهتَدونَ سَبيلاً) .

ونستلهم مما ذكر من آيات هذه الطائفة مما يلي:

١- حرمان المؤمن غير المهاجر من حق الولاية على المؤمن المهاجر. ذلك لان المؤمن في مجتمع الشرك لا يستطيع ان يمارس امور الدين بوحي ارادته، بل ان الاكراه والضغط من قبلهم يستوجب التقية احياناً.

٢- ان امتحان المشركين الذين اظهروا الايمان في البداية وعادوا الى شركهم، كان عن طريق تكليفهم بالمهاجرة الى دار الاسلام. فإن أجابوا كان على المؤمنين موالاتهم. وإن لم يستجيبوا كان على المؤمنين قتلهم. ولكنهم لم يستجيبوا الى ذلك، ففشلوا في الامتحان، وحقّ عليهم القتل لانهم مشركون.

٣- ان الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام حيث يعبد الله هي الطريق الوحيد للتخلص من عذاب الله. ففي دار الاسلام يكمن المجال الحقيقي للايمان والعمل والقدرة على نشر الاسلام وتطبيق مصاديق الدين في العدالة بين الناس.

٣- الطائفة الثالثة: الهجرة الى الله ورسوله

وهي كناية عن المهاجرة الى ارض الاسلام حيث يتمكن فيها المهاجر من العلم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) والعمل بهما. قال تعالى: (ومَن يُهاجِر في سَبيلِ اللهِ يَجد في الأرضِ مُراغَماً كثيرَاً وسَعَةً ومَن يَخرُج مِن بَيتِهِ مُهاجِراً الى اللهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدركهُ المَوتُ فقَد وَقَعَ أجرُهُ على اللهِ وكان اللهُ غَفوراً رحيماً) (والذينَ هاجَروا في اللهِ مِن بَعدِ ما ظُلِمُوا لنبوِئَنَّهُم في الدُنيا حَسَنَةً ولأجرُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَو كانُوا يَعلَمونَ . والذينَ صَبَروا وعلى ربِّهِم يَتَوكَّلونَ) (والذينَ هاجَروا في سَبيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أو ماتُوا لَيرزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزقاً حَسَناً وإنَّ اللهَ لَهُوَ خَيرُ الرازقينَ) (فآمَنَ لَهُ لُوطٌ وقالَ إنّي مُهاجِرٌ الى ربِّي إنَّهُ هُوَ العزيزُ الحَكيمُ) والمراد بالمهاجرة الى الله هنا هو هجرة الوطن والخروج الى بلد ليس للمشركين فيه دخل فيمنعونه من عبادة الله. والمهاجرة الى الله من المجازات العقلية. وقد قيد تلك الآيات: الهجرة، بكونها في الله أو في سبيل الله، لان المثوبة تترتب على صالح العمل. ولا يكون العمل صالحاً ما لم يثبت خلوص النية لله سبحانه، وما لم تنتفِ المقاصد الدنيوية والمصالح الشخصية.

ونفهم من آيات هذه الطائفة:

١- وقوع الاجر على الله للمهاجر إذا ادركه الموت من وفاة أو قتل، وهو استعارة لفظية بالكناية عن لزوم الاجر والثواب له تعالى واخذه ذلك في عهدته. والرزق الحسن هو الاجر العظيم.

٢- ان الهدف من الهجرة الى دار الايمان وترك دار الشرك هو طلب مرضاة الله وتقوية المجتمع الاسلامي عبر الانسجام والاتحاد والتعاون على البر والتقوى، واعلاء كلمة التوحيد، ونشر العدل بين الناس. بينما كانت الطائفة التي لم تهاجر في سبيل الله تنصر الشرك. ولو أخذنا الآيات على اطلاقها لاستنتجنا بان على المسلم ان يقيم اقامة دائميه في دار الايمان حيث يتمكن فيها من تعلم احكام الدين، ويقدر على اقامة شعائره والعمل بأحكامه.

٣- قُيدت الهجرة في الله بقيد الظلم الذي تعرض له المسلمون في مكة. ويفهم من تقدير آية (والذينَ هاجَروا في سَبيلِ اللهِ مِن بَعدِ ما ظُلِمُوا...) الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه. أي ان المبرر الذي دعى المؤمنين للهجرة هو: ظلم الظالم في دار الشرك، وحاجة الاسلام الى المسلمين المهاجرين في دار الاسلام.

٤- ان اقامة احكام الدين في دار الاسلام تساعد بشكل حاسم على اقامة المجتمع الذي يُعبد فيه الله سبحانه، ولا يحكم فيه الا بالعدل والاحسان. ولذلك ذيّلت الهجرة بالقول: (لَنُبوّئَنَّهُم في الدنيا حَسَنَةً...) وهو الوعد الجميل بالمجتمع الديني الصالح المستقر.

٥- الملازمة بين الهجرة والمحن التي تلازم المهاجر، ولذلك نلحظ توصيف المهاجرين بانهم اناس يتحلون بالصبر والتوكل: (... والذينَ صَبَروا وعلى ربِّهم يَتَوكَّلُونَ)

٤- الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله

فقد حثّت الآيات الكريمة الاثرياء على عدم التقصير في ايتاء اولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم: (ولا يأتَلِ أولوا الفضلِ مِنكُم والسعةِ أن يُؤتوا أولي القُربى والمَساكينَ والمهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ...) وهذه الآية وردت في معرض حديث الافك، وحثت أولئك الذين أرادوا قطع الايتاء ان يستمروا على ادامة المساعدة. وآية أُخرى تقول: (للفُقَراءِ المُهاجِرينَ الذينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم يَبتَغُونَ فَضلاً من اللهِ ورِضواناً ويَنصُرونَ اللهَ ورسولَهُ أولئكَ هُمُ الصادِقُونَ) وهذه الآية بيّنت وجه صرف الخمس في هؤلاء الفقراء المهاجرين ؛ وإعطائهم ايّاه يعدُّ صرفاً له في سبيل الله. قيل ان النبي (ص) قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الانصار شيئاً الا رجلين من فقراءهم أو ثلاثة. والمراد من المهاجرين هم من هاجر من المسلمين من مكة الى المدينة قبل الفتح وهم الذين اخرجهم كفار مكة بالإكراه فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا الى دار الاسلام.

ونستفيد من ظواهر آيات هذه الطائفة:

١- ان المهاجرين اصبحوا من الفقراء، وامسوا مصداقاً من مصاديق صرف الخمس في سبيل الله. ذلك لانهم اضطروا للهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام وهي مدينة رسول الله (ص)، وتركوا أموالهم ومساكنهم، تضحيةً منهم في سبيل الله.

٢- الحثّ على مساعدة المهاجرين في سبيل الله _ على سبيل الاستحباب _ لانهم فقراء ضحوا بأموالهم ومتعلقاتهم الاجتماعية من اجل الدين. وورود الآية في معرض حديث الافك لا يخصص المورد، بل يمكن أخذ الآية على اطلاقها.

الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية

تعني الهجرة حركة الافراد بصورة نهائية الى مكان جديد، بعد ان يقطعوا مسافة طويلة بواسطة أو مشياً على الاقدام. فالأفراد الذين ينتقلون من قريتهم الى قرية مجاورة لا يُعتبر تحركهم هجرة، ولا الذين ينتقلون الى منطقة بعيدة بشكل مؤقت مع انه قد يطلق على ذلك «هجرة» مجازاً. ولكن الهجرة تتطلب: الابتعاد عن الوطن مسافة بعيدة، والبقاء في الوطن الجديد بصورة دائميه ونهائية. وقد كانت الهجرة من مكة الى يثرب في غرة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث النبوي الشريف هجرة حقيقية، لأنها كانت تعني الابتعاد عن الوطن مسافة طويلة، ولان النية كانت استحداث مدينة دائميه لعاصمة الاسلام. وقد تحقق ذلك. ولكن الذهاب الى الحبشة من قبل جعفر بن ابي طالب وعدد من المسلمين تسمّى هجرة مجازاً. فهي ليست هجرة حقيقية لان النبي (ص) لم يكن يفكر ببناء دولته في الحبشة، ولا الاستقرار فيها.

١- الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية:

ولا شك ان الذهاب الى يثرب من قبل المسلمين لم يكن مجرد انتقال عابر من مدينة الى اخرى، بل كانت حركة مخطط لها وكانت هجرة في سبيل الله. وقد أشار القرآن المجيد الى ذلك

بالقول: (الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ بأموالِهِم وأنفُسِهِم أعظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ...). وفلسفة الهجرة من مكة الى المدينة _ التي نوّرها رسول الله (ص) بوجوده فيها _ تستبطن فكرة تصرح بانه كانت هناك فرصة لتثبيت الاسلام في موقع آمن ونشره في العالم، بعد ان كان محصوراً في بيوت معدودة في مكة. فلم تكن تلك الهجرة اذن اقتصادية او اجتماعية بل كانت دينية وجهادية بكل ما تعنيه الكلمة. وعندما نتحدث عن الهجرة وندرسها، فان ما يعنينا منها هو المهاجر، فهو أصل الهجرة، ومن أجله ومن اجل الفكرة التي يحملها تمت تلك العملية الشاقة.

والمحور في شخصية المهاجر هو شعوره بالطموح نحو المستقبل، وامتلاء نفسه بالأمل في التغيير والبناء. فالفرد الذي لا يقتنع بدوره الاجتماعي والديني في بلده، يبدأ بالتفكير بالهجرة الى مكان جديد من اجل غد مشرق ومستقبل أفضل. وقد كان المهاجرون المسلمون الى المدينة يحلمون بتحدي المشركين ومقاتلتهم بالسيف حتى تنتشر كلمة التوحيد في جميع أنحاء الارض. وكان طموحهم يتجاوز اطار الصحراء العربية ليصل الى العالم كله.

ولا شك ان الاضطهاد الديني يُعدّ من اهم العوامل التي تدفع الانسان للهجرة من بلده. وقد عانى رسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية المسلمين من ظلم قريش ومحاربتها للدين الجديد. ولذلك فقد كانت الهجرة عملية حتمية. لان التقية مقيدة بعدم القدرة على مواجهة الظالم، ولا يمكن ان تؤدي وظيفتها في ظرف كان يتطلب الانطلاق والتحرك والجهاد في سبيل الله ومقاتلة المشركين. وقد أُستخدمت التقية على نطاق ضيّق في قضية عمار بن ياسر ومسلمين مستضعفين آخرين. ولكن استثمار رخصة التقية لا يمكن ان يستمر هكذا فيختنق الدين، فكان لابد من التحرك باتجاه المدينة.

وكان ذلك التحرك الجماعي للمسلمين في السنة الثالثة عشرة من المبعث قد غيّر الخريطة السكانية والسياسية لمكة والمدينة. ذلك ان المهاجرين المسلمين كانوا اصحاب عقيدة يطمحون من هجرتهم تحقيق اهدافهم في نشر الدين الجديد، ولم يكونوا مجرد مهاجرين من اجل مصالح شخصية محدودة وأمل بالاسترخاء، خصوصاً اهل بيت النبوة (ع) ابتداءً برسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية بني هاشم كحمزة وجعفر الذي كان في الحبشة، مروراً بأصحاب رسول الله (ص) كعمار وسلمان وأبي ذر والمقداد وغيرهم، وانتهاءً ببقية المسلمين.

فالهجرة المباركة تلك يمكن تشخيص ملامحها عبر تشخيص اهدافها والقوة التي كانت تضعها في المؤمنين بالدين الجديد. فقد كان الجو الايماني الملتهب ضدّ المشركين، والامداد المعنوي الذي كان يمدّه نزول القرآن المجيد على النبي (ص)، وقيادة رسول الله (ص) للمواجهة بين الايمان والكفر من العوامل الحاسمة في شحن شخصيات المهاجرين. ولم يكن رسول الله (ص) ليهاجر في البداية ليأمن أذى المشركين، بل كان (ص) من أواخر من هاجر. وكان علي (ع)

آخر من هاجر من المسلمين مع الفوطم. وبذلك فقد ضرب رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) أروع الامثلة في القيادة الدينية وعدم الاكتراث بالموت.

وفي ضوء ذلك فاننا عندما ننظر الى تلك الهجرة التأريخية العظمى، فاننا لا ننظر الى حجم المهاجرين وطبيعة شبكتهم الاجتماعية والانسانية، بل ننظر الى النوعية التي هاجرت مع رسول الله (ص) وغيّرت وجه التأريخ وأصبحت قدوة للاجيال الانسانية المتلاحقة. وفيهم اهل بيت النبوة (ع).

ومن اللافت للنظر ان المسلمين هاجروا بشكل مجموعات وجماعات صغيرة وكبيرة، فكان سلوكهم سلوكاً جمعياً يحمي بعضهم بعضاً عدا علي (ع). فقد هاجر علي (ع) مع الفواطم وكان حاميهم الوحيد من أعداء جمعوا كل قواهم المعنوية لمحاربة بطل الاسلام. وكان لحوقهم لعلي (ع) وهو على اطراف مكة ماشياً نحو المدينة خير دليل على ذلك. ولكن علياً (ع) وشجاعته الاستثنائية المستمدة من الايمان بالسماء، جعلتهم يرجعون عن مطاردته فضلاً عن مقاتلته.

لقد كان الايمان الذي دفعه (ع) للهجرة بتلك الطريقة العلنية المتحدية لقريش هزيمة نفسية للمشركين وانتصار للاسلام وأبطاله. فقد نام على فراش النبي (ص) فادياً نفسه، ومكث ثلاثة ايام يردّ الودائع الى اصحابها، وأخذ الفواطم في هجرته (أمه فاطمة بنت اسد ، وفاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وقيل انها فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) ودافع عنهن دفاع الابطال عندما ارادت قريش مهاجمتهم. فأي اهانة وجهها عليٌ (ع) لقريش، وأي تمريغ بالتراب مرّغ أنف قريش؟

وأهم من ذلك ان أخطر ما في الهجرة التأريخية من مكة الى المدينة كان: حفظ شخصية رسول الله (ص)، وبذلك حُفظت بيضة الاسلام. وتمت صيانة النبوة والامامة الى أجل مرسوم، حتى تحقق أهدافهما على الارض.

٢ – التكيّف بعد الهجرة:

وكانت الهجرة تقتضي تكيّفاً انسانياً واجتماعياً مع البلد الجديد وأهله. وقد استقبلت المدينة المهاجرين من مكة واحتضنتهم، ولكن بقيت شريحة من اهل يثرب تعمل ضدّ الاسلام، وهم الذين اتخذوا صفة النفاق والكيد ضد الدين الجديد. وكان في مقدمتهم عبد الله بن ابي سلول، رأس النفاق. وقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: (ولِيَعلَمِ الذينَ نافَقوا وقيلَ لَهُم تَعالَوا قاتِلوُا في سَبيلِ اللهِ أوِ ادفَعوا . قالوا لَو نَعلَمُ قِتالاً لاتبعناكُم هُم لِلكُفرِ يومئذٍ أقربُ منهُم للإيمانِ يقولونَ بأفواهِهِم ما لَيسَ في قُلُوبهم واللهُ أعلَمُ بِما يَكتُمونَ، (الذينَ قالوا لإخوانِهم وقَعَدوا لَو أطاعونا ما قُتِلوا قُل فادرَأوا عن أنفُسِكُمُ المَوتَ إن كُنتُم صادِقين). فهؤلاء المنافقين خذلوا المسلمين لاحقاً قبل ان تبدأ المعارك الكبرى، وثبطوا الناس عن القتال فكانوا اقرب الى الكفر منهم الى الايمان. فليس غريباً ان يعادي هؤلاء المنافقون المهاجرين ويعتبرونهم ثقلاً جديداً على مدينتهم.

لقد رافقت عملية الهجرة مشقة عظيمة انحصرت بشخصيات المهاجرين كالبعد عن الاهل وصعوبة التكيّف وضنك العيش، الا ان طبيعة المبادرة بقيّت بيد النبي (ص). فهو الذي كان يقود مجتمع المدينة وينظّم شؤون الدولة والافراد بما كان يوحيه اليه وحي السماء. فقد آخى (ص) بين المهاجرين والانصار، وآخى (ص) بينه وبين علي (ع)، وهو الذي كان يدعوهم جميعاً للقتال فيساهموا فيه ويشتركوا في تحمّل أعبائه الباهظة عدا ما يكون عند بعض الذين في قلوبهم مرض. ولا شك ان المؤاخاة التي أعلنها رسول الله (ص) بين المهاجرين والانصار كان لها هدفان. الاول: اعادة تأهيل المهاجرين نفسياً واجتماعياً. والثاني: دمج مجتمع المهاجرين بمجتمع الانصار وتوحيدهم عقائدياً تحت راية الاسلام. بينما كانت مؤاخاته (ص) مع علي (ع) تهدف الى تثبيت موقع علي (ع) منه (ص) ومن الرسالة ايضاً، حتى لا يفقد الذين اعماهم الحقد الجاهلي نظرتهم الواقعية لشخصيته الرسالية (ع) في خضمّ مشقة الهجرة وواقع المجتمع الجديد.

«قال ابن اسحاق: وآخى رسول الله (ص) بين اصحابه من المهاجرين والانصار... ثم اخذ بيد علي بن ابي طالب، فقال: هذا اخي» ثمّ علّق ابن اسحاق قائلاً: «فكان رسول الله (ص) سيد المرسلين، وامام المتقين ، ورسول ربّ العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن ابي طالب (رضي الله عنه) أخوين»، بينما كان حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله (ص) وعم رسول الله (ص)، وزيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخوين.

وعلّق السهيلي على ذلك على ما في هامش «سيرة ابن هشام»: «آخى رسول الله (ص) بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض. فلما عزّ الاسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة انزل الله سبحانه: (... وأُولوا الأرحامِ بَعضُهُم أولى ببعضٍ في كِتابِ اللهِ... يعني في الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم اخوة فقال: (إنَّما المؤمنونَ إخوَةٌ...) يعني في التوادد، وشمول الدعوة».

وقد كانت تلك الهجرة فريدة من نوعها، لان المهاجرين كانوا بحاجة الى تكيّف اجتماعي ؛ بينما كان المهاجرون والانصار معاً بحاجة الى تكيّف عقلي ونفسي مع العقيدة الجديدة. ولذلك كان دور علي (ع) الفكري والحربي البطولي والروحي وزهده في الحياة _ في دار الهجرة الجديد _ مهماً في تثبيت اسس الاسلام ورسالته الخالدة. وبالخصوص من خلال كفاحه مع جيش النبي (ص)، وجهاده في نشر مبادي تلك العقيدة وتعليم القرآن، وضربه المثل الأعلى في القدوة.

ولم يكن التكيّف الاقتصادي للمهاجرين سهلاً، فقد بقي اغلبهم فقراء من أهل الصفة والفاقة، لا يملكون ما ينفقون. يروى ان صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك! فقال

لهم صهيب: أرأيتم ان جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فاني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله (ص). فقال: ربح صهيب ربح صهيب.

وكان المهاجرون يصحبون رسول الله (ص) ويشتركون في قتال المشركين في الحروب التي خاضها (ص). وبقي علي (ع) زاهداً في معاشه وحياته. فقد كان يقاتل قتال الابطال ويشد على بطنه الحجر من الجوع.

ولكن التكيّف الاجتماعي والنفسي السريع كان مصحوباً بنزول القرآن المجيد على النبي (ص) وايصاله الى المسلمين جميعاً. وكان القرآن وسنّة رسول الله (ص) تخلق وضعاً قانونياً جديداً للمجتمع الاسلامي الحديث، خصوصاً فيما يتعلّق بالعقود، والنكاح، والارث، والتعامل مع المؤمنين، والعبادات الجماعية. فكانت الاحكام الشرعية تثري المجتمع الجديد بقوانين النظام والحركة والعمل المشترك.

ان التكيّف السريع الذي تمّ بين المهاجرين والانصار كان متوقعاً على المدى القصير. لان الطرفين كانا يحملان تشابهاً وانسجاماً في التركيبة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ولكن ظهر الاختلاف واضحاً جلياً يوم السقيفة بعد وفاة رسول الله (ص) عندما تنادوا: منّا امير ومنكم امير.

ولكن علياً (ع) الذي آخاه رسول الله (ص) مع نفسه أول الهجرة لم يكن يفكر بذلك الفصل بينه وبين رسول الله (ص)، كما كان بعض الانصار والمهاجرين يفكر بعد وفاته (ص). فقد كان الانسجام الديني تاماً بينهما (عليهما السلام)، بل كان علي (ع) جزءً من رسول الله (ص) يحمل هم العقيدة، وينظر الى ما بعد فترة المصاعب والمشاق، وكان (ع) يرى اهداف الاسلام المستقبلية بنور الله عزّ وجلّ.

لقد كانت حياة علي (ع) مبنية على الهجرة في سبيل الله، والحركة من موضع الى آخر من أجل اعلاء الاسلام. فقد انتقل من مكة الى المدينة، ومن المدينة الى الكوفة، وانتقل في معاركه من المدينة الى البصرة، ومن الكوفة الى الشام. وبكلمة، فلم يركن الى العيش الرغيد في منطقة آمنة يسترخي فيها، كما كان البعض يتوقع. بل كان يتحرك _ بيقين _ حيث ما يُرضي الله تعالى ويُرضي رسوله (ص).

اخلاقية رد الامانات الى الناس:

أقام علي (ع) بمكة بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة يرد الودائع ويقضي الديون. وكان وضعه (ع) الامني مع المشركين في مكة خطيراً للغاية، فما الذي دعاه لذلك؟ ان الحديث عن رد الامانات الى الناس يقودنا الى الحديث عن الاخلاقية الدينية عند علي (ع) والتي تعلمها من رسول الله (ص). فلا شك ان اهم ثمار الشخصية الاخلاقية التي كان يحملها (ع) هو ان سلوكه بين الناس كان ترجمة عملية لمفاهيم الدين. فهو الاسلام المتحرك في المجتمع، ومن هنا كان سلوكه الاخلاقي متطابقاً مع النظرية الاخلاقية للسماء. ومن الطبيعي فان السلوك الاخلاقي في

رد الامانات والودائع وقضاء الديون يساهم في نشر الانسجام الديني والاخلاقي بين الناس. ومع ان مجتمع مكة كان مشركاً، الا ان العديد من افراده كانت عندهم القابلية على اعتناق الاسلام اذا لمسوا من أحكام الدين تغييراً في حياتهم الاجتماعية والاخلاقية.

فكان رد الامانات التي كانت بعهدة رسول الله (ص) الى الناس مهمة _ من الناحية الاخلاقية _ الى درجة ان تلك الاهمية كانت متناسبة مع حجم الخطورة التي كان يواجهها علي (ع) وهو في مكة دون مناصر. ورد الامانات تعدُّ من القيم الاخلاقية التي يحنُّ لها المجتمع الانساني ايّاً كان منشأه وايّاً كانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبه. ولا شك ان فضيلة الوفاء برد الامانة كان قد أمضاها الدين الحنيف، بينما اوكل رسول الله (ص) علياً (ع) بتنفيذ تلك المهمة الصعبة. ومن هنا نفهم امضاء الدين الاتفاق الاجتماعي حول الوفاء برد الامانة، لانها عمل خير يؤدّي _ عاجلاً أو آجلاً _ الى استتباب الامن الاجتماعي والاقتصادي بين الناس، واظهار الروحية المثلى للمسلم الملتزم بتعاليم الاسلام. وبذلك فقد عمل الاسلام في انارة الامور التالية:

اولاً: ان الوفاء برد الامانات كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله (ص) قبل البعثة وبعدها. حيث اؤتمن (ص) على اموال الناس وحاجاتهم، ولذلك شاع عنه (ص) بانه الصادق الامين.

ثانياً: لم تؤخذ في قضية الوفاء برد الامانة حجم الخسارة والربح من حيث احتمالية مقتل علي (ع) من قبل مشركي قريش او انزال مطلق الاذى به (ع). وبذلك يعدُّ الوفاء برد الامانة من الاعمال الاخلاقية التي تنظر الى قيمة العمل، لا الى حجم الربح والخسارة.

ثالثاً: ان الوفاء برد الامانات طُبّق على المجتمع الوثني الكافر. حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً (ص) بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا في مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد. ولذلك بقي علي (ع) في مكة لردها. ولو أسلموا لهاجروا. نعم بقي عدد قليل من المسلمين في مكة في الخفاء. ولكن لسان دليل الروايات المتعلق بهذه المسألة لا يخص تلك القلّة، بل ان ظهور اللفظ يدل على اطلاقها على المسلمين وغيرهم. وفيه قوله تعالى: (إنَّ اللهَ يأمُركُم أن تؤدّوا الأماناتِ الى أهلِها...) وردّ الامانة الى الكافر فضلاً عن المسلم تعدُّ قيمة أخلاقية مُثلى تبناها الاسلام، وحثّ اتباعه والمؤمنين به على تطبيقها في حياتهم.

رابعاً: متانة الرابط بين الاخلاق والدين. فالإسلام هو الذي امر برد الامانات الى اهلها، حتى لو كان اصحابها من المشركين. فيكون الوفاء برد الامانات من القيم الدينية الاجتماعية. ذلك ان الدين واحكامه الشرعية تدعوان الى القيم الاخلاقية الفاضلة، وحتمية تطبيقها على النظام الاجتماعي.

خامساً: كان الوفاء برد الامانات من قبل الدين احتراماً للفرد المؤتمِن، ولا يمثّل احتراماً لسلطة المشركين من قريش. وبذلك فقد كان الحكم هنا تحكيماً للحق على الباطل على مستوى شريحة خاصة من الافراد من الذين وضعوا ثقتهم برسول الله (ص).

وبكلمة أخيرة، فان الوفاء برد الامانات الى اهلها كشف عن قدرة الدين الفعالة على التمييز بين الابعاد الموضوعية والذاتية للقيم الاخلاقية. فقد كانت تضحية الامام (ع) في البقاء ثلاثة ايام متواصلة في مكة تضحية ذاتية، رغم المخاطر المحيطة به، من اجل ان يبقى موضوع الوفاء برد الامانات حكماً ثابتاً يلتزم به المؤمنون الى يوم القيامة

المحاضرة الخامسة

قيام الدولة الإسلامية

ظهور الكيان الإسلامي:

لم يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم في إيجاد تنظيم سياسي أو تكوين دولة في مكة المكرمة لانشغاله بالدعوة إلى اللَّه وتقرير أصول العقيدة الصحيحة، ولعدم توفر العناصر الضرورية للدولة وهي: الأرض، والشعب، والسلطة.غير أن هذه الفترة المكية كانت بمثابة التمهيد للفترة المدنية من العهد النبوي، فقد تكونت فيها نواة المجتمع الإسلامي من أولئك الأفراد الذين قبلوا الدين الجديد وآمنوا برسوله، وتقررت فيها قواعد الإسلام الأساسية وخاصة ما تعلق منها بالعقيدة . جماع الإسلام كله . فوضحت بذلك وجهة الإسلام وسبيله، وبعد أن توفرت مقومات الدولة وعناصرها الأساسية توجه الشعب بالهجرة وتجمع المسلمون من مهاجرين وأنصار، ووجدت الأرض التي تقوم عليها الدولة، ووجدت السلطة بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبتجمُّع أصحابه . رضوان اللَّه عليهم . حوله، فتكونت بذلك الدولة الإسلامية، وأصبح لها كيان دولي، وحينئذٍ مست الحاجة إلى التشريع العملي على أتم صورة، فاتجه الوحي إلى تنظيم الدولة داخليا وخارجيا، فشرَّع لهم الأحكام التي تتناول شئونهم كلها، سواءٌ منها ما يتعلق بحياة الفرد أو الجماعة أو بعلاقة الدولة بغيرها.

وكانت الفترة الثانية تفصيلاً لما أجمل من قواعد الإسلام في الفترة الأولى، ونزلت التشريعات التي احتاجت إليها الدولة الجديدة في الشئون العامة والخاصة على سواء، ونزل الوحي بعدد كبير من القواعد العامة التي تستنبط فيها التشريعات الجزئية التي لم ينص عليها مباشرة في القرآن أو السنة، وما كان ذلك كله إلا للنتيجة الطبيعية لنشوء الدولة الإسلامية الأولى، وتميز المسلمين كافة عن غيرهم ممن عاشوا في الجزيرة العربية خلال هذه الفترة، وهذا الاتصال بين

الفترة المكية والفترة المدنية واضح؟ لكل من استقرأ مسيرة الدعوة الإسلامية وتطورها في عصر النبوة.

ظهور الكيان السياسي الإسلامي

كان العصر النبوي مرَّ بقسميه مرحلة تأسيس وبناء لكيان الأمة الإسلامية ووضع الأسس العامة التي سوف تحكم مسيرة هذه الأمة على طول التاريخ. وكان هذا هو الشأن في الناحية السياسية كما كان هو الشأن في كل النواحي الأخرى التي عَرَض لها الإسلام في تشريعاته وتنظيماته، وفي نصوص الوحي وإشاراته.ولذلك فإن النصوص التي تتعلق بالنظام السياسي في هذه الفترة لا تتعرض للتفصيلات إلا بالقدر الذي تمليه الضرورات العملية للمجتمع المسلم في المدينة فحسب وتكتفي فيما عدا ذلك.

ممارسة الدولة الإسلامية لوظائفها

وبعد أن استقر أمر الدولة الإسلامية في المدينة بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليها ومسارعته إلى بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ومعاهدته لليهود المقيمين في المدينة . أخذت الدولة تمارس وظائفها وتباشر مهامها التي شملت كل نواحي النشاط السياسي المعروفة آنذاك في مجالاتها المختلفة .

فأقامت العدالة عن طريق القضاء، ونظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه، وبثت التعليم بين رعاياها ومن انضم إلى الدين الجديد خارج المدينة، كما حدث في اليمن والبحرين وغيرهما، ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة، وطرق جبايتها وفق ظروف العصر، وعقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها، وأنفذت السفارات إلى العالم الخارجي، فوضعت بذلك أساسًا للعلاقات الدولية حتى تكون الدولة الإسلامية طرفًا فيها.

وعلى هذه الصورة ثبتت دعائم النظام السياسي في المدينة، ورسخت قدم الدولة الناشئة التي ضمت بعد عشر سنوات تقريبًا معظم أنحاء الجزيرة العربية، ودخل في عقيدتها وانضوى تحت حكومتها سكان هذه الجزيرة جميعًا . تقريبًا .، وقد مارست هذه الدولة الجديدة السلطات التي تمارسها أية دولة في العالم قديمة أو حديثة، وهي سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ، ورغم أن هذه التعبيرات من بدع النظم الدستورية والقانونية في العصر الحديث، إلا أنه من المسلم به: أن الدولة الإسلامية منذ قيامها قد عرفت هذه السلطات الثلاث، وأن ممارسة هذه السلطات قد نظمت وفصلت القواعد الضابطة لها في ضوء المبادئ الأصولية والفقهية التي شرحها فيما بعد الفقهاء المسلمون.

الاعمال العسكرية

السرايا :

التفت الرسول القائد(ص) بعد هذه الاعمال التنظيمية التي لابد منها قبل خوض المعركة مع الخصم العنيد القوي ، الى تنظيم الدوريات والسرايا : وكان الهدف منها الى اشعار اليهود والمشركين بقوة المسلمين وتحقيق اهداف عسكرية اخرى بالنسبة الى قريش لتأمين حرية انتشار الدعوة . وكانت فكرة التعرض لقوافل قريش التجارية من اول الاهداف التي ارادها الرسول القائد (ص) لان تلك القوافل تعتبر بالنسبة لقريش العصب الحساس ومورد الرزق ، وكان الرسول يهدد بأعماله هذه طرق التجارة لقريش ، بالتالي مكانة مكة الاقتصادية مما كان له اكبر الاثر في الضغط على قريش ، واخضاعها وابعادها من طريق حرية انتشار الاسلام والرد على عدوانها واعمال الظلم التي ارتكبتها ضد المسلمين .

وكانت تلك الدوريات والسرايا الاولى عمليات استطلاع، تعرف المسلمون خلالها على المنطقة المحيطة بالمدينة، وطرقها ؟، وقبائلها مما سيحتاجون اليه في مستقبلهم وقد استخدم الرسول (ص) في هذه الفترة اسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الاسرار العسكرية، والكتمان من اهم عوامل النصر على الاعداء ويساعد على تحقيق مبدأ المباغتة، مما عرف اثره الكبير في الحروب الحديثة فكان (ص) يعطي قائد السرية رسالة، يأمره فتحها، بعد مسير مدة معينة في تجاه معين ثم يعمل بمضمونها .

ويرى بعض الكتاب ان الغاية من تلك السرايا القليلة العدد لم يكن قتال قوافل قريش وانما تهديد سلامة طرقها واشعارها بقوة المسلمين وتحكمها في طريق مكة والشام وذلك لدفعها نحو التفاهم مع المسلمين وانهاء تلك العداوة للإسلام وتهيئة الجو لحرية انتشاره وترك من يريد اعتناق الدين الجديد دون ان تطارد بالأذى والعذاب، وبالتالي يمكن عندئذ للمسلمين ان يدخلوا مكة وان يطوقوا بالبيت العتيق.

لتحقيق هذه الاغراض ولنجاح المسلمين في الضغط على طرق مكة التجارية حالف محمد (ص) القبائل على تلك الطرق ، وحول اهداف تلك السرايا ان الانصار عندما بايعوا محمداً(ص) بايعوه على الدفاع لا على الهجوم ولهذا كان (ص) صريحاً في ذلك معهم قبيل غزوة بدر ولم يوافق على القتال الا بعد موافقهم .

ولعل من اهم هذه السرايا والدوريات الاستطلاعية التي سبقت غزوة بدر الكبرى وهي :١- سرية حمزة ٢- سرية عبيدة بن الحارث ٣- سرية سعد بن ابي وقاص ٤- غزوة الأبواء ٥- غزوة بواط ٦- غزوة العشيرة ٧- غزوة بدر الاولى ٨- سرية عبد الله بن جحش .

معركة بدر ٢ هـ :

تحتل معركة بدر مكانة خاصة في التأريخ الإسلامي ، لأنَّها أول صدام عسكري يقع بين المسلمين وأعتى أعداء المسلمين وهي قريش التي كانت تتفوق على المسلمين عدة وعدداً ، فكان عدد قريش يتراوح بين ٩٠٠ – ١٠٠٠ رجلاً ، كما قدرهم النبي الأعظم من الجزور التي ينحرونها ، في حين كان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً أو يزيد بقليل.

أما عدة قريش فكانت مائة فرس وسبعمائة بعير ، في حين إنَّ عدة المسلمين تتألف من فارسين وسبعين بعيراً ، فهي عدة بائسة قياساً بما عند قريش بالمنظور العسكري ، إلا أن المسلمين يتفوقون عليهم بمعنويات عالية واستعداد نفسي للتضحية ، كما يظهر من أقوال الصحابة التي خاطبوا بها النبي الكريم حينما حاول النبي استطلاع آرائهم عن المعركة .

أن السبب المباشر لهذه المعركة هو محاولة المسلمين السيطرة على قافلة تجارية عائدة من الشام لتجار قريش ويقودها أبو سفيان الذي استطاع أن يغير مسار القافلة ليصل بأمان إلى مكة ، فوجدت قريش الفرصة سانحة للتخلص من محمد وأتباعه ، فجهزت ذلك الجيش لتلك المهمة .

أن نتيجة المعركة كانت مهمة جداً في تقرير مصير الإسلام ، لأن أي خلل عسكري في صفوف المسلمين يعني أن النتيجة ستكون قاسية ، لا يمكن التخلص من آثارها بسهولة ، لا بل أن خطر إفناء الجماعة الإسلامية يكون أحد احتمالاتها القوية وتتضح تلك الخطورة في دعاء النبي الكريم (اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض).

ابتدأت المعركة بالمبارزة الفردية كعادة العرب في القتال ، وبرز من أبطال قريش عتبة بن ربيعة (والد هند أم معاوية) ، وابنه الوليد بن عتبة وأخوه شيبة ، وطلبوا المبارزة مع اكفائهم من بني المطلب دون غيرهم ، فندب رسول الله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، والحمزة وعلياً لمبارزتهم ، فالتقى عبيدة وكان أسن القوم مع عتبة بن ربيعة ، وبارز الحمزة شيبة بن ربيعة ، في حين بارز علي الوليد بن ربيعة ، فأما الحمزة فلم يمهل شيبة فارداه قتيلاً ، وكذلك أجهز علي على الوليد فقتله ، واختلف عبيدة مع عقبة بضربتين جرح كلاهما صاحبه وكر حمزة وعلي عليه بأسيافهم على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة بن الحارث ، كما تمكن علي بن أبي طالب من قتل حنظلة بن أبي سفيان مع طعمة بن عدي .

كانت حصيلة قتلى المشركين سبعين رجلظاً قتل علي نصفهم ، وقد ذكر بعضهم أن علياً قتل وحده من المشركين تسعاً وأربعين ، في حين إن بعضهم قال إن عدة من قتلهم واحد وعشرون قتيلاً .

وهؤلاء القتلى كانوا من عدة عشائر منهم بنو عبد العزى ، وعبد الدار ، وتيم بن مرة وبنو سهم ، وهذا يعني أن روح الانتقام والبغض لعلي بن أبي طالب توزع في هذه القبائل لأنه وترهم بأبنائهم ، ولنستمع إلى هند زوجة أبي سفيان وام معاوية كيف تندب قتلاها وتذكر علياً فيه :

ما كان من عتبة لي من صبرِ أبي وعمي وشقيقِ صدري

أخي الذي كان كضوءِ البدرِ بهم كسرت يا عليُ ظهري

وبالرغم من خطورة المعركة ، ومما تطلب من حذر وتركيز إلا أن علياً كان يترك المعركة بين الفينة والأخرى ، يأتي إلى عريش النبي للاطمئنان على سلامته، ثم يعود إلى ساحة المعركة

كانت خسائر المسلمين قليلة إذا قورنت بقتلى المشركين ، فقد استشهد أربعة عشر رجلاً في هذه المعركة ، وقد قال فلهاوزن عن نتيجتها إنها انتهت بانتصار محمد انتصارا لم يكن في الحسبان ، وأحس الناس إن هذا النصر المبين برهان إلهي على صحة الدين ، فأحدثت أثراً لا يمحى ، وكان له اكبر تأثير معنوي.

أن اشتراك علي بن أبي طالب في الطلعة الأولى من المعركة يوضح ما كان يحمله من شجاعة ومقدرة قتالية عالية تستهين بالمخاطر كما أن هذا الانجاز له دور كبير في رفع معنويات المسلمين والتعجيل بالنصر لأن المبارزة في المعارك التقليدية تلعب دوراً فعالاً في رفع معنويات المقاتلين ، وتقرير نتائج المعركة إلى حد كبير ، لأن الفشل في المبارزات الأولى قبل الالتحام يؤدي إلى انكسار الأمل وزرع اليأس ، في حين أن نجاحها يحمل روح التوثب ويكسر حاجز الخوف والقلق ، الأمر الذي يدفع المعركة صوب النصر.

ويقول احد الكتاب عن هذه المعركة أنها : المنفذ الذي اجتازه هواء الحياة إلى رئة الإسلام ، وكان علي الأسبق يداً وسيفاً إلى أعناقا لأعداء ، حيث تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر.

ويصفه القائد الانكليزي غلوب (كان علي بطلاً من أبطال القتال في أيام فتوته وشبابه ، وكان أول من نزل إلى البراز في معركتي بدر واحد بين الصفوف وتغلب على خصمه في كلتا المعركتين).

أن هذه المعركة التي أعزت الإسلام وشدت عزيمة المسلمين ، والتي أورثت علياً فخاراً ومجداً ، ألا أنها في نفس الوقت أشعلت نيران الكره والبغضاء لعلي بين القبائل التي قتل أبناءها على الشرك ، وكان أشدهم بغضاً وحقداً الأمويين وعلى رأسهم آل أبي سفيان ، فعلي قتل الوليد أخا هند أم معاوية ، واشترك في قتل عمها شيبة واسر حموها عمرو ، وقتل الثاني حنظلة ، وقد رفض أبو سفيان فداء ابنه من الأسر ، وقال : لا أجمع على دمي ومالي ، يقتل ابني حنظلة وأفدي عمراً ، فتركه ولم يفكه.

وهكذا فضل ماله على ابنه ، أن سر العداء لعلي بن أبي طالب من بعض القبائل العربية وخصوصاً آل سفيان جاء من هذه المعركة والمعارك التي تلتها وبالرغم من أنهم دخلوا في الإسلام بعد تحرير مكة عام ٨ هـ ، إلا إن قلوبهم ظلت تحمل أحقادها ، فلقد إمتلأ قلب أبي سفيان وزوجته هند قيحاً على النبي الكريم وابن عمه علي ، حتى أنها امتنعت عن البكاء ، ولما قيل لها ألا تبكين على أبيك وأخيك وأهل بيتك ؟ فقالت لا ابكيهم ... لا والله حتى اثأر من

محمد وأصحابه وحرمت على نفسها الدهن والكحل، كما ظلت نساء بني عبد شمس بأمر أبي سفيان صامتات لم تنح احدهن على قتيل ولا بكاهم شاعر ألا نهاه حتى يأخذ ثأره من محمد وأصحابه، وقد قال عن نفسه : واني الموتور الثائر قتل ابني طلحة وسادة هذا الوادي حتى أصبحً حزيناً عليهم.

كان أبو سفيان يهدف من وراء منع النوح والبكاء على قتلاهم حتى يبقى على مرجل الانتقام متقداً باعتبار أن البكاء يطفئ جمرة الغضب ، فقال : فأنكم أن نحتم وبكيتموهم بالشعر اذهب ذلك غيظكم فأكلكم عن عداوة محمد وأصحابه ثم أعلن : الدهن والنساء علي حرام حتى أغزو محمداً .

وقد تهيأ لأبي سفيان وزوجته هند أن ينفسا عن ذلك الحقد والغضب في معركة احد حيث مثلت هند بجثث المسلمين لاسيما حمزة عم النبي ، وشاركها زوجها في ذلك ولو بشكل آخر ، عابه حتى أصحابه المشركين لما في ذلك منقصة على الفرسان وتقاليد الحرب .

وفي هذا الصدد يذكر احد المؤرخين ، أن شجاعة علي مضرب الأمثال ، فهو في الطليعة دائماً في جميع غزوات الرسول ، ولا تكاد تخلو غزوة من علي مصارعاً ومبارزاً غير هياب للموت ، ولا مقيم للحياة وزناً ، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين ، ويبدو إن بطولة علي في المعارك ورد كيد المعتدين ، أورثه كثيراً من الأعداء ، فقد كانت هناك جراح في قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التي وجهها علي إلى أبطال منهم تقدموا مزهوين ببطولتهم معارضين الإسلام.

وعليه فأن معركة بدر سببت عقدة نفسية عند مشركي قريش عموماً وعند بني أمية خصوصاً ، تجاه رسول الله (ص) والإمام علي (ع) وعمهما سيد الشهداء حمزة (ع)، ويمكن أن نفهم كثيراً من الأحداث التالية على أنها ردود فعل تجاه ما حدث ومحاولات للثأر مما وقع يوم بدر.

معركة أحد ٣ هـ :

خططت قريش لهذه المعركة منذ هزيمتها المنكرة في بدر مباشرةً في محاولة للثأر من كرامتها التي تضعضعت على أيدي المسلمين ، فارتأت أن تشن حرباً انتقامية لعلها تقضي على رسول الله فتثأر لقتلاها وتشفي غليلها .

قاد هذا التوجه عدد من زعماء قريش ممن أصيب أبناؤهم في معركة بدر ، ويأتي في مقدمتهم أبو سفيان الذي وفر المال اللازم لتكاليف الحرب من القافلة التي نجت من سيطرة المسلمين عليها في بدر، وقد هيأوا جيشاً بلغت عدته ثلاثة الألف يقودهم أبو سفيان، وفيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس.

خرج جيش قريش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور ، واصطحب البعض نساءهم تقودهن هند زوجة أبي سفيان ، للحيلولة دون إقدام الرجال على الهزيمة.

وبلغ عدد النسوة اللواتي رافقن الجيش خمس عشرة امرأة، ومنهن فضلاً عن هند ، أم حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد ، أخت خالد بن الوليد ، وقد خرج بها الحارث بن المغيرة ، وربطة بنت منبه ، زوجة عمرو بن العاص ، الذي أوكل إليه مع عدد من المشركين مهمة تحريض العرب من كنانة وتهامة وغيرها للاشتراك في الحرب)، وكان على الميمنة خالد بن الوليد ، في حين كان عكرمة بن أبي جهل في ميسرة الجيش.

ونظراً لوجود عدد من النساء في جيش قريش وخشية رؤوسائهم من وقوعهن في الأسر ، تقدم أبو سفيان باقتراح هو عصارة نفس متحللة لا تقيم وزناً للأعراف، يقضي بنبش قبر أم النبي محمد من اجل مقايضة جثتها فيما إذا حصل شيء لنسائهم ، وقيل أن صاحبة الاقتراح هند زوجة أبي سفيان، وسواء كان الاقتراح لهند أو لزوجها فلا فرق بين الاثنين في الإثم ، إلا إن هذا الاقتراح قوبل بالاستهجان .ظ

وصلت أنباء استعدادات قريش إلى الرسول الأعظم بكتاب سري أرسله العباس بن عبد المطلب بيد احد الرجال، وقد اقترح النبي على المسلمين البقاء داخل المدينة ومقاتلة المشركين في شوارعها، فيما إذا هوجم المسلمون.

كان هناك عدد من المنافقين في جيش المسلمين ، ومن الغريب أن زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول، أيدَّ رأي النبي ، وأضاف أن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوهم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، ومع أن هذا الرأي يتمتع بالوجاهة ، ألّا أنَّ الشكوك تحوم حوله لأن صاحبه يفتقر إلى نقاء الموقف والضمير لأنه يعتبر رأس المنافقين في المدينة .

أما المتحمسون من المسلمين ، فإنهم حبذوا الخروج من المدينة ومقابلة المشركين لاعتقاد البعض منهم أن البقاء في الداخل يوحي للأعداء بالضعف فاستجاب رسول الله لهم ولبس لامته.

خرج رسول الله في ألف رجل ، لكن ابن سلول ومن تبعه من أهل النفاق والريب ، تذرعوا بحجة أن الرسول لم يستجب لرأيهم فانسحبوا من صفوف الجيش وبقي النبي في سبعمائة رجل، فيهم مائة دارع ولم يكن معهم من الخيل ألا فرسان.

بلا شك أن فعل ابن سلول كان محاولة لتحطيم معنويات المسلمين ووسيلة لامتصاص حماستهم أمام قريش ، لذلك أسأنا الظن باقتراحه فيما يتعلق بالبقاء في داخل المدينة لملاقاة قريش لأنه لو كان مخلصاً لم ينسحب من الجيش في هذا الوقت الحرج ، ومع ذلك عبأ النبي أصحابه ، وجعل جبل أُحد خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل خمسين من الرماة لحماية ظهورهم، وأمرهم بعدم مغادرة مواقعهم مهما كانت الظروف.

حمل علي بن أبي طالب لواء المهاجرين وتقدم إلى ساحة المعركة للرد على التحدي السافر الذي أطلقه حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة مستهزءاً بالمسلمين فنازله علي وأهوى عليه بضربة فقطع رجله ، وسقط على الأرض ، فانكشفت عورته فناشد علياً بصلة الرحم ، فتركه

وكبر رسول الله وسأل علي ما منعك من أن تجهز عليه ، قال : انه ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحيت.

إن هذا الموقف يوضح أن علياً ظل يحمل وعاء مزاياه حتى في اشد الأوقات خطورة يتعامل بها دون استثناء حتى مع اشد خصومه عداوة وحقداً ولم تنسه أهوال الحرب نبل الفروسية وأخلاقها ، وقد استغل خصوم علي هذه المزايا للتخلص من مقصلة سيفه بطريقة لا تليق بالرجال حيث يكشفون عوراتهم ويستغلون حياء علي للنجاة من الموت وقد كرر مثل هذا الفعل عمرو بن العاص وبسر بن أبي ارطأة في تمرد معاوية في موقعة صفين فصارت مثلاً سيئاً على أصحابها.

ونرجع إلى ساحة المعركة فقد قتل علي بن أبي طالب أصحاب رايات المشركين وعددهم تسعة، حتى لم يبق مع رايتهم احد وتضعضعت معنويات قريش وأمعن حمزة وعلي وأبو دجانة في ملاحقة المشركين حتى ظهرت الهزيمة عليهم وهربت النسوة المرافقات للجيش نحو الجبل ودخل المسلمون معسكرهم، وتمكن الزبير الذي كان معه المقداد بن الأسود من هزيمة خالد بن الوليد الذي كان على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل.

إلا إن هذه البداية الموفقة التي حققها المسلمون في الجولة الأولى من المعركة ، سرعان ما تحولت إلى انكسار عسكري فضاع نصر كاد أن يكون قاب قوسين أو أدنى بسبب عدم التزام الرماة بأوامر الرسول الكريم القاضية بالثبات في مواقعهم على الجبل مهما كانت الظروف ، إذ أغرتهم هزيمة قريش في ساحة المعركة ، وطمعوا في الغنائم فتركوا مواقعهم فأصبح ظهر المسلمين مكشوفاً ، فنفذ المشركون بقيادة خالد بن الوليد وقاموا بعملية التفاف من وراء المسلمين وأشاعوا فيهم القتل والاضطراب حتى خلصوا إلى النبي ، وصاح احدهم أن محمداً قد قتل.

فتَّ ذلك في عضد المسلمين ، فتفرقوا وانهزموا ، وقد أصيب النبي في المعركة وكسرت رباعيته وشج في وجهه ، وأحاط أبو دجانة بالرسول إحاطة السوار بالمعصم حتى كثر النبل فيه ، وكان سعد بن أبي وقاص يرمي دون النبي بالنبل.

لقد كثر عدد الشهداء في صفوف المسلمين ولم يبق مع النبي غير اثنتي عشر رجلاً وأصاب المشركون من المسلمين سبعين رجلاً، في حين يذكر البعض انه لم يثبت مع النبي ألا علي وطلحة والزبير وأبو دجانة ، ثم انضم إليهم عبد الله بن مسعود والمقداد بن الأسود.

كان يوماً عصيباً خارت عزائم المسلمين وشاعت الروح الانهزامية في البعض حتى تمنوا أن يأتي إليهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ليأخذ لهم أمانا من أبي سفيان، وهذا يعني أن البعض من هؤلاء المتخاذلين كانوا على استعداد للردة وطلب المغفرة من زعيم المشركين أبي سفيان ، الأمر الذي يوضح أن دخولهم في الدين الإسلامي لم يكن عن عقيدة وإخلاص وإنما كان لأغراض مادية أو شخصية ، وعلى النقيض من هذه الفئة التي أبدت استعداداً للتخلي عن

عقيدتها لأول هزة تعرضت لها ، فهناك من وقف بثبات وإستوى عنده الموت والحياة ، ومع أن المؤرخين اختلفوا فيمن بقي ثابتاً مع رسول الله في المعركة ، لكنهم لم يختلفوا على أن علياً كان أولهم ظل يكافح عن الرسول، وأبدى ضروباً من الشجاعة ما عجز عنه الآخرون وظل مرابطاً قرب النبي الذي كان يوجهه لملاقاة موجات المشركين فيحمل عليهم ويفرق جموعهم وتكررت حملاته الشجاعة حتى استحق التكريم المشهور : لا سيف ألا ذو الفقار ولا فتى ألا علي.

وفي هذا المجال لا يمكن أن ننسى حنظلة بن أبي عامر الذي خرج للقتال وكان حديث عرس وكاد أن يقتل أبا سفيان لولا أن احد المشركين عاجله بضربة قاتلة ، فقال النبي لأهله أن صاحبكم تغسله الملائكة فسمي " غسيل الملائكة ".

إلا إن الشرخ الذي سببه عدم انضباط الرماة على الجبل ، جعل نتائج المعركة مروعة ، فقد فيها المسلمون أبطالا تركوا فراغاً في الساحة العسكرية وعلى رأسهم حمزة عم النبي ، وكان لهند زوجة أبي سفيان دور بارز في التحريض على قتله إذ حرضت " وحشيٍّ " ، وهو غلام جبير بن مطعم ، بقولها: ينفذ عليّ حكمك إذا ثأرت بأبي وأخي من علي أو حمزة أو محمد ، وكان هذا العبد ماهراً في رمي الحراب ، وكانت هند تكلمه كلما مرت به وتناديه : يا أبا دسمة إشف واستشف ، وكان يكنى أبو دسمة ، فأرادت بهذا الأسلوب النسوي الناعم أن تثير عواطفه إلى جانبها وتمده بشحنة حماسية لتحقق هدفها ، كما شارك في التحريض سيده جبير بن مطعم ، ووعده بالعتق إذا قتل حمزة ثأراً لعمه طعيمة بن عدي الذي قتل في بدر، فتمكن وحشيٍّ أن يكمن له وراء شجرة واغتنم فرصة مجالدة حمزة لأحد المشركين فرماه بحربته فقتله .

اتشحت مدينة الرسول بثوب الحزن والأسى على شهداء المسلمين وسمع البكاء والنواح على القتلى ، وذرفت عينا الرسول وبكى ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له ، وهذا يشير إلى مكانته عند رسول الله، ولما سمع بعض المسلمين قول الرسول أمروا نساءهم أن يذهبن فيبكين حمزة مواساة للنبي.

انتهت المعركة بهذا الشكل المحزن ورجع المشركون إلى مكة يحملون إلى قومهم البشرى بما أصاب المسلمون من قتل ، لكن أبا سفيان وزوجته هند لم يرجعوا كالآخرين من المشركين بل أرادوا أن يتركوا على أجساد شهداء المسلمين بصمات نفوسهم المريضة ، فبقرت هند بطن حمزة واستخرجت كبده فلاكتها ومعها نسوتها يمثلن بالقتلى ويجدعن الأنوف ويقطعن الأذان حتى اتخذن منها قلائداً وخلاخلاً تشفياً ، وكانت هديتها لوحشي أقراطاً وقلائداً.

وختم أبو سفيان الفصل الأخير من المجزرة عندما شوهد وهو يضرب في شدق حمزة بالرمح وهو يقول : ذق عقق (عاق) ، فقال احدهم من جيشه يستهجن فعله القبيح ، يا بني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون لحما.... ، فقال أبو سفيان أكتمها فأنها كانت زلة، أن

هذا العمل الذي قام به أبو سفيان لا يمثل صورة بشعة للانتقام فحسب ، وإنما يمثل أيضا ما يحمل من ورح شريرة عابه حتى احد المشركين عليها

وحاول أبو سفيان أن يبرر ما حدث لشهداء المسلمين من تمثيل فنادى في المسلمين : قد كان في قتلاكم مثله والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت، وهكذا جمع في قوله الشيء ونقيضه .

وقوله هذا يؤكد بصورة جلية شماتته اللامتناهية لما حصل لصحابة النبي ، وهو بلا شك ملأ السرور قلبه ما دام ذلك اشبع رغبة زوجته هند بالانتقام من حمزة عم النبي ، أن أبا سفيان كانت بغيته الرئيسة قتل النبي الكريم بالدرجة الأولى ، لكن تضحية الصحابة حالت دون ذلك ، ومما يدلل على ذلك خطابه في جموع المسلمين قبل نشوب القتال أن: خلوا بيننا وبين ابن عمنا محمد ، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم فردوا عليه بما يكره.

أن هذا الموقف الذي ختم به أبو سفيان وزوجته معركة أُحد يوضح لنا مدى التباين بين الخلق الأموي وبين الروح الهاشمية ، بين العدوانية والانتقام ، وبين مزايا الفروسية والشجاعة ، فالنبي محمد لم يمثل بقتلى المشركين الذين قتلوا في بدر بالرغم من كونهم أعتى الطغاة وأذاقوا النبي وأصحابه صنوف العذاب والتنكيل ، فدفنهم بالقليب ما عدا أمية بن خلف الذي تفسخت جثته فوضعوا عليها الأحجار والتراب.

ويبدو أن أبا سفيان أورث أولاده وأحفاده همجية الغاب التي يتصف بها فصار التمثيل بجثث ضحاياهم وقطع الأعضاء سمة لهم في معاملة خصومهم وخصوصاً مع آل أبي طالب ، إذ سنشاهد أن هذا الفعل يتكرر في كربلاء يوم رضت خيول الأمويين جسد الحسين بن علي في كربلاء .

معركة الخندق ٥ هـ :

إذا كانت معركة احد قد تركت الموت والدماء والهلع والخوف بين المسلمين ، فأَنَّ معركة الخندق كانت اشد هولاً وأكثف رعباً منها ، إذ ظل المسلمون يعيشون أخطارها يومياً ، لمدة حوالي شهر تقريباً وهم محاصرون في مدينتهم دون إمداد أو عون ، وليس أدل على ذلك من وصف القرآن الكريم للحال الذي آل إليه المسلمون ، فقد جاء في سورة الأحزاب ((إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)).

وقد تأخرت قريش في مهاجمة المسلمين في الموعد الذي حدده أبو سفيان عند نهاية معركة أُحد عندما اقترح العام القادم موعداً للنزال، في حين أن رسول الله خرج بجيشه في ذلك الموعد التزاماً بالعهد وبقي ثمانية أيام في بدر ثم عاد لعدم مجيء قريش، وقد علل أبو سفيان عدم خروج قريش لمحاربة جيش المسلمين في الموعد الذي ضربه بالقول إنه عام جدب ولا يصلحنا ألا عام ترعى فيه الإبل والشجر وتشرب من اللبن.

وبالرغم من هذه الحجة ، إلا انه يمكن القول أنهم اعتقدوا أن الضربة التي وجهوها للمسلمين كانت كافية لإزالة الخطر عن قريش وتأمين طرقها التجارية ، فما تترتب على المعركة اشغل المسلمين في رأب الصدع الذي تعرض له كيانهم ، ثم أن قريش قبيلة تجارية واستمرارية الحرب تنهك قواهم وتستنفذ أموالهم، لذلك لم يخرجوا للقتال في الموعد.

أما المسلمون ، فإنهم بعد الانهيار العسكري في أُحد شجعَّ بعض القبائل الأخرى على تدبير المؤامرات ضدّهم مثل قبيلتي (عضل و القارة) ، ومؤامرة عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، حيث أوقع بالمسلمين أكثر من أربعين شهيداً ، بعد أن تظاهروا بالإسلام وطلبوا من رسول الله أن يرسل معهم وفداً من المسلمين لدعوة أهل نجد للإسلام ، وهناك انقضت عليهم قبائل سليم وأبادتهم عن بكرة أبيهم باستثناء واحد نجا، إلا إن قريش لم تستثمر حالة الانكسار للأسباب التي ذكرناها ، وإنما تركت الأمور تجري وشأنها .

لكن موقف قريش تغير بعد ذلك وشمرت ذراعها لحرب المسلمين لإستئصال محمّد ، أن هذا التطور في الموقف يعود إلى تحريض اليهود التي كانت تجمعاتهم في المدينة وخيبر تشكل طابوراً خامساً لقريش ، فهم لم يلتزموا بما تواعدوا عليه مع رسول الله وإنما نقضوا عهدهم ولم يفوا بالتزاماتهم، فاضطر رسول الله بعد موقعة بدر طرد قبيلة بني قينقاع اليهودية من المدينة بسبب استهتارهم بحرمات المسلمين والتحرش بإحدى نسائهم والاستخفاف بانتصار المسلمين فحاصرهم ونزحوا من المدينة إلى بلاد الشام، ثم تلاهم بنو النضير الذين دبروا مؤامرة لقتل النبي فطردوا من المدينة وخرجوا منها إلى خيبر والشام ، بعد موقعة أُحد .

لقد أغاضت هذه الإجراءات حفيظة اليهود وربما اعتقدوا أن وراء ذلك برنامجاً منظماً يهدف إلى تطهير الجزيرة من الوجود اليهودي ، وحسبوا أن طرد بني قينقاع وبني النضير مقدمات لذلك المشروع.

ونتيجة لذلك بذلوا نشاطاً محموماً للوقوف بوجه رسول الله عن طريق تكوين تحالف عسكري متعدد الأطراف لا يطيق المسلمون مقاومته فتنهار قوتهم ويتمكنون من استئصالهم ، فاتصلوا بقريش حول موضوع مهاجمة المسلمين في المدينة، باعتبار أن موافقتها سوف تشجع القبائل الأخرى على الاصطفاف بجانبهم والاتفاق معهم فيما ذهبوا إليه ، في حين أن المؤرخ اليعقوبي يرى عكس ذلك ويذكر أن قريش هي التي بعثت إلى اليهود وسائر القبائل وحرضوهم على قتال النبي.

نجح اليهود في مسعاهم في تأليف تحالف بينهم وبين قريش وقبائل غطفان وبني مرة وأشجع.

وتمكن هذا التحالف من تجهيز عشرة ألاف مقاتل توزعت قيادته بين أبي سفيان على قريش ، وعيينة بن حصن على غطفان ، والحارث بن عوف على بني مرة ، ومسعود بن رخيلة على أشجع.

وصلت أنباء هذا التحشد الخطير إلى رسول الله ، فقام بدوره باستشارة الصحابة في سبيل التوصل إلى أفضل وسيلة للمحافظة على كيانهم ، وقد اقترح عليه الصحابي سليمان الفارسي ، قائلاً : يا رسول الله أنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فاستحسن النبي الفكرة وأشار على المسلمين بتنفيذها بأسرع ما يمكن .

كان العمل يجري في ظروف صعبة مشحونة بالقلق والترقب ، ومما زاد الوضع سوءً ندرة الغذاء والأجواء الباردة ، فضلاً إلى ما ظهر على البعض من التخاذل والتواني.

وبالرغم من هذه المعوقات أُنجزَ حفر الخندق في ستة أيام ، واستعد رسول الله وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع بثلاثة ألاف مقاتل ، وأمر رسول الله أن توضع النساء والأطفال في أماكن حصينة.

لكن أربك حسابات المسلمين العسكرية تغير موقف يهود بني قريظة الذي كانوا في موالاة مع المسلمين في المدينة بانضمامهم إلى التحالف نتيجة لجهود حيي بن أخطب اليهودي الذي تمكن من إقناع كعب بن أسد ، زعيم بني قريظة لفتح جبهة جديدة تطعن المسلمين من الخلف.

وقد حاول المنافقون في صفوف الجيش من تثبيط عزائم المسلمين بدعاياتهم ، والاستهزاء بوعود النبي ، حيث قال بعضهم أنَّ محمّداً يعدنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أنْ يذهب إلى الغائط.

إلّا أنَّ تأثير هذه الدعايات لم يتعد حدود المنافقين أنفسهم ، فقد ظل المسلمون على قدرٍ عالٍ من الانضباط والثبات غير مبالين للأخطار .

أثبت الخندق جدواه من الناحية الدفاعية ، وحرم قريش وحلفاءُها من استثمار تفوقهم العددي من الإطباق على المسلمين ، إذ حال الخندق دون تدفق جموعهم إلى المدينة ، وقد اندهش الغزاة لهذا العمل، وقالوا : ما كانت العرب تعرف هذا – أي الخندق –.

ظل الخندق حاجزاً بين الطرفين واقتصر الأمر على التراشق بالنبال ، إلّا أنَّ بعض فرسان قريش تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه بخيولهم ، منهم : عمرو بن ود العامري ، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب.

مما لا شك فيه أن إقتحام هذه المجموعة للخندق يعتبر خرقاً خطيراً للخط الدفاعي الوحيد الذي يحتمي به المسلمون في المعركة ، وهذا يعني إذا لم يتم علاجه بسرعة ، فأنّ هذا الخرق سيتسع ويشجع الآخرين على العبور وحينذاك سيكون أمن المدينة في خطر مميت .

كان عمرو بن ود العامري أشرس هذه المجموعة ويحظى بشهرة واسعة بين العرب في الشجاعة، فتقدم نحو المسلمين وبدأ يستفزهم ودعاهم إلى المبارزة بأسلوب فيه الشيء الكثير من الإهانة والاستهزاء، وتكررت نداءاته بطلب المبارزة لكن لم يجبه احد من القوم ، وهنا نهض علي بن أبي طالب واستأذن رسول الله لمبارزته ، إلا أنه لم يسمح له ، وقال له اجلس ، أنه عمرو ،

وكرر عمرو نداءه ألا رجل يبرز ؟ لكنه لم يسمع سوى صدى ندائه ، فزاد من تهكمه بالمسلمين وعيرهم : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ، أفلا تبرزون إلي رجلاً ؟ فقام علي ثانية ، إلا أن رسول الله أشفق عليه ومنعه.

شجع الصمت الذي خيم على صفوف المسلمين عمراً على استعراض عضلاته إمعاناً في استضعاف المسلمين وتحطيم معنوياتهم ، فانشد شعراً مزج فيه خيلاءه وغروره بالتهكم بالمسلمين ، قائلاً:

ولقد بُححتُ من النداءِ بجمعِكم هل من مبارزْ؟
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجعُ موقفَ القرنِ المناجزْ
ولذاك أني لم أزلْ متسرعاً نحو الهزائزْ
إنّ الشجاعةَ في الفتى والجودَ من خيرِ الغرائزْ

أثار هذا الشعر المهين مشاعر علي بن أبي طالب ، ولم تقبل طبيعته أن يتحدى مشرك بشعره محفلاً يتزعمه رسول الله ، فاستأذن الرسول ثالثة ، ألا أن رسول الله قال له انه عمرو ، غير أن علياً أجاب الرسول ، وأنْ كان عمرو ؛ لذلك أذن النبي له بمبارزة عمرو بعد ممانعة ، إذ كان رسول الله قلقاً على سلامة علي فهو ساعده الأيمن في المعارك ، فإذا فقده فهذا يعني انه إنهد ركن متين يتكأ عليه في الملمات ؛ لذا وصف خروجه ، قائلاً : (خرج الإيمان كله إلى الشرك كله) ، ثم دعا اللهم أعنه عليه.

كانَّ علي كما يقول العقاد لا يعرف من يخاف ، ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلئ بها وواثق منها من غير كلفة ولا اكتراث.

تقدّم علي بن أبي طالب نحو عمرو بن ود العامري ، ورد علي شعر عمرو ، قائلاً :

لا تعجلنَ فقد أتاكَ مجيبُ صوتِك غير عاجز
في نيةٍ وبصيرةٍ والصدقُ منجى كلِ فائز
إني لأرجو أنْ أُقيمَ عليك نائحةُ الجنائز
من ضربةٍ نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز

عرض علي على عمرو بن ود لكي يعذر في قتاله ، الدخول في الإسلام ، أو المنازلة ، لكن عمراً اختار المنازلة ، بالرغم من انه قال لعلي انه لا يود قتله، فجرت المبارزة وتمكن علي من صرعه وارداه قتيلاً ، وبقتله أُزيح كابوس ثقيل عن صدر المسلمين وجعلهم يتنفسون الصعداء ، وبذلك أُفسد مخطط قريش في عبور الخندق.

كان لعمرو بن ود مكانة خاصة عند قريش ، ومن أجل أن تبين للآخرين أنها لا تهمل جثث قتلاها فإنها عرضت على رسول الله مبلغ عشرة ألاف لشراء جثته ، لكن النبي قال هو لكم ، لا

نأكل ثمن الموتى، بالرغم من أن المسلمين يعيشون ضائقة اقتصادية خانقة، ووقفت أخت عمرو على جثة أخيها ، ولما قيل لها أن علي بن أبي طالب قتله ، قالت :

لو كان قاتلُ عمرو غير قاتلهِ لكنت أَبكي عليه آخر الأبدِ

لكن قاتلَ عمروٍ لا يعابُ به من كان يدعى قديماً بيضةُ البلد

وممّا تجدر الإشارة إليه انه برز عامل جديد على الساحة تمكن في التعجيل لحسم الموقف لصالح المسلمين ، ويتمثل هذا العامل في إشاعة الفرقة بين صفوف التحالف بين اليهود وقريش ، وجاء ذلك بإسلام نعيم بن مسعود من بني أشجع الذي كان يتسم بدرجة عالية من المناورة ، استطاع بخطة بارعة أن يزرع الشك والريبة بين قريش واليهود ، وكان على أثرها رفض اليهود القتال مع قريش.

لذلك وجد قادة قريش أن الوقت لا يسير لمصالحهم فقد قُتل ابرز شجعانها ، وتراجع اليهود عن موقفهم ، كما أن طول الحصار رافقه نقصان المؤنة ، ومما زاد في الطين بلة هبوب رياح عاتية في ليلة شتائية قارصة البرد كفأت قدورهم وطرحت أنيتهم ، فاضعف معنوياتهم وتلاشت أحلامهم في القضاء على المسلمين ، لذلك لم يتحمل أبو سفيان صاحب الكلمة المسموعة عند المشركين البقاء في العراء أكثر ما يمكن ، فخاطب الأحزاب ، قائلاً : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف ، وخالفتنا بنو قريظة ، ولقينا من الرياح ما ترون ، ما يستمسك لنا بناء ولا ثبت لنا قدر ولا تقوم لنا نار فارتحلوا أني مرتحل.

وخلاصة القول أن معركة الخندق ليست معركة تقليدية اشتبكت بها كتائب المقاتلين مع بعضها، وإنما هي معركة علي بن أبي طالب بقيادة رسول الله ، حيث أطفأ فتيل الحرب ، وأزال الرعب الذي خيم على المسلمين بقتل عمرو بن ود العامري ، فأثبط عزيمة قريش وبدد أحلامهم ، فاضطرت للانسحاب ، وقد علق رسول الله على نتيجة الخندق ، فقال : الآن نغزوهم ولا يغزوننا، وقد صدقت فراسة الرسول محمّد ، فانكفأت قريش على نفسها ولم تقم بعد موقعة الخندق بأي نشاط معادٍ للمسلمين ، وكان من نتيجة ذلك أن تفرغ رسول الله لتأمين خطوطه الدفاعية والتفت إلى تأديب قبائل بني قريظة اليهودية التي هددت المسلمين بالتحالف مع قريش ، فسار إليهم بثلاثة آلاف رجل وأعطى الرسول الراية لعلي بن أبي طالب الذي تمكن من حصارهم قرابة عشرين يوماً حتى تم الفتح ، وبذلك انتهى الوجود اليهودي في المدينة ، الذي كان مستعداً للتحالف مع أي قوة معادية للمسلمين في سبيل القضاء عليهم ، بالرغم من التسامح الذي أبداه الرسول اتجاههم .

غزوة حنين ٨ هـ :

حدثت هذه الغزوة بعد فتح مكة ، وقد أغاض ذلك النصر قبيلة هوازن وثقيف وغيرها فتجمعوا وتأهبوا لحرب رسول الله ، وساقوا مع الرجال أموالهم ونساءهم لاعتقادهم أن ذلك يحول دون هزيمة الجيش إذ يجعله ذلك يقاتل دونهن.

خرج إليهم رسول الله من مكة في عشرة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة ، والتحق بهم ألفان من أهل مكة الذين دخلوا في الإسلام حديثاً ، وكان لواء المهاجرين يحمله علي بن أبي طالب ، وتوجه رسول الله بهذا الحشد الضخم إلى وادي حنين)، ويعتبر هذا العدد اكبر تحشد عسكري في تاريخ المسلمين في عهد النبي الكريم ، لذلك احتاج هذا الجيش إلى المزيد من المعدات لتكفي هذا العدد الهائل ، فاضطروا لاستعارة بعض السلاح من صفوان بن أمية مع انه كان مشركاً.

لجأت هوازن إلى خطة فيها الشيء الكثير من الخديعة ، فلم يميلوا إلى مقابلة المسلمين وجهاً لوجه ، وإنما كمنوا في الوادي بين شعابه ، ولما انحدر المسلمون في الوادي حتى شدت عليهم هوازن وأحلافها شدة رجل واحد فأشاعوا الذعر بين صفوف المسلمين فتمزق شملهم بصورة منكرة وتكررت مأساة أُحد ثانية في هذه الغزوة وتركوا النبي مع نفر قليل، يقدر بعشرة أنفس ، تسعة منهم من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن أم أيمن(مولاة الرسول) الذي استشهد في الحرب وكان من بين أولئك الصامدين علي بن أبي طالب ، وقال العباس عم النبي يصف الموقف :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرَّ من فرَّ عنه فأقشعوا

وقد أحاط هؤلاء النفر بالنبي من يمينه وشماله يدافعون عنه، ولقد تضافرت عدة عوامل على هزيمة المسلمين في بداية المعركة ، ولعل في طليعتها الغرور الذي أصابهم بسبب ضخامة الجيش (فقالوا لا نغلب اليوم عن قلة))، وقد أشار القرآن الكريم في سورة التوبة إلى ذلك ، بقوله تعالى : ((لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ)).

ويمكن أن يضاف إلى ذلك اشتراك بعض مشركي قريش من الطلقاء الذين اسلموا بعد فتح مكة ، فكانوا قريبي عهد بالجاهلية وقلوبهم لم تتفتح بعد للإسلام بالشكل الإيماني ، وقد وصف الذهبي خروجهم بأنهم (ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون الصدمة برسول الله وأصحابه) ،وربما أخذتهم العزة بالنفس فهم بالأمس يسيرون بالجيوش لمقاتلة محمّد بقيادتهم ، والآن هم تحت راية محمّد أتباع له يقاتلون تحت إمرته ، لذلك لا يهم الأمر إنتصر المسلمون أو انهزموا ، وبعبارة أخرى أنهم جاءوا متفرجين ، أحاطوا أنفسهم بمظاهر خادعة من الإيمان .

وعلى سبيل المثال كان أبو سفيان الذي اسلم مكرهاً بعد الفتح ضمن المعسكر لم يكن مقاتلاً متحمساً مدفوعاً بإيمان ، وإنما شارك ليجمع ترس ساقط أو درع أو متاع من متاع النبي حتى أوقر حمله منها ، وكان هو ومن معه ينتظرون لمن تكون الدائرة ثم كانت أزلام الجاهلية في كنانته.

وكان أبو سفيان يرى أن هزيمة المسلمين لا تنتهي إلا عند البحر، أي أن تكون ماحقة، كما تشفى غيره من قريش ، مثل كلدة بن الحنبل ، وقال الآن بطل السحر)، في حين أفصح آخر عما يجول بفكره ، وهو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، حينما قال اليوم اقتل محمّداً ، وكان أبوه قد قتل في أُحد ، وعليه فأن وجود مثل هذه المجموعة تأثر على معنويات المسلمين وتشيع فيهم روح الهزيمة ، لذلك لم تصمد في الهجمة الأولى حتى أن احدهم قال لصفوان بن أميه أبشر بهزيمة محمّد وأصحابه ، فوالله لا يجبرنها أبداً ، لكن صفوان رد عليه لا بدافع دين وإنما بدافع عصبية قبلية قائلاً : أتبشرني بظهور الأعراب ، فوالله لرب من قريش أحب من رب الأعراب.

أن صمود رسول الله وبني هاشم الذين كانوا معه أن ثاب الأنصار إليه بعد ندائه لهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله يا بني الخزرج ، فتشجع الآخرون فعادوا إلى ساحة المعركة ونظموا صفوفهم وتمكنوا أن يلحقوا الهزيمة بهوازن وحلفائها وحازوا غنائم كثيرة. وقد لعب الإمام علي دوراً فاعلاً في هذه المعركة ، وتذكر بعض الروايات انه قتل أربعين رجلاً، وعلى رأسهم أبي جرول الذي أوقع خسائر كبيرة بين صفوف المسلمين.

وبالرغم من موقف الطلقاء المريب في هذه الغزوة ألا أننا نلاحظ أن رسول الله أجزل العطاء لهم من غنائم حنين، حتى فاق ما أعطى غيرهم من المسلمين الأُصلاء ، وبلا شك فأن لرسول الله في ذلك حكمة وهي محاولة تأليف قلوبهم على أمل الوصول بهم إلى شواطئ الإيمان، لكن يبدو أن البعض منهم مهما حاول رسول الله معهم ظلوا يحملون نفسيات لا تريد أن تستوعب مناهج التغيير الإسلامي فاستبطنوا ما كان عليه آباؤهم وتظاهروا بمسايرة الواقع، وظلت ثقافة الأجداد حية في مستقراتهم الفكرية .

فترتب على ذلك ، كما يقول احد المؤرخين ، مشكلة بنيوية خطيرة واجهها الإسلام بعد فتح مكة والطائف (بعد غزوة حنين) ، إذ دخل في الإسلام على الأغلب عدد لا عن قناعة أو إيمان ، بل لأن الإسلام أصبح أمراً واقعاً ، ودخل الكثيرون في الإسلام ، حتى يحافظوا على دمائهم وأموالهم وأهليهم، لذلك أصبح هؤلاء فيما بعد خميرة ألإنبعاث ألجاهلي لما دان ألحكم لبني أمية

غزوة تبوك والتكريم العظيم :

أن تحرير مكة من الوثنية عام ٨ هـ فتح أبواب الجزيرة العربية أمام النبي محمّد للانطلاق بالإسلام إلى أفاق بعيدة بعد أن زالت العقبة الكأداء التي تقف حجر عثرة في سبيله ، ولعل هزيمة (هوازن وثقيف) أمام جحافل المسلمين أول ثمار تحرير مكة ، فأصبح المسلمون على أثرها القوة المنظمة الأولى في الجزيرة العربية ، لذلك وجه رسول الله أنظاره إلى القوى الخارجية التي تتاخم المناطق الإسلامية، وخصوصاً المناطق الشمالية من الجزيرة العربية والتي تشكل مجالاً حيوياً للمسلمين لا بد من تأمينه لذلك جهز رسول الله قوة عسكرية لمهاجمة الروم في تلك المناطق بالرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت هذه العملية ، مثل المناخ القاسي وقلة النفقة

، فضلاً عن خطورة المنافقين ، الذين لعبوا دور سيئاً يماثل ما فعلوه في موقعة أُحد المؤلمة ، إذ كرر عبد الله بن أبي سلول لعبته الخسيسة في الانسحاب من الجيش والتخلف عن المسير.

وذكر اليعقوبي أن هذه الغزوة جاءت من اجل الطلب بدم جعفر بن أبي طالب، الذي استشهد بموقعة مؤتة سنة ٨ هـ . سار الجيش نحو هدفه ، لكنه هذه المرة يفتقد بطله علي بن أبي طالب ، الذي خلفه النبي على المدينة ، وقد اختلف المؤرخون في سبب تخلف علي عن هذه الغزوة ،فبعضهم يقول انه خلفه على أهله مثل ابن هشام والطبري والبلاذري وابن الأثير والذهبي ، أما ابن سعد فلم يشر إلى علي لا من بعيد أو قريب ، وقال أن النبي استخلف على المدينة محمد بن مسلمة)، في حين إن اليعقوبي اكتفى بالقول ان النبي استخلف علياً على المدينة)، ونرى أن ابن خلدون لم يقطع رأياً في الموضوع وذكر ثلاث شخصيات من ضمنهم علي ،وقال زعم الرواة أن احدهم استخلف على المدينة، إلا أن ابن عبد ربه ذكر أن رسول الله خلف علياً على المدينة وعلى عياله، وهذا يعني ان رسول الله أناط بعلي واجبات عائلية ومهمات إدارة شؤون المدينة .

ونجد أشارة في البلاذري ربما هي تكون اقرب إلى الحقيقية ، وهي أن النبي قال لعلي: لابد من أقيم أو تقيم ثم خلفه على المدينة، كما جاء نظير ذلك عندك الإربلي مضيفاً أن رسول الله قال لعلي أن المدينة لا تصلح إلا بي أو بكَ ، وقد علل الإربلي ذلك بالقول أن الرسول خاف على المدينة في غيبته ممن عساه يطمع فيها من مفسدي العرب، وهو تعليل له وجاهته لا سيما وان المدينة باتت تهددها أخطار المنافقين وأهل الريب الذين انسحبوا من جيش النبي بقيادة عبد الله بن أبي سلول، والذي ربما شخص رسول الله موقفهم وعرف أنهم سينسحبون من جيشه ، كما يمكن أن تضيف أن بعد الهدف الذي يتطلب الوصول إليه وقتاً طويلاً دعاه إلى هذا الإجراء ، لذلك لا يمكن ترك المدينة بدون قائد قدير يستطيع تأمين الحماية لها والبطش بمن تسول له نفسه العبث بمقدراتها ، لذلك كان علي هو الجدير بالقيام بهذه المهمة

استغل المنافقون هذا الاستخلاف فأشاعوا إنّ إبقاء علي في المدينة وعدم إلحاقه بالجيش لأن النبي تركه لشيء كرهه منه أو استثقله وملّه وكره صحبته. وعلى اثر هذا الدعايات المغرضة اخذ علي سلاحه وخرج حتى لحق بالنبي ، فشكا إليه ما أشيع عنه ، فقال النبي الكريم له : كذبوا ، أما ترضى ، يا علي أن تكون مني كهارون من موسى على انك لست بنبي ، قال بلى يا رسول الله ، قال فأنت كذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أن علياً قال للنبي ، أتخلفني في النساء والصبيان. لذلك وجد الذين يريدون الغض من مكانة علي ، أن محمّداً يعني انه خليفته على أهله وعياله وليس أكثر من ذلك ، وفي سبيل أن تكون أواصر هذا التأويل قوية ، اسقطوا من حديث المنزلة عبارة (لا نبي من بعدي) ، من اجل أن يكون المجال مفتوحاً لإفراغ حديث النبي من معناه الحقيقي.

وإذا عدنا إلى الروايات التي تذكر أن علياً قال : انك تخلفني في النساء ، فهو تعبير مجازي قصد به أن المدينة فرغت من الرجال لالتحاقهم بالجيش ولم يبق بها سوى النساء والصبيان ، وليس المقصود بذلك عيال النبي لأنهم لا صبيان لهم ولا خلفة للنبي منهم .

وعليه فأنّ القول أن النبي الكريم قصد أن علياً خليفته على أهله فقط كلام مردود ، لا سيما وإننا لم نر أن النبي محمّداً في غزواته السابقة يخلف أحدا على عياله حتى في اشد المعارك ضراوة وإنما الحماية تكون عامة لنساء المسلمين، ومن ناحية أخرى ، فأن الحديث حتى ولو إقتصر على القول : منزلة هارون من موسى ، فهذه المنزلة معرفة وهو شريكه في رسالته وأخوه في النسب والمقدم عنده على جميع البشر، وهذا يعني أن النبي أعطى علياً جميع منازل هارون من موسى ، أي خليفته وطاعته على قومه باستثناء النبوة، فاظهر استخلافه وأبان من منزلته ما عدا النبوة ليتحقق له ما عداها من الأحكام.

لقد أكد سعد بن أبي وقاص صحة هذا الحديث قائلاً انه سمع النبي قال لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ألا انه لا نبي بعدي ، ولما قيل له ، أنت سمعته ، وضع إصبعيه على أذنيه ، فقال نعم وإلا إستكتا. رجع علي بن أبي طالب من معسكر الجيش وقد تقلد هذا الوشاح ، الذي اسكت المتربصين ، فاتسعت قرحة حاسديه ومبغضيه ورماً وآلماً ، ولم يغير ما أشاعوه من أمر علي، إلا أنفسهم التي يجهدونها دائماً في تشريح أحاديث رسول الله التي قالها بحق علي دون غيره على طاولاتهم الجاهزة دوماً في محاولة لقطف كل وردة في أكليل الفخر الذي طوقه به رسول الله .

المحاضرة السادسة

مؤسسة الخلافة الراشدية سقيفة بني ساعدة وخلافة ابي بكر خلافة عمر بن الخطاب

سقيفة بني ساعدة:

أن اجتماع الانصار وترشيحهم لسعد بن عبادة سيد الخزرج ثم مجيء ابي بكر وعمر وابي عبيدة وترشيحهم لأبي بكر في محل يعرف بسقيفة بني ساعدة وقد تمت " البيعة الخاصة " لأبي بكر فيها وفي اليوم التالي جاءت " البيعة العامة " حيث بايع الناس ابا بكر في المسجد .

والأمر الذي ينبغي التأكيد عليه ان في انتخاب ابي بكر (رض) اجتمع الاتجاهات القبلية والاسلامية في الوقت ذاته، فالإسلام اكد على الشورى " وامرهم شورى بينهم " في السياسة، وانتخاب ابي بكر لرئاسة امة ينتمي افرادها الى قبائل متعددة هي فكرة اسلامية حيث تناقض الفكرة القبلية التي تفكر باختيار رئيس لقبيلة واحدة، ثم ان ابا بكر صلى بالمسلمين حين مرض

الرسول (ص) والصلاة افضل دين المسلمين، ومن جهة اخرى نرى التأكيد في البيعة على السن والخبرة والخدمة وهي تقاليد بدوية، وطريقة البيعة بهز الايدي (التصافح) تقليد عربي كان معروفاً عند العرب قبل الاسلام ثم ان التقاليد القبلية لا تؤمن بمبدء الوراثة على الرغم من اعترافها بمبدء سيادة فخذ او قبيلة .

ان الذي يهمنا في امر السقيفة هو انها تعتبر المحنة الاولى التي واجهها المسلمون بعد وفاة الرسول (ص)، وان نتائجها ادت الى عدد من الامور التي اخذت تلعب دورا مهما في حياة الدولة العربية الاسلامية والتي تتمثل في :

١-ظهور التيار القبلي ومحاولة الاستفادة من الوضع لصالح اهل قريش ولهذا سوف نجد ان منصب الخلافة سيكون حكرا على هذه القبيلة .

٢-تبلور فكرة التجمع حول شخصية معينة والذي سيكون فيما بعد اللبنة الاولى لتكوين الفرق والطوائف الاخرى .

٣-بروز الأحقاد والنزعات الشخصية التي كافح الرسول الكريم (ص) في سبيل القضاء عليها بنظام المؤاخاة والوثيقة وغيرهما، لذلك رجحت المزايا والصفات الاولى على ان هذا من بني خزرج وذاك أوسي وهذا من بني هاشم وذاك من بني أمية .

٤-انتعاش الجماعات التي أسلمت توا بعد فتح مكة ومحاولتها التغلغل في صفوف المسلمين باسم الدين الاسلامي وغرضها السيطرة وارجاع امتيازاتها السابقة وهذا ينطبق ايضا على القبائل العربية التي امنت بالرسول (ص) فقط ولم تعترف بنظام اخر او شخصية اخرى .

ان كل هذه العوامل سوف نجدها تظهر وتضمر بين فترة واخرى بشكل او بآخر الا أنه يمكن ان نميزها بتيارين متصارعين هما التيار الاسلامي والتيار القبلي .

٥-اصبح الشورى مبدءً من مبادئ انتخاب الخليفة حيث طبق في انتخاب الخلفاء الراشدين الاربعة غير ان هذا المبدإ قد تغير الى صالح مبدء الوراثة في عهد الدولتين الاموية والعباسية .

٦-ارساء مبدء الانتخاب المباشرة الحر لأصلح صحابة الرسول (ص) لقيادة الامة وهو المبدإ الآخر الذي اقتصر العمل به خلال انتخاب الخلفاء الراشدين، حيث اتجهت خلافة معاوية اتجاها جديدا بتاريخ الاسلام الدستوري إذ " اصبح الخليفة من حيث نفوذ أسرته ومن حيث مكانته الشخصية ملكا في الحقيقة وان لم يكن لفظ (ملك) لقبه الرسمي " .

٧-الابقاء على طريقة البيعة بتصافح الأيدي وهو تقليد عربي قديم لم يبدله الاسلام .

٨-قيام الخليفة بألقاء خطبة في المسجد يوضح فيها الخطوط العريضة للسياسة التي سوف ينهجها

٩-إن انفراد المدينة بانتخاب الخليفة أصبح له أثره المستقبلي في تطور نظرية الخلافة فيما يخص عدد الناخبين ومحلهم .

١٠–لقد عرفت بيعة السقيفة بـ" البيعة الخاصة " والبيعة في المسجد بـ " البيعة العامة " فصار وجود البيعتين من تقاليد الخلافة فيما بعد .

الخليفة ابو بكر الصديق : ١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م:

واسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر التيمي القرشي، وكان يسمى قبل الاسلام عبد الكعبة ، أول الخلفاء الراشدين وأحد أوائل الصحابة الذين أسلموا من أهل قريش ورافقوا النبي محمد بن عبد الله منذ بدء الإسلام، وهو صديقه ورفيقه في الهجرة إلى المدينة المنورة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة عند أهل السنة والجماعة، أسلم على يده الكثير من الصحابة. وهو والد أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول. ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر الموافقة لسنة ٥٠ ق .هـ وسنة ٥٧٣م. كان سيدًا من سادة قريش وغنيًا من كبار أغنيائهم، وكان ممن رفضوا عبادة الأصنام في الجاهلية. يُعرف في التراث السني بـ "أبي بكر الصّدّيق" لأنه صدّق النبي محمد في قصّة الإسراء والمعراج، وقيل لأنه كان يصدّق النبي في كل خبر يأتيه. بُويع بالخلافة يوم الثلاثاء ٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ، واستمرت خلافته قرابة سنتين وأربعة أشهر. توفي في يوم الإثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ الموافق ٢٣ أغسطس ٦٣٤م

حياته قبل الإسلام

ولد أبو بكر في مكة المكرمة بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر. ونشأ فيها في حضن أبوين لهما الكرامة والعزّ في قومهما مما جعل أبا بكر ينشأ كريم النفس، عزيز المكانة في قومه. وكانت إقامته في مكة لا يخرج منها إلا لتجارة، إذ كان في الجاهلية رجلاً تاجرًا، ودخل بصرى من أرض الشام للتجارة وارتحل بين البلدان وكان رأس ماله ٤٠ ألف درهم، وكان ينفق من ماله بسخاء وكرم عُرف به في الجاهلية. كما كان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشاورتهم ومحببًا فيهم، أخرج ابن عساكر عن معروف بن خربوذ (مولى عثمان) قال: «إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أحد عشر من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام فكان إليه أمر الديّات والغرم». وكان أعلم قريش بأنساب القبائل وأخبارها وسياستها، وبما كان فيها من خير وشر، فكانت العرب تلقبه بـ "عالم قريش". كان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، وقد قال له ابن الدغنه حين لقيه مهاجرًا: «والله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم». كان أبو بكر يعيش في حي حيث يسكن التجّار؛ وكان يعيش فيه النبي، ومن هنا بدأت صداقتهما حيث كانا متقاربين في السنّ والأفكار والكثير من الصّفات والطّباع كان أبو بكر ممن حرّموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية، فلم يشربها، وقد أجاب من سأله هل شربت الخمر في الجاهلية؟ بقوله: «أعوذ بالله»، فقيل: «ولم؟» قال: «كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن

من شرب الخمر كان مضيّعًا لعرضه ومروءته». ولم يسجد أبو بكر لصنم قط، قال أبو بكر في مجمع من الصحابة: «ما سجدت لصنم قط، وذلك أنّي لما ناهزت الحلم، أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشّمُ العوالي، وخلاني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يُجبني فقلت: إني عار فأكسني، فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخرَّ لوجهه»

صفاته

كان أبو بكر أبيض البشرة نحيف الجسم خفيف العارضين (صفحتا الوجه) في ظهره انحناء لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق الوجه (لحم وجهه قليل)، غائر العينين ناتئ الجبهة ، عاري الأشاجع (أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف).

اسمه ولقبه وكنيته

اتفق جمهور أهل النسب وجزم به البخاري وغيره من المحدّثين على أن اسمه الأصلي هو "عبد الله" سمّاه به النبي محمد لما أسلم، وكان اسمه قبل ذلك "عبد الكعبة"، وقال أكثر المحدّثين أن "عبد الله" هو اسمه سماه به أهله. ويرى كثيرٌ من المحدّثين أن اسمه كان "عتيق"، سمّاه به النبي محمد، وقيل بل سمّاه بذلك أبوه، وقيل بل أمّه. بينما رجّح النووي والسيوطي وابن عساكر أن "عتيقًا" لقبٌ له وليس اسمًا. واختلفوا كانت لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت ثم قالت «اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لي»، وقيل إنما سُمي عتيقًا لأنه لم يكن في نسبه شيء يُعاب به، وقيل كان له أخوان عتق وعتيق فسمي باسم أحدهما، وقيل غير ذلك وأما لقب "الصّدّيق" فقيل أنه كان يُلقب به في الجاهلية لِما عرف منه من الصدق، إذ كان وجيهًا رئيسًا من رؤساء قريش وإليه كانت الديات في الجاهلية، وكان إذا حمل شيئاً قالت فيه قريش: «صدّقوه وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه أبو بكر»، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه. وفي الإسلام سُمي "الصّدّيق" لمبادرته إلى تصديق النبي محمد في كل ما جاء به، وأول ما اشتهر به لتصديقه له في خبر الإسراء والمعراج،[معلومة عندما كذبت قريش ذلك الخبر وجاءوا إلى أبي بكر قائلين: «هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس»، فقال «لئن كان قال ذلك لقد صدق». ويُروى عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول ويحلف بالله «أنّ الله أنزل اسم أبي بكر من السماء "الصديق"». قال فيه أبو محجن الثقف

وسميت صدِّيقًا وكل مهاجر سواك يسمّى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنتَ جليسًا بالعريش المشهر
وبالغار إذ سُمّيت بالغار صاحبًا وكنت رفيقا للنبي المطهّر

وكذلك لُقب أبو بكر "بالأوّاه" وهو لقب يدل على الخوف والوجل والخشية من الله، فعن إبراهيم النخعي أنه قال: «كان أبو بكر يُسمى بالأوّاه لرأفته ورحمته». وكانت كنيته "أبو بكر" وهي من البكر وهو الفتى من الإبل. وبعد وفاة النبي محمد صار يُسمّى بـ "خليفة رسول الله ﷺ" لتوليه الخلافة بعده

نسبه

هو: عبد الله بن أبي قحافة واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ويلتقي فيلم سمي "عتيقًا" فقيل: سُمي بذلك لعتاقة وجهه وجماله (والعتق: الجمال)، وقيل أنّ أمه

نسبه مع النبي محمد بن عبد الله عند مرة بن كعب. أسلم يوم فتح مكة في السنة ٨ هـ، وكان بصره مكفوفًا، إذ أتى به أبو بكر إلى النبي محمد فأسلم بين يديه. ولم يزل أبو قحافة في مكة لم يهاجر، حتى توفي بعد وفاة ابنه أبي بكر بستة أشهر وأيام في شهر محرم سنة ١٤ هـ وهو ابن ٩٧ سنة.

أمّه: أم الخير واسمها سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهي ابنة عم أبي قحافة. أسلمت قديمًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم عندما طلب من النبي محمد أن يدعوا لها الله أن تسلم قائلاً :«يا رسول الله، هذه أمّي برّة بوالديها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى أن يستنقذها بك من النار» فدعا لها فأسلمت. توفيت قبل أبي قحافة وبعد ابنها أبي بكر، وورثته.

ذرية أبي بكر الصديق وزوجاته:

قتيلة بنت عبد العزى العامرية القرشية: وقد اختلف في إسلامها، وهي والدة عبد الله وأسماء. كان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية، فيها نزل من القرآن آية: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ بعد أن رفضت ابنتها أسماء من أن تدخلها بيتها في المدينة المنورة.

أم رومان بنت عامر الفراسية الكنانية: وهي من بني الحارث بن غنم من قبيلة بني كنانة بن خزيمة، مات عنها زوجها الحارث بن سخبرة في مكة، فتزوجها أبو بكر، وأسلمت قديمًا، وهاجرت إلى المدينة المنورة وهي والدة عبد الرحمن وعائشة. توفيت في المدينة المنورة في ذي الحجة سنة ٦ هـ.

أسماء بنت عُمَيس الشهرانية الخثعمية: أسلمت قديمًا قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر بها زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، فولدت له هناك: عبد الله، ومحمدًا، وعونًا. وهاجرت معه إلى المدينة المنورة سنة ٧ هـ، فلما استشهد زوجها جعفر يوم مؤتة سنة ٨ هـ وبعد وفاة أم رومان بنت عامر الكنانية، تزوج أبو بكر من أسماء بنت عميس، فولدت له: محمدًا وقت الإحرام فحجت حجة الوداع، ثم توفي أبو بكر، فغسّلته. ثم تزوج بها علي بن أبي طالب.

حبيبة بنت خارجة الخزرجية الأنصارية: أسلمت وولدت لأبي بكر أم كلثوم بعد وفاته. تزوجها من بعده "خبيب بن أساف بن عتبة بن عمر".

إسلام أبى بكر الصدّيق

كان أبو بكر من رؤساء قريش، وعقلائها، وكان قد سمع من ورقة بن نوفل وغيره من أصحاب العلم بالكتب السابقة، أن نبيًا سوف يبعث في جزيرة العرب، وتأكد ذلك لديه في إحدى رحلاته إلى اليمن؛ حيث لقي هنالك شيخًا عالمًا من الأزد، فحدثه ذلك الشيخ عن النبي المنتظر، وعن علاماته، فلما عاد إلى مكة أسرع إليه سادة قريش: عقبة بن أبى معيط، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأبو البخترى بن هشام، فلما رآهم قال لهم: هل نابتكم نائبة؟ قالوا: يا أبا بكر قد عظم الخطب، يتيم أبى طالب يزعم أنه نبي مرسل، ولولا أنت ما انتظرنا به فإذا قد جئت فأنت الغاية والكفاية، فذهب إليه أبو بكر، وسأله عن خبره؛ فحكى له النبي*صلى الله عليه وسلم* ما حدث، ودعاه إلى الإسلام؛ فأسلم مباشرة، وعاد وهو يقول: " لقد انصرفت وما بين لابَتَيها أشد سرورًا من رسول الله *صلى الله عليه وسلم* بإسلامي"، وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال.

هجرة أبى بكر الصدّيق:

لما أذن الله (عز وجل) لنبيه بالهجرة إلى المدينة، أمر النبي(صلى الله عليه وسلم) أصحابه أن يهاجروا، وجعل أبو بكر يستأذن في الهجرة، والنبي(صلى الله عليه وسلم) يمهله، ويقول له: (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا)، حتى نزل جبريل على النبي، وأخبره أن قريشًا قد خططت لقتله، وأمره ألا يبيت ليلته بمكة، وأن يخرج منها مهاجرًا، فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) وفتيان قريش، وفرسانها محيطون ببيته، ينتظرون خروجه ليقتلوه، ولكن الله أخذ أبصارهم فلم يروه، وتناول النبي (صلى الله عليه وسلم) حفنة من التراب، فنثرها على رؤسهم، وهم لا يشعرون، وذهب (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت أبى بكر {وكان نائمًا فأيقظه}، وأخبره أن الله قد أذن له في الهجرة، تقول عائشة: لقد رأيت أبابكر عندها يبكى من الفرح، ثم خرجا فاختفيا في غار ثور، واجتهد المشركون في طلبهما حتى شارفوا الغار، وقال أبو بكر: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): (فما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!)، وأقاما في الغار ثلاثة أيام، ثم انطلقا، وكان أبو بكر أعرف بالطريق، وكان الناس يلقونهما،

فيسألون أبا بكر عن رفيقه فيقول: أنه رجل يهدينى الطريق، وبينما هما في طريقهما إذ أدركه سراقة بن مالك (وكان قد طمع في النياق المائة التي رصدتها قريش لمن يأتيها بمحمد)، ولما اقترب سراقة رآه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا، ودنا سراقة حتى ما كان بينه وبينهما إلا مقدار رمح أو رمحين، فكرر أبو بكر مقولته على النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبكى فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : لِمَ تبكي؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، والله ما أبكي على نفسي، ولكنى أبكى عليك، فدعا النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال: (اللهم اكفناه بما شئت)، فساخت قوائم الفرس، ووقع سراقة وقال: يا محمد إن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فو الله لأعمّينَّ على مَن ورائي، فأجابه النبي(صلى الله عليه وسلم) إلى طلبه، ودعاه إلى الإسلام، ووعده إن أسلم بسواري كسرى، وإستمرا في طريقهما، حتى بلغا المدينة، واستقبل الصحابة {مهاجرون وأنصار} رسول الله وصاحبه بسرورٍ وفرحٍ عظيمين، وانطلق الغلمان، والجواري ينشدون الإنشودة الشهيرة: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

اضطهاد أبى بكر الصدّيق

كان أبو بكر ذا مكانة ومنعة في قريش؛ فلم ينله من أذاهم ما نال المستضعفين، ولكن ذلك لم يمنع أبا بكر من أن يأخذ حظه وقسطه من الأذى، فقد دخل النبي(صلى الله عليه وسلم) الكعبة، واجتمع المشركون عليه، وسألوه عن آلهتهم {وهو لا يكذب} فأخبرهم؛ فاجتمعوا عليه يضربونه، وجاء الصريخ أبا بكر يقول له: أدرك صاحبك، فأسرع أبو بكر إليه، وجعل يخلصه من أيديهم ، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله"، فتركوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وجعلوا يضربونه حتى حمل أبو بكر أهل بيته، وقد غابت ملامحه من شدة الأذى.

جهاد أبى بكر الصدّيق :

كان أبو بكر رفيق النبي (صلي الله عليه وسلم) في جهاده كله، فشهد معه بدرًا، وأشار على النبي (صلي الله عليه وسلم) أن يبنى له المسلمون عريشًا يراقب من خلاله المعركة، ويوجه الجنود، وقد استبقى النبي (صلي الله عليه وسلم) أبا بكر معه في هذا العريش، وكان النبي يرفع يديه إلى السماء ويدعو ربه قائلا: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد)، فيقول له أبو بكر: يا رسول الله بعّض مناشدتك ربك، فإن الله موفيك ما وعدك من نصره، وشهد أبو بكر أُحدًا، وكان ممن ثبتوا مع النبي (صلي الله عليه وسلم) حين انكشف المسلمون، وشهد الخندق، والحديبية، والمشاهد كلها، لم يتخلف عن النبي في موقعة واحدة، ودفع إليه النبي (صلي الله عليه وسلم) رايته العظمى يوم تبوك، وكان أبو بكر ممن ثبتوا يوم حنين حينما هزم المسلمون في بدء المعركة.

رواية أبى بكر الصدّيق:

كان أبو بكر أكثر الصحابة ملازمة للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأسمعهم لأحاديثه، وقد روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أحاديث كثيرة، وروى عن أبى بكر كثير من الصحابة منهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت{رضى الله عنهم جميعًا}، ومما رواه على قال حدثني أبو بكر(وصدق أبو بكر) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (ما من عبد يذنب ذنبًا فيتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يصلى ركعتين فيستغفر، الله إلا غفر له).

أعمال أبى بكر الصدّيق ومواقفه:

لأبى بكر الصدّيق (رضى الله عنه) مواقف وأعمال عظيمة في نصرة الإسلام منها انفاقه كثيرًا من أمواله في سبيل الله، ولذا قال النبي(صلى الله عليه وسلم): (ما نفعنى مال قط مثلما نفعنى مال أبى بكر)، فبكى أبو بكر وقال : " وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله " (رواه أحمد والترمذى وابن ماجة). وقد أعتق أبو بكر من ماله الخاص سبعة من العبيد أسلموا، وكانوا يعذبون بسبب إسلامهم منهم : بلال بن رباح، وعامر بن فهيرة.

عندما مرض النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لمن حوله: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، فقالت عائشة: يا رسول الله لو أمرت غيره، فقال: (لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره)، وقال علي بن أبى طالب: قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر، فصلى بالناس، وإني لشاهد غير غائب، وإني لصحيح غير مريض، ولو شاء أن يقدمنى لقدمنى، فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله لديننا.

عندما قبض النبي (صلى الله عليه وسلم) فتن الناس حتى أن عمر بن الخطاب قال: إن رسول الله لم يمت، ولا يتكلم أحد بهذا إلا ضربته بسيفي هذا، فدخل أبو بكر، وسمع مقالة عمر، فوقف وقال قولته الشهيرة: أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ، بعد مبايعة أبى بكر بالخلافة، أصر على إنفاذ جيش أسامة، الذي كان النبي(صلى الله عليه وسلم) قد جهزه، وولى عليه أسامة بن زيد، وكان فريق من الصحابة منهم عمر، قد ذهبوا لأبى بكر، وقالوا له: إن العرب قد انتفضت عليك، فلا تفرق المسلمين عنك، فقال: والذى نفسي بيده لو علمت أن السباع تأكلني بهذه القرية لأنفذت هذا البعث الذي أمر الرسول بإنفاذه، ولا أحلّ لواءًا عقده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده، واتخذ الجيش سبيله إلى الشام تحت إمرة أسامة.

وبعد تولي ابو بكر الخلافة في نفس العام الذي توفي فيه الرسول (ص) ١١هـ/ ٦٣٢م وكان المهام الملقاة على عاتق الخليفة هي :

١-تجاوز الازمة النفسية التي يمر بها المسلمون بعد وفاة الرسول (ص) .

٢-القضاء على الخلاف الذي ولد نتيجة السقيفة .
٣-تأكيد سياسة الرسول (ص) واستمرارها.
٤-مواجهة الحركات الانشقاقية في الجزيرة والتمسك بالوحدة والمركزية الشورية.
٥-الرد حشود الروم وتهديدهم الحدود الشمالية للدولة.
أدرك ابو بكر عظم هذه المهام حين اكد في خطبته بالمسجد :
" اما بعد، ايها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى اريح عليه حقه ان شاء الله ،والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ، لا تشع الفاحشة في قوم قط الا عمهم اللهة بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسولة فلا طاعة لي عليكم ، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله ".
وتعد هذه الخطبة من اسس الاسلام السياسية للأسباب الاتية :
١-انها اول نص دنيوي يصدر عن رجل يخلف رسول لا يوحي له .
٢-تحديد سمة الحكم الاسلامي بأنه مركزي شوري محكوم بالمبادئ ورضا الامة .
٣-أن الجهاد عماد الدولة.
٤-أن دستور المسلمين هو كلام الله وسنة رسوله (ص).
٥-أن أساس الحكم العدل والجميع سواء امام القضاء .

الـــردة:

سبق وأن ذكرنا أن الرسول الكريم (ص) جاهد من أجل كبح جماح التيار القبلي والعصبية القبلية ، الا أن وفاته لم تتح له فرصة تطبيق أهدافة جميعها فالقبائل التي أمنت به بعد فتح مكة لم تعرف من الاسلام كثيراً، وأن الرسول (ص) اكتفى بإرسال قراء للقرآن وكتاب لجميع الزكاة ومن يعلمهم مبادئ الدولة الجديدة، فكان ارتباطهم بالرسول (ص) هو ارتباط شخصي . وما أن توفي الرسول (ص) حتى ظهرت الغلبة في أول الأمر للتيار القبلي في المدينة . ولحسن حظ الامة ان اتفق الاطراف على شخص يلي لإمر ولكن الامر المهم يتعلق بالقبائل العربية المختلفة في الجزيرة العربية حيث انهم بسماعهم وفاة الرسول (ص) امتنع قسم كبير منهم عن تأييد الخليفة الجديد تدفعهم لذلك عوامل متعددة الا انها يجمعها عامل واحد الا وهو العصبية القبلية . وقد عرفت حركة الارتداد عن الدين الاسلامي وعدم الاعتراف بابي بكر (رض)"بالردة " وأصحابها " بالمرتدين " .

ان القارئ لحروب الردة والحركات الانشقاقية في المصادر العربية يعتقد بأن الجزيرة العربية أسلمت جميعها للرسول (ص)وخضعت لسلطة المدينة ، ثم ارتدت بعد وفاته . غير ان دارس الامر بجدية اكثر سوف يلاحظ ان هناك اسبابا متعددة دفعت القبائل الى الخروج عن السلطة المدينة منها، ان حركة الردة او ظهور بعض الانبياء الكاذبين لم تكن تحدث بعد موت الرسول (ص) فقط، بل انه التاريخ يزودنا بعدد من الاسماء لرجال ونساء ادعوا النبوة في عهده ، مثل مسيلمة الكذاب والاسود العنسي وعلقمة بن علاثة وام رفل سلمى بنت مالك وغيرهم.

اريد أن أقول ان نجاح الرسول (ص)والنتائج المدهشة التي حققتها دعوته ثم سيطرة العصبية القبلية لها اثر مهم في ظهور مثل هؤلاء الزعماء . ويرتبط بهذه النقطة ايضاً ان هذه القبائل لعصبيتها ووثنيتها خافت من توسع نفوذ وسلطان المدينة ، ونفس الشيء بالنسبة للقبائل التي اسلمت حديثا ثم ان هناك قبائل قدمت ولاءها السياسي للرسول (ص) وعدت هذا الولاء شخصيا ، وعلى هذا فإن موته (بالنسبة لهم) يعني إنهاء مثل هذا الولاء كما ان هناك قبائل قد قطنت شمالي الحجاز كانت معاهداتها مع الرسول (ص)تنتهي بوفاته ، ولم تر موجبا للخضوع لابي بكر .

ويبدو ايضا ان الزكاة كانت عاملا في ارتداد بعض القبائل في اليمن واليمامة وعمان إذ اعتبرها خضوعا مهينا ، فقبيلة بني تميم كانت قد اعلنت عن استعدادها لان تظل على اسلامها على شرط ان تلغى الزكاة تذكر بعض الروايات التاريخية أنة عمر بن الخطاب (رض) مرّ بقرة بن هبيرة ومعه جماعة من بني عامر فقال قرة :" ياهذا إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فإن أنتم اعفيتموها في أخذ أموالها فتسمع تطيع وان ابيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم " ولهذا رأى ابو بكر ان في امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة انشقاقاً على الامة وخروجا على المدينة كما اعتبرها هدما لركن من اركان الدين فقال : " والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله (ص) لقاتلتهم على امنعه " وعلاوة على ذلك فإن من بين الاسباب هو تأصل الروح القبلية التي تتمثل في رغبة القبائل في عدم الخضوع لسلطة خارجية مركزية متمثلة بزعامة قريش حيثان استقرار الخلافة فيها قد اكد سيادتها على القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها ، فبعظهم اتبع طليحة او مسيلمة وذلك بدافع الخروج من السيطرة القرشية لا غير ،قال عيينة بن حصن زعيم غطفان : " ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بينا وبين اسد وإني لمجدد الحلف الذي كان بينا في القديم ومتابع طليحة ، والله لان نتبع نبيا من الحلفين – أسد وغطفان – أحب الينا من قريش وقد مات محمد وبقى طليحة فطا بقوة على رأيه " فبالاضافة الى العصبية كان هؤلاء يريدون العودة بالمجتمع ثانية الى الجاهلية بأحلافها وتقاليدها . ثم أن بعض القبائل لم تخضع سياسيا ولا دينيا للرسول(ص) مثل بعض القبائل في اليمامة ، وكلنا يعرف قصة مسيلمة الكذاب مع الرسول (ص)حينما طلب ان يقاسمه

النبوة والسلطة فكتب الى الرسول (ص) : " من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله اما بعد فإني اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشا قوم يعتدون " . ان القضاء على الوثنية وتصفية جيوبها كان يعني القضاء على مميزات الكثيرين ممن كانوا ينتفعون من بقائها ماديا ومعنويا مما حدا بهم الى التحريض للخروج عن الدين الاسلامي ووحدة الامة .

ولا يفوتنا ان نذكر دور اليد الاجنبية للدولتين الساسانية والبيزنطية التي استمرت تعمل على اعادة الفوضى ليعود العرب أذنابا لها ، كما كانوا قبل الاسلام من خلال ايتامها الذين كانوا منتفعين من حكمها والذي قضى الاسلام على نفوذهم .

وما يقال عن دور هاتين الدولتين يمكن ان يقال عن دور اليهود والمنافقين الذين ذهبت امتيازاتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد ان تجاوزتهم رسالة السماء على يد الرسول العربي محمد(ص) .

ومجمل القول ان حروب الردة لم تكن حروبا غرضها ارجاع قبائل وأفراد خرجوا على الدين الاسلامي فحسب وانما كانت ايضا حروبا سياسية دينية غرضها ارجاع خضوع هذه القبائل للسلطة المركزية في المدينة ثم اخضاع من لم يخضع بعد .

القضاء على الردة

كان رد فعل ابي بكر (رض) ينقسم الى خطوتين ، في المرة الاولى ارسل المبعوثين الى المرتدين في جهات الجزيرة المختلفة يدعوهم الى الرجوع الى حظيرة الاسلام وخضوعهم للسلطة المركزية ، وذلك ان خروجهم بالدرجة الاولى يعني الردة عن الاسلام وعدم اعترافهم بسلطته. ولما لم يستجيبوا الى دعوته فإنه اتخذ الخطوة الثانية وهي تسيير الجيوش وعقد اللواء الى احد عشر قائدا كل قائد كان عليه استرداد جزء معين من الجزيرة .

وقد لعب خالد بن الوليد دورا بارزا في هذه الحروب فهو بعد ان قضى على الحركة التي تزعمها طليحة بن خويلد الاسدي في نجد ، الذي ادعى النبوة في زمن الرسول (ص) وكان كاهنا حيث زعم ان جبريل ينزل عليه ثم أتى ببعض الطقوس والعبادات تقليدا لما جاء به الرسول (ص) وقد اجتمعت حوله قبائل غفطان وعبس وذبيان وبني فزارة وبني اسد الا ان خالد انتصر عليهم واضطر طليحة الى الهرب الى بلاد الشام ، ثم تاب . توجه خالد بعد ذلك الى بلاد بني عامر الممتدة من شرق المدينة وحتى الخليج العربي . وهنا امتنع مالك بن نويرة ان يرسل الزكاة بعد موت الرسول (ص) ، حتى يعلم من الذي يرثه ، والواقع ان هذه المنطقة كانت تقطن من قبل قبيلة بني تميم ، وبعد صلح الحديبة اقبل جماعة من هذه القبيلة فأعلنوا اسلامهم ، وتقبل الرسول إسلامهم وأرسل ولاته .الا انه بعد موت الرسول (ص) عاد الانقسام الى صفوف بني تميم على الزعامة وبدلا من اللجوء الى ابي بكر لحلها فإنهم لجأوا الى سحب صلتهم بالمدينة .

وفي هذه الفترة تظهر لنا سجاح التميمية التي تأثرت بالمسيحية فتغيرت لأنها نشأت بين قبيلة تغلب النصرانية . جاءت سجاح التي ادعت ان الوحي يأتيها فنشرت دعوتها بين قبيلة تميم واخضعت بالقوة من رفض ان يدين لها بالطاعة . ودخلت في مفاوضة مع مسيلمة الكذاب في اليمامة على عقد اتفاق على ان يعطيها نصف غلات اليمامة وأقر لها السلطة على تميم بينما اعترفت لسطته على اليمامة . وعلى ايه حال فأنها فشلت بعد مقابلة جيش خالد بن الوليد ويقال انها اسلمت بعد ذلك . اما مالك بن نويرة فانه قد قتل على يد خالد . وبعد ان قضى خالد على ردة تميم توجه الى اليمامة الارض الواسعة التي تمتد على طول الخليج العربي وكانت تقطنها قبيلة ربيعة وأشهر بطونها هم بنو جنيفة الذين ظهر بينهم مسيلمة ، وادعى هذا النبوة في زمن الرسول (ص) ايضا في حوالي سنة ١٠هـ، وزعم انه شريك الرسول وان يقاسمة الارض . وحاول تقليد الدعوة الاسلامية وذلك بفرض بعض المبادئ على جماعته ، ويقال انه كان واسع النفوذ حيث تبعه حوالي ٤٠ الفا من بني حنيفة . قابلهم خالد بن الوليد وفي معركة حامية ، خسر مسيلمة الرب ، وقتل هو وجمع غفير من اتباعه وخسر المسلمون في هذه المعركة التي سميت " بحديقة الموت " عددا كبيرا من خيرة المسلمين ومن القراء (قراء القرآن) ثم اتجه خالد شرقا نحو البحرين لإنقاذ واليها العلاء بن الحضرمي والقضاء على ردة الحطيم زعيم بني بكر . ووجود الحطيم هذا زعيما يرجع الى المناذة لقبه المغرور فانضوى تحت لوائه . وبعد ان انقذ العلاء تسلم هذا القيادة واستطاع ان يهاجم المرتدين بالبحرين وقتل الحطيم اما المغرور فولى .

لقد ساعدت الاحوال الداخلية لليمن الرسول (ص)ان يمد نفوذ الاسلام على هذا الجزء بعد ان توطد نفوذه في مكة والطائف . وتوافد رؤساء القبائل اليمانية الى المدينة من اجلال بيعة حتى ان الوالي الفارسي انئذ وهو " باذان " وقد ارسل الرسول (ص) عليا بن ابي طالب (رض) وابا سفيان بن حرب كمندوبين عنه الى اليمن . وفي هذه المنطقة ظهر الاسود العنسي في حياة الرسول (ص) وادعى النبوة ولقب نفسه بـ" رحمان اليمن " كما اطلق مسيلمة على نفسه " رحمان اليمامة " الا ان تمرد العنسي هذا انتهى في زمن الرسول (ص) ايضا وذلك عن طريق تأليب القبائل عليه ، ثم عن طريق الاستعانة بنصارى نجران والابناء وفي عهد ابي بكر ارتدت بعض قبائل حمير وقد حاربها عكرمة وانتصر عليها .

نتائج حروب الردة والقضاء عليها:

لم تقتصر النتائج التي جاءت بها الانتصارات العسكرية على المرتدين في الجزيرة العربية على الجانب العسكري وبراعة القيادة العربية وانها أصبحت تمتلك قوات عسكرية مدربة وكاملة الاستعداد نفسيا وقتاليا ، تعرف قيمة النظام وتدرك اهمية الطاعة ، بل حملت معها في الوقت ذاته مضامين عديدة، أهمها: أنها اعادت وحدة الجزيرة العربية وربطها بالمركز الاداري للدولة

العربية الاسلامية ، وارتباطها في هذا الوقت لم يكن محددا في الطابع المادي ودفع الزكاة بل من الجانب السياسي ايضا، وهذا بدوره زاد من تثبيت الاسلام في قلوبهم .

ومن النتائج المهمة التي جاءت نتيجة حروب الردة هي كتابة القرآن الكريم وحفظه من الضياع حيث استشهد الكثير من قراء القرآن في اليمامة فخاف الخليفة ومن حوله من الصحابة من ضياع بعضه فأمر ابو بكر (رض) زيد بن ثابت فجمعه في صحائف أودعت لدى الخليفة ثم عند عمر بن الخطاب (رض) فلما توفي عمر اودعت لدى ابنته حفصه.

كما ان هذه الحروب تعتبر فاتحة او بدايات اولى الى حركة اوسع وباتجاهات مختلفة تلك هي الفتوحات الاسلامية التي حملت معها دينا جديدا الى كل من العراق وبلاد فارس وبلاد الشام وافريقيا وبجنبها اصبحت اللغة العربية لغة لها السيادة في هذه المناطق المفتوحة، إذ ان الجيوش التي خرجت الى الجزيرة العربية للقضاء على المرتدين والمترددين استمرت في مسيرتها نحو الشرق والشمال والغرب للقيام بمهمات اوسع، وشارك العرب الذين سبق وان وقفوا ضد السلطة المركزية والاسلام مشاركة فعالة في هذه المسيرة الناجحة، حينما سمح لهم بذلك، في وقت لاحق، زمن الخليفتين عمر وعثمان، لأن حركات الردة قد تركت آثارها في محاولة تشكيل المجتمع العربي الاسلامي فأصبح كأنما اقتسمته طبقتان : طبقة من ثبتوا على الاسلام وحاربوا اهل الردة، وطبقة من وقف ضد الاسلام والسلطة المركزية ، وتتميز كلتا الطبقتين في عهد الخلفاء الثلاثة بالوان من الثقة او الحذر منها .

ففي عهد الخليفة الاول حيث الجرح لم يندمل بعد، شهدت السياسة الاسلامية لونا من الحذر والدقة المتناهية في تقبل المرتدين واندماجهم في المجتمع العربي الاسلامي، فكان ابو بكر (رض) لا يستعين في حربه بأحد منهم حتى مات .

فلما ولي عمر(رض) وكان المسلمون قد قوي امرهم وامتد سلطانهم وبعدت ذكريات الردة اتجه بالمرتدين وجهة جديدة، فلم يشأ ان تظل هذه القوى معطلة تفني في قلقها ولم يشأ ان يحرم المجتمع العربي الاسلامي ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدين من رغبة قوية في التفكير بما اقترفوا ، فأذن لهمان يساهموا في الحروب ، ثم خطا بهم خطوة اخرى فأذن لهم ان يلوا بعض المراتب في الجيش وقد أبلى بعض هؤلاء في الحروب بلاء حسنا . فلما ولي عثمان بن عفان (رض) قفزوا قفزة واسعة تنتهي بهم الى الاندماج التام في المجتمع العربي الاسلامي ، وأرخى النسيان ذيوله على حركة الردة .

لجهاد؟ {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}.

المحاضرة السابعة

خلافة عمر بن الخطاب (رض) ١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤م

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العّزى ليصل نسبه الى عدي بن كعب، فهو يجتمع بالنبي (ص) في كعب بن مرة . كان بنو عدي قوم عمر من بطون قريش التي كانت لها مكانتها . وكان والده الخطاب من ذوي المكانة في قريش على قلة ماله. تعلم عمر القراءة والكتابة فيمن تعلمها من ابناء قريش وكانوا قلة ولما شب عمل راعيا لغنم ابيه كان ابيض اللون أبهق – شديد البياض تعلوه حمرة– طويلا.

ولد عمر قبل حرب الفجار بأربع سنين وكان لشدته اثر في تأخير اسلامه قليلا وكان قبل اسلامه شديدا على من سبقه الى الاسلام، فلما أسلم كان شديدا على اهل الشرك، فكان اسلامه عزا للإسلام وقوة ، كانت منزلته عند النبي(ص) تلي منزلة ابي بكر، فلما مات النبي (ص) وخلفه ابو بكر كان له بمنزلة الوزير ولهذا آثره ابو بكر بالخلافة بعده.

تضافرت في اختيار عمر(رض) تقاليد قبلية واسلامية فعمر كان اكثر الصحابة نفوذا في خلافة ابي بكر (رض) وقد رشح بعد استشارة الصحابة وتأييد معظمهم له، وتمت خلافته بمبايعتهم وهذان الأمران يتمشيان هما والتقاليد السياسية الموروثة من قبل الاسلام ، ومن ناحية ثانية كان لخدمة عمر(رض) في الاسلام اهميتها كما انه ليس من فخذ بارز في قريش بل اختير لمؤهلاته وقابلياته، وهذه ناحية اسلامية لا تأتلف والتقاليد القبلية .

خطب عمر بالناس بعد ان بايعوه فقال :

" ايها الناس، بلغني ان الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي، فأعلموا ان تلك الشدة انما تكون على اهل الظلم..." ويستخلص من الخطبة ان عمر في خلافته سيكون خادما للمسلمين لا حاكما عليهم، وان خلافته ستكون شورى بينه وبينهم لأنها مستمدة منهم وهو بشر مثلهم . يصيب ويخطى، ويحتاج الى معونتهم وارشادهم وهذه بعينها خلافة ابي بكر (رض) .

تنظيم الدولة وتطور مؤسساتها :

ان حروب التحرير والفتوح الاسلامية التي ابتدأت في عهد ابي بكر قد اقتربت من قمتها في عهد عمر (رض) فلم تعد الدولة محصورة بين المدينة ومكة وما جاورهما بل امتدت بعيدا، فبعد ان تحرر الشام والعراق ومصر وكان لابد من تنظيم يتناسب مع السعة الجغرافية للدولة وانتشار ابنائها واختلاطهم بشعوب لها انظمتها وتقاليدها الخاصة بها . فكان لابد لهذا التنظيم من مستوى يستوعب معه التطورات الجديد الاجتماعية منها والاقتصادية، ولابد من نقل مفهوم الامة والمبادئ التي جاء بها الدين الجديد ومقاييسه الاجتماعية ووضعها موضع التطبيق الفعلي في الواقع الجديد في شكل دولة جديدة تهدف اول ما تهدف اليه المساواة بين افرادها وتحقيق العدالة والتكافل الاجتماعي، ومن هذا المنطلق اخذ عمر(رض) – بالرغم من الفتوح كانت تستحوذ على

كل جهوده – يصنع القواعد والاسس لإدارة تلك الدولة الشاسعة وانشاء وتطوير مؤسساتها فقادها بحكمة وساس امورها سياسة خبير وأدار شؤونها بحزم وعدل ، صان الامانة التي تولى حمل عبئها، فجاءت أعماله كبيرة لابد ان تكون كذلك لتتماشى مع عظم الدولة الجديدة وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقة ،وقد تجلت في :

١–تنظيم حياة الجند والاراضي المفتوحة:

عندما تكون الدولة في حالة حرب فإن تنظيم الجند ورعايتهم تكون من الأولويات في أعمال الدولة ورئيسها، ولما كان هدف الفتح الاسلامي يختلف عن اهداف الفتوح، فكرا وممارسة . فإن نتائجه بالتأكيد سوف تختلف ايضا، لأن الاحتكاك العسكري سوف يصاحبه احتكاك اجتماعي بل ثُل حضاري وفكري .

فكان للأمصار نصيب كبير في سياسة الخليفة عمر (رض) حيث ركز سياسته في جعل العرب المسلمين امة مجاهدة عسكرية إذ كان عليهم الابتعاد قدر الامكان من الاختلاط بالأجانب . فهو بادئ بدء منعهم من مزاولة الزراعة، كما امرهم ان يقيموا معسكرات وان يتخذوها مواطن لهم مثل الجابية وحمص في الشام والبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر . وهدفه ان يجعل العرب يتفرغون الى الادارة والاعمال العسكرية. فلقد منعهم من شراء الاراضي والاقامة فيها، لان ذلك سيؤدي الى فتور حماسهم الحربي في غمرة الاستقرار وانصرافهم الى امور بعيدة عن الواجبات التي جاءوا من اجلها . ورأي ان يكون كل مسلم جنديا من جنود الاسلام ويمنح على هذه التقيدات كانت وفق هدف وخطة إذ أن الخليفة كان على علم بحياة المدن الحافلة بالترف والرفاهية، والتي تصطبغ بصبغة تختلف عن الحياة التي اعتادها العرب . وقد علل فون كريمر (الحضارة العربية) هذه الناحية تعليلا دقيقا بقوله ان المقصود من هذه السياسة هو جعل العرب (المسلمين قوة) عسكرية ممتازة ، ومن الممكن اضافة شيء آخر الى هذا القول هو ان عمر (رض) اراد من سياسة عدم تملك الاراضي امر اخراجهم منها، فالزراعة تؤدي الى الاستقرار، كما ان تملك الاراضي تعني انتشارهم في مناطق واسعة مما يؤدي الى صعوبة جمعهم في اوقات الدفاع او الهجوم .

وبناء على دأبه بدفع عطاء للمحاربين منع عمر(رض) من تقسيم اراضي العراق بين جنده، فبقيت اراضي السواد المفتوحة عنوة بأيدي اصحابها على شرط أن يدفعوا بدلا عنها خراجا، وأن هذه الأرض لا تشتري ولا تباع . هذا اضافة الى رغبته في ربط الاجزاء بالمركز وتكوين امبراطورية موحدة.

٢–تدوين الدواوين وفرض العطاء:

دعت ظروف الدولة العربية الاسلامية الناشئة بعد ان بدأت تتدفق عليها خيرات البلاد المحررة والمفتوحة شرقا وغربا ان تبحث عن نظام ثابت يضبط المدخولات والمصروفات، ويحدد

أنصبة المستحقين، واشتدت الحاجة الى ذلك في خلافة عمر(رض) فوفق الى تدين الدواوين ، وفرض العطاء، فكان عمر (رض) اول من دون الدواوين . يقول الجهشياري في كتاب " الوزارء والكتاب " : " وكان عمر اول من دون الدواوين من العرب في الاسلام "، ويقول ابن تيمية في " كتاب السياسة الشرعية ": " ولم يكن للاموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد الرسول (ص)، وابي بكر (رض) بل كان يقسم المال شيئا فشيئا ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب (رض) كثر المال واتسعت البلاد، وكثر الناس، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة ،"

اذن ظهرت الدواوين ، كبقية المؤسسات نتيجة لحاجة العرب المسلمين الى التنظيم العسكري والاداري والمالي بدأت بسيطة محدود ، ثم نمت وتعددت وتفرعت حسب تطور الضرورات والاحوال. ولعلنا نذكر ان الخليفة الثاني اراد ان يجعل من العرب امة مجاهدة عسكرية ويوجهها للجهاد في سبيل الله وسيادة الاسلام . فأراد ان يخصص للمقاتلة رواتب واعطيات من بيت المال ليكفيهم مؤنة العمل واراد ان يحفظ سجلا باسماء المحاربين واهلهم .

أما منشأ فرصة تأسيس الديوان فيختلف فيها المؤرخون ، اذ تنسبها بعض الروايات الى تأثير الفرس وتنسبها روايات اخرى الى تأثير الروم، وكلها تشير الى شعور الخليفة بضرورة التنظيم وتعدّ ذلك السبب في الشروع بإنشاء الديوان . وهذا الديوان هو ديوان الجند بشكله الاول، وأطلق عليه في ذلك الوقت " الديوان " لانه كان الديوان الوحيد في المدينة .

ويتبين من دراسة المعلومات عن الديوان " نوع العناصر التي سجلت فيه وهي من المقاتلة الاوائل الذين قاموا بالفتوحات . ومن خلال ذلك نرى ان الخليفة الثاني لم يفرض العطاء في الديوان لجميع العرب، بل سجل اهل المدينة وهم قلب الامة العربية الاسلامية، ثم القبائل المقاتلة التي اشتركت في الفتوحات ومن لحق بهؤلاء من القبائل لتعزيز قوة المسلمين العسكرية .

لم يتبع عمر(رض) خطة ابي بكر (رض) في العطاء، اذ ان الخليفة الاول لم يأخذ بـ(السوابق ، والقدم ، والفضل) بعين الاعتبار في تقدير الاعطية . اما عمر فقد سار على خطة جديدة حيث صنف المسلمين الى درجات حسب القرابة من الرسول(ص)ثم القدم في الاسلام والمساهمة في نشر الدعوة، ثم الحاجة وعلى هذا فإنه عدّل من نظام المساواة في العطاء الذي كان متبعا زمن الرسول (ص)، وابي بكر (رض) وحسبما يذكر الطبري انه خصص الى عائشة ١٢الف درهم، والى سائر نساء النبي (ص) ١٠ الاف درهم سنويا، فكان عطاؤه يقدر حسب القرابة من الرسول(ص)، ومن شهدوا بدرا او المواقع المشهورة مثل القادسية واليرموك.

ولم يقتصر ذلك على الرجال ، بل فرض عمر(رض) للنساء اعطيات تبلغ عشر اعطيات الرجال من الطبقة نفسها كما فرض الخليفة لكل مولود حين ولادته ١٠٠درهم فإذا ترعرع فرض له ٢٠٠درهم فاذا بلغ زاده . وقد ساوى عمر في الطبقات بين العرب والموالي في العطاء ساوى بين المهاجرين ومواليهم بين الانصار ومواليهم . ويلاحظ ان الديوان في عهد عمر (رض) كان

يعني السجل الذي يحوي اسماء المقاتلة واهليهم ومقدار اعطياتهم وارزاقهم . وحين تعددت الدواوين صار معناه السجل بصورة عامة. وصار المعنى اخيرا يطلق على المكان الذي يحفظ فيه السجل.

والى جانب ديوان الجند كان بيت المال وفيه تودع الاموال الواردة من الغنائم والجزية والخراج والصدقات، هذا في المدينة، اما في الولايات ، فهناك دواوين الخراج والنفقات وهي موروثة من العصر السابق، ثم دواوين للجند على غرار ديوان المدينة.

٣- النظام المالي :

ان النظام المالي الذي وضعه عمر بن الخطاب(رض) كان نظاما مثاليا وعادلا يستند الى الظروف والحاجة . اما مثالتيه فهي نابعة من اتخاذه القران الكريم والسنة النبوية الشريفة هاديا واساسا في قرار المبادئ او استخلاصها . فهو اعتمد الآيات القرآنية وما جاءت به من تشريعات مالية واجتماعية توضح أنصبة المستحقين وواجبات الدافعين ، اساسا في نظامه . كما اتخذ السنة النبوية مثالا يقتدى به، فهو نظام تفوح منه رائحة العدل في جميع جزئياته وتفصيلاته . ولم يتبنا الضريبة المفروضة في اي بلد من البلدان المحررة وانما تبناها كمبداء لتتناسب مع روح العدالة ، ولم يقف عند هذا الحد بل ذهب عدله الى ابعد من ذلك حيث قرر وقت الدفع لئلا يلحق بالناس حيف فكان عهده لسكان بيت المقدس دستورا في ذلك (لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم).

وكما فرق بين اموال الناس وامكاناتهم الاقتصادية ، فرق بين انواع الزرع وصلاحية التربة وما تخلفه العوامل الطبيعية من آثار سلبية او ايجابية عليها . فالخليفة عمر (رض) عندما وضع نظامه راعى اول ما راعى فيه مصلحة سكان البلاد المحررة والمفتوحة ولم يفرق بين عربي واعجمي ولا بين غالب ومغلوب .ولما رفض تقسيم الاراضي المحررة والمفتوحة بين المقاتلة بل عدّ الارض ملكا مشتركا بين المسلمين يجبي وارده الى بيت المال وخصص للمقاتلة عطاء ورزقا، وخاف ان هو قسم الارض بين الفاتحين الا يبقى لمن يأتي بعدهم شيء، انما اراد وضع معادلة يحقق طرفها الاول انسياب الاموال الى بيت المال بشكل ثابت ومستمر في حين يحقق الطرف الثاني منه ضمان مستقبل الاجيال القادمة، وارتكز هذان الطرفان من المعادلة على مرتكز اسمه العدالة الاجتماعية.

ومع اتساع الدولة العربية الاسلامية وتزايد مواردها ظهرت الحاجة الى شكل من اشكال التنظيم يحقق التوازن بين الدخل والمنصرف وفق الظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، واطلق عليه منذ ايام عمر بن الخطاب " بيت المال " لحفظ الاموال وصيانتها. وكانت اهم موارد بيت المال هي : الخراج ، الجزية ، الزكاة ، الغنائم ، الفيء، والعشور.

فالخراج: وهو مقدار معّين من المال ، او الحاصلات ويؤدّي على ارض الخراج التي استولى عليها المسلمون بالفتح عنوه واقرّها الامام في ايدي اصحابها يفلحونها، ويتوارثونها ويؤدون خراجها لبيت المال. وكذلك ما يؤدًّى على الارض التي أفاء الله بها على المسلمين بدون قتال فملكوها، وصالحوا أهلها على ان يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه الى بيت المال.

والجزية: هي مبلغ معّين من المال توضع على الرؤوس، وتسقط بالإسلام وقد وجبت لقوله تعالى في سورة التوبة (آية ٢٩): " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ".

والجزية تغاير الخراج من وجوه، فالخراج على الارض وهي على الرؤوس، والخراج لايسقط بالاسلام وهي تسقط به ،والخراج ثبت بالاجتهاد، وهي ثبتت بالقرآن .والجزية يدفعها الذميون في نظير حمايتهم ، والدفاع عنهم يقول الماوردى في كتابه " الاحكام السلطانية " "... فيجب على أولى الامر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذّمة من أهل الكتاب ليقروا بها دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقّين احدهما الكفّ عنهم والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف امنين، وبالحماية محروسين ".

وكان مقدارها يتفاوت بحسب مقدرة الدافعين من : ٤٨، ٢٤، ١٢ درهما على الرأس في السنة ، ويعفى منها العاجزون عن العمل والمساكين الذين يتصدق عليهم، والاعمى والمقعد ، والمجنون وغيرهم من ذوي العاهات ، ولا يجب على امرأة ولا صبي وانما على الرجال ، الاحرار العقلاء.

والزكاة: هي تمليك جزء معلوم من المال المستحق وفق ما حدّده الشرع وذلك في النقدين / الذهب ، والفضة، وهي زكاة المال ، وفي السّوائم : الابل والغنم وما اليها من البقر والجاموس والمعز، وهي زكاة الماشية ، وفي اموال التجار وهي زكاة العروض، وما وجد تحت الارض سواء كان معدنيا خلقيا، ام كنزا دفنه الكفار، وهي زكاة المعدن والركاز ، ثم اخيرا زكاة الزرع والثمار.

والغنائم: جمع غنيمة: وهي ما غلب عليها المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة وهي جميع ما اصابوه من شيء قل او كثر حتى الابرة ، والغنمة فيها الخمس لله وهو مردود من الله على من ذكره من المستحقين في سورة الانفال(آية٤١): (واعملوا انما غنمتم من شيء فأن لله خُمسهً وللرسول، ولذي القربي، واليتامى والمساكين، وابن السبيل ...) ولا يصحّ أن يوضع في غيرهم، والامام يعطية لمن حضر منهم بعد اجتهاد الرأي ، وتحرّي العدل ، اما ما بقي بعد الخمس، وهو الاربعة أخماس فهو من حيث المبدأ للذين غلبوا عليه من المسلمين وأوجفوا عليه راجلين، او بخيل وركاب ، كما يفهم هذا من كتاب الخراج لابي يوسف ومن كتاب الخراج ليحي بن ادم .

والفيء: هو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال من جزية او خراج وهو كله لمن سمّي الله من المستحقين له في قوله تعالى " في سورة الحشر"(آية٦)(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى والمساكين، وبن السبيل)وهم بأعينهم الذين يستحقون خمس الغنيمة.

بقي ان نذكر ان الارض التي اخذت عنوة بحد السيف ، للأمام ان يأخذ الخمس منها ليكون فيئا، ويقسم الاربعة أخماس الباقية على من ظهر على ارض العنوة من جيش المسلمين ، واما ان يقتسمها كلها على جميع المسلمين ويروى ان النبي عليه الصلاة والسلام وقف بعض ما ظهر عليه من الارضين فلم يقسمها ، وأنه قسم ما ظهر عليه ، فللإمام بحسب ما يرى من المصلحة ان يقف ارض العنوة كلها فيجعلها فيئا، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق ،وأما ان يقسمها ، بعد أن يأخذ خمسها ، وثم اشياء من ارض او غيرها هرب اهلها وتركوها من غير قتال ، فهذه للأمام ان يضعها حيث يرى كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام من قبل ، فيستطيع ان يقيم فيها من يعمرها ويؤدي عنها شيئا الى بيت مال المسلمين أو يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين او يقطعها رجلا حسب ما يشاء برأيه.

والعشور: ضريبة استحدثها عمر رضي الله عنه في خلافته، وسبب فرضها كما يقول في كتاب " الخراج " إن أبا موسى الاشعري كتب الى عمر (رض)ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون ارض الحرب فيأخذ الاعداء منهم " العشر " فكتب إليه عمر : خذ انت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من اهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل اربعين درهما، درهما وليس فيما دون المائتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه، فكانت تلك الضريبة بمثابة الاسس الاولى للنظام الجمركي.

وهناك اموال كانت تعتبر من موارد بيت المال وهي الاموال التي لم يعلم لها مستحق ، كـ" اللقطة " وكذا مال من لا وارث له، والاموال التي يصالح عليها المسلمون اعداءهم، وكالغرامات الحربية.

أما مصارف هذه الاموال فهي مرتبات موظفي الدولة، كالقضاة والولاة والعمال والوزراء والكتاب والحجاب وغيرهم ، ثم اعطيات الجند وكري الانهار وحفر الترع واقامة الجسور وتعبيد الطرق واقامة المنشئات العامة واجراء الارزاق على المسجونين والصرف على الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش، وكل ما يحقق مصلحة الدولة بحسب ما يراه الخليفة كما أنه يبذل العطايا والمنح للعلماء والادباء .

رابعاً: التنظيم الاداري :

تعتبر الهجرة الى المدينة بداية لوضع النظام للدولة العربية الاسلامية ، فكان الرسول (ص) ينيب عنه عمالا على القبائل والمدن وبخاصة المدن الكبيرة بالحجاز واليمن ، وكانت

وظيفة هؤلاء العمال الامامة في الصلاة وجمع الصدقات ، إذ لم يكن هناك خراجة ومنتم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية .كما كان(ص) يبعث الى القبائل التي دخلت الاسلام من يقرئها القرآن ويعلمها اصول الدين كذلك كان (ص) اذا خرج في غزوة أناب عنه بالمدينة احد الصحابة لإمامة الناس في الصلاة ، كما كان ينيب عنه احيانا قائدا يقود سرية من السرايا.

فلما ولي ابو بكر (رض) الخلافة اقر عمال الرسول (ص) في أعمالهم وولى عمر بن الخطاب (رض) القضاء، وابو عبيدة بن الجراح أمانة بيت المال في حين كان يستعين بكل من زيد بن ثابت وعثمان بن عفان في الكتابة له، حيث كان النظام الاداري خاليا من كل تعقيد فلا توزيع للأعمال ولا إدارات مختصة بأعمال معينة . وقد قام ابوبكر بتقسيم البلاد الى عدة ولايات ، هي مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزبيد ورمع والجند ونجران وجرش والبحرين .

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية في خلافة عمر (رض) أعاد النظر في تقسيمات سلفه لتساير الظروف الجديدة، فقد قسم الدولة أقساما إدارية كبيرة ليسهل حكمها والاشراف على مواردها وتطويرها فجعل بلاد فارس بعض الاراضي العربية التي كان الفرس يسيطرون عليها ثلاث ولايات هي : ولاية الاحواز والبحرين ، وولاية سجستان ومكران وكرمان وطبرستان ، وولاية خراسان . أما العراق فقد قسمه الى قسمين أحدهما :حاضرته الكوفة ، ولآخر حاضرته البصرة . وقسم بلاد الشام الى قسمين ايضا :احدهما حاضرته حمص والثاني حاضرته دمشق. وجعل فلسطين قسما قائما بذاته . أما أفريقيا فقد قسمها الى ثلاث ولايات: مصر العليا ، ومصر السفلى، وغربي مصر وصحراء ليبيا. وقد عين عمر (رض) على هذه الولايات عمالا او ولاة كانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة، الذي كان يجمع في يده السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية بمعاونة اهل الشورى.

وكانت وظيفة هؤلاء العمال او الولاة، امامة الصلاة وجهاد العدو، وفض الخصومات والمحافظة على الامن، وكانوا يختارون من العرب اضافة الى القاضي وصاحب الخراج الذي كان يتولى الشؤون المالية في الولاية وهو مسؤول أمام الخليفة مباشرة وعلى شروط منها العدل في تقدير الضرائب ومراقبة سياسة العمال وأعمالهم . لذلك كان عمر (رض) اول من وضع النظام الاداري للدولة العربية الاسلامية ونظم ادارتها . أما من حيث سير العمل الاداري وأسلوبه ومؤسساته والقائمون عليه فقد ظل كما كان عليه في كل من الامبراطورية الساسانية في العراق وفارس، وولايات الامبراطورية البيزنطية في الشام ومصر والمغرب ، مع إحداث ما يتطلبة الاصلاح التغيير مما يتفق وعقائد المسلمين الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت لحكم العرب المسلمين.

٥- التقويم الهجري :

اختار الخليفة عمر (رض) حادثة الهجرة اساسا للتقويم الهجري ، ولم يعتبر ميلاد الرسول (ص) ولا حادثة البعثة على اهميتها، بداية للتقويم لأنها حدث من اهم الاحداث التاريخ الاسلامي ولان الهجرة أعطت الاسلام وجها جديدا، وبدأ بها دور جديد، طوى الدور المكي، الذي كان الاسلام فيه دعوة دينية بحتة، تقوم على عبادة الله وحده لا شريك له . اما الدور المدني فقد كان فيه التشريعة والتنظيم ، فاصبح الاسلام دينا ودولة عبادة وتشريعا، وفتحت حادثة بابا جديدا للإسلام، كان منه الانطلاق لتأسيس دولة الاسلام الكبرى ، بعد ان تم وضع نواتها في المدينة.

فقد اكتملت لهذه الدولة بالهجرة عناصرها القانونية : من ارض، بدأت بالمدينة لكنها اتسعت؟، فالدولة الاسلام دولة عالمية لا ترتبط بحدود ارض، وأمة هي امة الاسلام بدأت بالمهاجري.ن والانصار وضمت كل من يعتنق دين الله عن اقتناع واختيار ، ففيها الحبشي وفيها الرومي وفيها الفارسي، كما فيها الابيض والاسود، يرتبطون برابطة واحدة وهي العقيدة الاسلامية، كما ارتبط بكيان هذه الامة من غير المسلمين من مسيحيين ويهود. وتحققت بعد الهجرة سيادة الدولة على رعاياها في الداخل، وفي الخارج ازاء زعامة قريش في مكة وغيرها من قبائل العرب .

والسبب وراء تفكير الخليفة عمر (رض) باتخاذ تقويم ثابت، يرجع بالدرجة الاولى الى توسع الدولة وتعقد امورها الادارية، وبذلك احتاج الى مخاطبة الولاة والقواد وذكر تواريخ كتبهم . فكانت سنة (٦٢٢م: ١هـ)بداية للتقويم الاسلامي. كما اتخذ السنة القمرية اساسا له استنادا الى الاية الكريمة): هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقد اختار المسلمون شهر المحرم بداية للسنة الهجرية على الرغم من ان الهجرة كانت في شهر ربيع الاول، ذلك ان المحرم اول الشهور في العدة، ومنصرف الناس من الحج، كما اعتمد التاريخ الهجر الليالي اساس التوقيت لاعتماد المسلمين على السنة القمرية .

٦- القضاء :

ان الوثيقة التي كتبها الرسول (ص) في المدينة والتي تعتبر الوثيقة التأسيسية للدولة الاسلامية ، قد حددت الاساس العقيدي لها واكدت شخصيتها وسلطتها في الداخل والخارج كما قررت الشريعة الحاكمة، وفصل الحقوق والواجبات لكل فئات رعية هذه الدولة. اهتمت الوثيقة بأمر العدالة وتنظيم القضاء وادارته، ويمكن القول بأن العدالة وتنظيم القضاء كانا من الغايات الرئيسية التي استهدفتها الوثيقة ، لذا ادرك الرسول (ص) أهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم، وأن فقدانها كان من اهم العيوب في المجتمعين المكي والمدني ومن اعظم اسباب القلق والاضطراب .

ومن خلال نصوص الوثيقة يتبين بأن القضاء كان مقتصرا على الرسول (ص) فقط فهو الذي ينظر في الخلافات سواء كان بين المسلمين فقط (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان

مرده الى الله عز وجل والى محمد(ص)))او مع اليهود (وانه ماكان بين اهل هذه الصحيفة من حدث، او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره)، وحتى شملت المشركين من قريش واهل يثرب ومن اتبعهم ، ولم يرد في كتاب السير ما يشير الى ان الرسول (ص)قد عين قاضيا، بل كان يكلف احد الصحابة في النظر ببعض الخصومات او يعهد بذلك الى بعض الولاة ضمن توليتهم امور الولاية .ولما انتشرت الدعوة الاسلامية اذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد. وبسبب اتساع رقعة الدولة نتيجة الفتوح في عهد عمر(رض) وانتشار العرب والمسلمين في اقطار بعيدة واختلاطهم بالامم الاخرى وظهور الخصومات وتعددها وتنوعها مما يصعب على الولاة البت فيها لانشغالهم بأمور الادارة والحرب ، فقضت الحاجة الى تعين قضاة ينوبون عن الخليفة . فكان عمر اول خليفة يعين القضاة ويبعث بهم الى الامصار الاسلامية ويخصص لهم الارزاق، وكان دقيق في الاختيار اذ يتميزوا بالكفاءة والعدل والمقدرة على الاستنباط والالمام التام بالقرآن وأحكامه والسنة والاجماع والقياس . وبهذا يكون الخليفة عمر اول من فصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية لدى الولاة .فاصبح القاضي مستقلا في احكامه بعيدا عن تأثير الوالي ويبدو ان حكامهم في تلك الفترة اقتصرت على الخصومات المدنية ، اما القصاص والحدود فكان يرجع الى الخلفاء والولاة، كما استحدث السجن بمعناه الحالي في زمن عمر (رض).

وليس ادل على حرص الخليفة للعدل من وضعه كتابا عممه الى الافاق حيث اصبح دستورا يهتدون به في أحكامهم ، وقد روى نصه الجاحظ في كتابه البيان والتبين.

٧- التعبئة الحديثة للجيوش الاسلامية:

يعتبر عهد الرسول (ص) في المدينة بداية رائعة لتطوير مفهوم القتال وأساليبه في الدولة الاسلامية الاولى، فكانت لصفاته العسكرية وعبقريته الحربية فضل كبير في نجاح المسلمين ، تلك المزايا التي يندر ان تجتمع لقائد واحد فانه (ص) قد جمع الصفات المثالية للقائد الناجح وهي : القدرة على اعطاء القرار السريع الصحيح والشجاعة وتحمل المسؤولية والثقة العالية بالنفس وبالقطعات المقاتلة وتفهم لأساليب العدو النفسية والقتالية .

فقد طبق الرسول (ص) اساليب جديدة ومبتكرة واستفاد من الاسلحة المتوفرة لدية اقصى الاستفادة. ففي معركة بدر عبأ قواته تعبئة منظمة تناسب الاهداف التي يرمي تحقيقها والمنطقة التي يقاتل فيها ، فسبقته دوريتا الاستطلاع والمقدمة كما تآخرت عنه المؤخرة لحماية ظهر المسلمين . ثم كانت طريقة الصفوف التي تؤمن السيطرة على القوة بكاملها وتتناسب مع العدد المتوفر لديه من المقاتلة وهي طريقة تصلح للدفاع والهجوم. اما كلمة التعارف اثناء المعركة التي

اوجدها الرسول (ص) والتي تقابل كلمة " السر " حديثا أثرها البليغ عندما تشتد المعركة خاصة وان المقاتلة آنذاك يتشابهون في الهيئة واللباس والسلاح واللغة .

ومن الاساليب الحديثة التي استخدمها الرسول (ص) اقامة مقر مؤقت للقيادة اثناء المعركة سمي بـ" العريش " في موضع مشرف على منطقة القتال يصدر منه تعليماته من تنظيم ومبارزة ثم هجوم ومطاردة، فضلا عن مشاورته للصحابة والنزول عند الراي الصائب لان الحرب مكيدة وخديعة .

وعلى اثر الاحتكاك المباشر مع الجيوش الفارسية والبيزنطية في عهد الخليفة عمر (رض)وللضرورات التي تقتضيها طبيعة المعارك، فقد تأثرت طبيعة التعبئة للجيوش العربية الاسلامية وكذا بالنسبة للأساليب، فقد تبلورت صورة الجيش في عهده على شكل ثلاثة فيالق، فيلق يعمل في الشام وآخر في العراق وثالث في مصر ولكل منها قائد عام يساعده قواد ثانويون. كما احتوى كل فيلق على فرق ، وكل فرقة على الوية، فكان لكل فرقة خمسة الوية: القلب والميمنة والميسرة وهناك المقدمة والساقة ومن هنا جاءت تسمية " الخميس " في الجيش لاحتواء كل فرقة على خمس الوية .

والى الخليفة عمر (رض) يرجع الفضل في اقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجند أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الابل والخيل ، ولا يرتاحون الا في اكواخ مصنوعة من سعف النخيل ومن ثم بنيت واقيمت الحاميات في عدة أماكن لصد هجمات الاعداء المفاجئة .

كما عمد الى تحصين السواحل واتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين فأمر بتحصين السواحل وترتيب المقاتلة فيها. ولذلك امتدت على طول الشام ومصر القلاع والابراج واصبحت هذه السواحل اشبه بسور يحول بين الغزاة البحريين وتهديد المدن الشامية والمصرية وامتدت القلاع والمحارس في عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وانطاكية بالشام والاسكندرية ودمشق والبرلس وتنيس ودمياط بمصر .

كما سبق ذكره ان عمر (رض) اول من جعل الجند فئة خاصة وأنشأ " ديوان الجند " للأشراف عليهم وتسجيلهم وتعيين صنوفهم وصرف أرزاقهم وبهذا يكون اول من فكر في وضع احصاء ثابت للمقاتلة وهو ما يقابل " مديرية الاحصاء والتعبئة " بوزارة الدفاع في وقتنا الحاضر ، وبهذا يكون الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أول من بدأ في نظام الجندية .

اما بقية اعمال الخليفة فقد اخذت طابع تعميق الاتجاهات الانسانية التي جاءت بها الدعوة الاسلامية ومنها انطلقت فلسفة الدولة في الحكم ، فالاهتمام بالرعية وتطبيق العدل الاجتماعي احد الركائز الذي شيد عليه صرح النظام في الدولة العربية الاسلامية ولم يغفل الخليفة عمر (رض)هذا الجانب بل كان احد المميزات التي امتاز به عهده ، فإلغاؤه الرق بين العرب " إني

كرهت أن يصير السبي سُنة في العرب " كانت ولا شك خطوة لها شأنها في إلغاء الرق بين العرب وغيرهم وقد حاز على شرف السبق الى ابطال الرق في الناس جميعا مستوحيا ذلك من ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، لان الاسلام دين المساوة لا يفرق بين عربي واعجمي وإذا كان الاسلام قد اعتبر الرق عارضا ، الا انه عمل على مساعدة الارقاء على استرداد حريتهم ، فقال تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن عَلمتُم فيهم خيرا واتواهُم من حال الله الذي آتاكُم).

نال عمر (رض) الشهادة بعد أن طعنه معتد أثيم من الفرس بالمدينة ، وهو ابو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وكان فارسيا نصرانيا من اسرى نهاوند. وقبل موته قرر الخليفة الشورى لحل مشكلة الخلافة، ولم تكن تلك فكرة آنية فان المصادر تُدلُ على فكر طويلا، وأنه تردد في تعيين خلف له وتردد في عدم تعيين خلف ، قال : (إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني) يعني ابا بكر (رض) والنبي (ص)وكان لتقرير مبدإ الشورى سبابة وظروفه الهامة . فقد اختار عمر (رض) الصحابة الستة لأنه وجدهم " رؤساء الناس وقادتهم "كما قال ولا تخرج الخلافة عن احدهم : فعليّ سيد بني هاشم ، وعثمان شيخ بني امية ، وطلحة سيد بني تميم ، والزبير زعيم بني اسد ، وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رئيسا بني زُهرة وكل له انصاره ومؤيدوه . توفي عمر في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م فكانت مدة خلافته عشر سنين وستة اشهر تقريبا ، وكان في الثالثة والستين من عمره.

خلافة عثمان بن عفان (رض) ٢٤-٣٥هـ\ ٦٤٤-٦٥٦م

هو عثمان بن عفان بن ابي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو الجد الثالث للرسول (ص) كان حسن الوجه رقيق البشرة وكبير اللحية أسمر اللون ، متوسط القامة ، وقد أسلم في أول من أسلم من المسلمين السابقين ، زوجه النبي (ص) بنته رقية فلما ماتت زوجه بنته أم كلثوم .

كان عثمان عند توليه الخلافة شيخا كبير قد نيف على السبعين عاما وبطبيعة الحال فإن لهذا أثرا في بلورة طبيعة حكمه ، فهو حسبما وصفه المؤرخون كان لينا ، متسامحا لم يبلغ شدة الخليفة الذي سبقة لا يرمي الى الدنيا ولكن يرمي الى الدين .

اجتمع اهل الشورى الستة لاختيار خليفة من بينهم واجتمع معهم عبد الله بن عمر الذي كان له الحق الترجيح بينهم اذا اختار ثلاثة رجلا وثلاثة اخر ، وكانت مدة الشورى ثلاثة أيام حددها عمر (رض) لهم قبل وفاته ، وتعددت الاجتماعات وطالت المناقشات حتى اتفق على أن عبد الرحمن أحدهم ، بعد أن تنازل عن حقه يقوم بإجراء الاستشارات وبالفعل قام باستشارات كثيرة اسفرت عن اختيار عثمان (رض).

وقد اجتمعت اسباب عديدة في اختيار عثمان (رض) إذ أن المصادر تؤكد أن عبد الرحمن جعل السير على سنة الخليفتين الأولي، إضافة الى اتباع كلام الله وسنة الرسول (ص) اساس الترشيح وان عليا لم يعط جوابا ايجابيا قاطعا بل وعد بأن يجتهد في اتباع سنن سلفيه . اما عثمان فقد نعهد بذلك دون تحفظ. وتخبرنا المصادر ايضا ان عبد الرحمن استشار المهاجرين والانصار وأشراف الناس وامراء الجند ، وحاول معرفة رأى عامة الناس فوجدهم يشيرون عليه بعثمان . وكان لشيخوخته أثر ملموس في تقديمه وأن قريشا وبني أمية خاصة تعرف نفوذ بني هاشم واحترام المسلمين لمكانة آل البيت، وتخشى أن تبقى الخلافة فيهم إن اختير احدهم في حين أنها تبقى متداولة بين افخاذ قريش ما دامت في غيرهم لكن عليا (ع) بايع مع الاخرين ولم يتخلف ثم بايع عامة الناس عثمان (رض).

هناك ثلاثة امور مهمة ينبغي دراستها في فترة خلافة عثمان بن عفان (رض) أولهما مسألة الفتوحات ، وثانيهما ما يتعلق بجمع القران والثالث والاهم " الفتنة " او خروج الامصار على الخليفة .

١-الفتوحات :

لقد ترتب على انسياج الجيش العربي الاسلامي في المشرق اجراء تنظيمي يجعل مسألة الامداد والتحاق المقاتلة اكثر يسرا، لذلك قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض)بتعديل الجهد العسكري وتوزيعه بين قاعدتي الكوفة والبصرة، فاختصت الكوفة بحد الاراضي من نهاوند جنوبا الى الدينور شمالا، واختصت البصرة بحد الارضي من نهاوند الى " مهرجان قذق " جنوبا وقد استمر هذا الوضع الى نهاية العهد الراشدي حيث شكل هذان المصران مقر الادارة السياسية والعسكرية للدولة وغدا العراق قاعدة الفتوح في المشرق .

ففي الكوفة استقر اربعون الف مقاتل ، للسيطرة على البلاد التي تم فتحها في اقليم الري واذبيجان والتناوب على حفظ الثغور والقضاء على لخارجين على سلطة الدولة. اما البصرة فقد تولت فتح الاحواز وتستر والسوسى وجند يسابور ، فقد تم استكمال فتح بلاد فارس ، وامتدت الفتوحات في المشرق في هذه الفترة الى الشرق حتى الهند والى الشمال حتى حدود الترك.

كما فتح ارمينية لعل من اهم الاسباب التي دعتهم لفتح ارمينية هي تامين سلامة حدودهم بعد فتحهم للجزيرة وكذلك لتضيق الخناق على البيزنطيين ، ففي سنة ٢٥هـ احتشدت الجيوش تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهري ، وبعد مقاومة الروم استطاع العرب المسلمون ان يفتحوا عدد من المدن .

اما في الجبهة الغربية (شمال افريقيا) فقد استأنفت الجيوش العربية الاسلامية حركاتها بعد ان امتنع الخليفة الثاني الاستجابة لرغبة عمرو بن العاص الذي اراد بعد استيلائه على طرابلس

ان يغزو ما وراءها من بلاد افريقيا خشية ان تتفرق في المناطق الشاسعة ، ففي سنة ٢٧هـ سمح الخليفة عثمان (رض) لواليه عبدالله بن سعد بن ابي سراح بقيادة حملة لفتح بلاد المغرب .

لم يقتصر المسلمون في هذا العهد على الحروب البرية بل لعبوا دورا فعالا في الحروب البحرية . فالعرب بعد احتلالهم المناطق الساحلية من بلاد الشام اخذوا يفكرون بوسيلة تؤهلهم مقاومة قوة البيزنطيين البحرية التي اخذت تشكل تهديدا خطيرا لدولتهم . فعلا فقد استطاع البيزنطيون في سنوات ٢٣هـ و٢٥هـ مهاجمة الساحل الشامي وتهديد بعض المدن ومهاجمة الاسكندرية .

ومما يجدر الاشارة اليه ان العرب في الجاهلية قد ركبوا البحر وكان لهم باع طويل في ذلك، الا انه اقتصر على العرب الذين عاشوا على امتداد سواحل الخليج العربي والبحر الاحمر اذ كانوا ملاحين وادلاء بحرين من الطراز الاول حيث خبروا المنطقة وتعلموا مواسم هبوب الرياح ، لكن ركوبهم البحر كان لغرض التجارة والنقل البحري وليس للقتال .

كان اول من ركب البحر في الاسلام لغرض قتالي هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد الخليفة عمر (رض) الذي توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر الفا من المسلمين من غير اذن الخليفة ، ثم عاد المسلمون الى البصرة محملين بالغنائم ، بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها الخليج العربي ، فلما علم عمر (رض) غضب على العلاء وعزله .

فقد اصبح للمسلمين انشاء اسطول بحري فقد استعان معاوية بالسوريين في انشاء السفن في بلاد الشام ،كذلك قام عبد الله بن ابي سرح بانشاء اسطول مصر فما ان حلت سنة ٢٨هـ حتى كان للعرب المسلمين اسطول يبلغ عدد سفنه حوالي ١٧٠٠شانية، وتحولوا بذلك من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الوقائي .

الملاحظ ان هجمات الاسطول الاسلامي كانت في بداية الامر موجهة للسيطرة على جزيرة قبرص التي كانت خاضعة في ذلك الوقت الى البيزنطيين والتي كانت تعتبر قاعدة لتحركاتهم وهجماتهم . وفي سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م استطاع المسلمون من احتلالها وابقاء حامية فيها ثم قاموا بتشييد مسجد، فكان اول غزو للمسلمين في البحر .

٢-جمع النص القراني وتدوينه :

لقد كان الخليفة ابو بكر الصديق (رض) اول من جمع القران الكريم فكان عمله محل اكبار الصحابة (رض)، عبر عن ذلك علي بن ابي طالب (ع) بقوله :" أعظم الناس في المصاحف آجرا ابو بكر رحمه الله على ابي بكر هو اول من جمع كتاب الله ".

واستمر حال المصحف في ايام خلافة عمر (رض) على ما كان عليه في ايام الصديق مع مزيد من النشاط في تعليم الناس القران .

وفي ايام الخليفة عثمان (رض) اتسعت الفتوح في جهات الارض وانتشر الصحابة (رض) في الاقاليم المفتوحة هداة ومعلمين، حيث كان من سياسة عمر بن الخطاب (رض) أن يوفد علماء الصحابة الى الامصار ليعلموا الناس الاسلام والقرآن . وكان كل صحابي يعلم الناس بالحرف الذي اتقنه على رسول الله (ص) فلما كانوا يلتقون في الفتوح ويقرأون القرآن تظهر الفوارق في الاداء القرآني ، فكانت كل طائفة تزعم ان قراءتها هي الصحيحة والافضل فراع ذلك بعض الصحابة الكرام امثال حذيفة الذي قص علينا خبر ذلك فيما أخرجة البخاري .

"عن انس بن مالك ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان بغازي اهل الشام في فتح أرمينبة واذيربيجان مع اهل العراق ، فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا امير المؤمنين ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى..."

وهناك نصوص تدل على ان معلمي القرآن في المدينة الواحدة كانوا يقرئون الطلبة كل واحد بما أتقن فيختلف الطلبة وينقلون ذلك الى معلمهم فيقع شيء من التلاحي.

ومن خلال كل الاحاديث الواردة عن عمل عثمان (رض)نلاحظ الامور التالية :

١-ان الذين كانوا يقومون بهذه المهمة مباشرة لجنة مصغرة مكونة من اربعة اشخاص : زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وهؤلاء الاشخاص كانوا في الحفظ والضبط للقران والمعرفة للعربية والكتابة بمحل رفيع حيث سأل عثمان من هو اكتب الناس ومن هو اعرب الناس ، وبالتالي لا يستطيع احد أن يطعن في معرفة هذه اللجنة بما عهد اليها وكانت هذه اللجنة منبثقة من اثني عشر رجلا من اعيان المهاجرين والانصار .

٢-اعتمدت هذه اللجنة النص المكتوب في ايام ابي بكر حيث جاءت النصوص صريحة واضحة ان عثمان طلب من حفصة تلك المكتوبات .

٣-ناشد عثمان (رض) الصحابة وعزم عليهم ان يقدم كل واحد منهم ما يملكه من الصحف الخاصة له لتتم المطابقة بينها وبين ما كتب أيام ابي بكر (رض) والدافع لذلك امران اثنان ، اولهما : ان صحف ابي بكر او نسختها ستكون هي المعتمدة لدى الناس جميعا ، فيجب ان تقع الثقة بها والرضى والاطمئنان. والامر الثاني : ان الصحف الخاصة سيقع التخلي عنها فليعلموا انهم انما تخلوا عنها لما هو ادق واكثر ثقة ، وكان عثمان (رض) يستحلف كل من يقدم ورقة او قطعة من اديم على ان ما كتب بها مسموع من رسول الله (ص) ومكتوب بين يديه .

نتائج عمل اللجنة:

١- أهم عمل قامت به اللجنة، هو ازالة الشك الذي بدأ يتسرب الى بعض النفوس حول سلامة النص القرآني وضبطه .

٢–وحدت الرسم في النص القرآني لدى جميع الامصار، ولم يترك ذلك لاجتهادات الكتاب والقراء بل اصبح هؤلاء مقيدين بهذا النص الذي تحرت فيه اللجنة ان يكون مطابقا تمام المطابقة ما كتب بين يدي النبي(ص)، وان وقع خلاف فالمرجع فيه الى لغة قريش لان القرآن بها انزل ، ولم يقع اي خلاف في شيء من الرسم سوى ثلاثة احرف منها التابوت فأراد زيد أن يكتبها بالهاء فرفع الامر الى عثمان فقال اكتبوها بالتاء لأنه نزل بلغة قريش ومعنى ذلك انهم لم يختلفوا في اللفظ بل اختلفوا في الرسم الكتابي .

٣–كان لهذا الجمع فضل اقرار الجميع بأن ما عدا هذه الكلمات التي اودعت في المصحف الامام هي من قبيل التفسير الشخصي الذي كان يكتبه الصحابة الكرام او ما سمعوه من النبي (ص) على مصاحفهم الخاصة، فلو طال الزمن لكان من الممكن ان يظنها ظان من القرآن.

٤–كان من نتائج اعمال هذه اللجنة ان رتبت سور القرآن في كل المصاحف بعد أن كانت على غير ترتيب في الصحف الخاصة .

٥–بعد هذا نقول: ما موقف الصحابة (رض) من عمل عثمان ؟ والجواب على ذلك ان النصوص تضافرت وهي كثيرة تدل دلالة واضحة على رضا الصحابة جميعا عن هذا العمل وعده من مفاخر عثمان وحسناته . من ذلك قول علي (رض):" لا تقولوا في عثمان الا خيرا فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف الا على ملامنا " . ويقول ابن مهدي : خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لابي بكر ولا لعمر، صبره نفسه حتى قتل مظلوما وجمعه الناس على المصحف.

عدة مصاحف عثمان :

اختلف في عدة المصاحف التي نسخت في عهد عثمان واكثر العلماء على ان عثمان كتب اربع نسخ، وبعث الى كل ناحية واحدا، الكوفة والبصرة والشام .

ويرى ابو حاتم السجستاني ان عثمان كتب سبع نسخ، وانفذها الى الافاق، مصحفا الى مكة ومصحفا الى البصرة وآخر الى الكوفة وآخر الى الشام وآخر الى اليمن وآخر الى البحرين ، وترك عند اهل المدينة واحدا. وصحح القرطبي فيما ينقله ابن كثير ان الذي انفذه عثمان الى الافاق اربع نسخ ، ومهما يكن من خلاف فالتعداد وارد قطعا في النسخ.

الثورة على عثمان :

اختلف الكتاب في تسمية هذه الحادثة الخطيرة التي تعرضت لها الدولة الاسلامية وخاصة بعد ان اعاد اليها وحدتها الخليفة ابو بكر (رض) بعد قضائه على حروب الردة فمنهم من يسميها " الفتنة " او " الفتنة الكبرى " او " ثورة الامصار " او " ثورة القبائل " وهي عموما تعتبر من الاحداث البارزة والمهمة التي واجهها الخلفية عثمان (رض) بصورة خاصة والدولة الاسلامية بصورة رئيسية .

اذ انها اول اعتداء صريح على شخصية الخلفية الذي يعتبر نفسه خلفية رسول الله (ص) كان من نتيجة هذا الاعتداء قتل الخليفة قتله مروعة ، وهي في نفس الوقت سوف تؤدي الى سلسلة متتابعة من الانشقاقات والخلافات الداخلية بين المسلمين انفسهم . ولعل من اهم الامور التي ينبغي التأكيد عنها في هذا الجدال دراسة اسباب هذه الثورة :

١–لم يسمح الخليفة عمر (رض) لكبار رجالات قريش الخروج الى الامصار وامالاك الاراضي خشية ان يحوز هؤلاء على ثروات كبيرة نتيجة لانتصارات العرب المسلمين في الفتوحات . كان هدفه من هذا العمل هو انه خاف ان يكون هذا الثراء سببا في افساد اهالي قريش عامة وتثبيط هممهم العسكرية . الا ان عثمان (رض) قد سمح لهم بالخروج والانتشار في الامصار، إذ اصبحوا بمرور الزمن طبقة خاصة من ناحية المورد المالي ثم انها تتمتع بمزايا دينية على اعتبار ان لهم السبق في الاسلام وصحبة الرسول الكريم (ص) فتجمع حول هؤلاء الناس واخذوا يستمعون الى احاديثهم عن جهادهم الى جنب الرسول (ص)، مما ادى الى تكوين كتل يتراسها امثال اولئك الصحابة المشهورين . وتذكر الروايات التاريخية ان سعد بن العاص حينما حكم العراق شعر بهذا الخطر فكتب الى الخليفة عثمان بذلك .

ان ثراء بني امية واستئثارها بالخلافة وماتدره الفتوح مهم بحد ذاته اذ اثار من جديد احقاد القبائل العربية المختلفة ضد السيادة القريشية. انها نزعة اقليمية لعلها تطور للنزعة القبلية في الامصار ، يصحبها عدم ارتياح الاقاليم لسلطة المدينة وسيادتها ، اذ ان الموارد كانت ترسل من الامصار الى بيت المال في المدينة . وان افراد هذه القبائل انما كانوا يمثلون المادة الرئيسية للفتوحات وهم فقراء معظمهم من البدو، وفوق هذا فإن بعض عمال عثمان (رض) حرموا هؤلاء المقاتلة من الغنائم والفيء مدعين انه لله وان السواد بستان قريش في حين لم يعطوا للمقاتل الا العطاء . وزاد من التذمر عامل ركود الفتوحات في الفترة الاخيرة من حكم عثمان . فطالما كانت الغنائم تتدفق من غير انقطاع على المقاتلة عن طريق الحملات المتواصلة فانهم كانوا لا يبالون بل لا يهتمون فيما اذا وضعت الحكومة يدها على الفيء والاملاك وأراضي البلاد المفتوحة الا انه تتوقف الفتوحات اخذوا يدركون أضرار تسلط اهالي قريش واستحواذهم على خير ما في الغنيمة.

٢–وصفت السياسة الادارية للأمصار التي اعطيت من قبل الخليفة عثمان(رض)الى اقربائه بأنها سيئة ساعدت بشكل كبير على ظهور موجة كبيرة من التذمر، وأن عزل الولاة الذين سبق ان عينهم الخليفة عمر(رض) هو خروج عما ابداه عثمان من رغبة في اتباع سُنة من سبقه من الخلفاء حينما رُشح لخلافة . والمهم أن أغلب الولاة والعمال كانوا غير مرغوب فيهم من قبل المسلمين الاوائل في الأقل.

٣-تذمر بعض الصحابة من سياسة الخليفة عثمان المالية، التي هي في الواقع سياسة عمر (رض) سواء أكان ذلك في نظام الاعطيات ام في عدم تقسيم الاراضي المفتوحة بين المقاتلة، الا أن الخليفة عثمان لم يستطع لا المحافظة على التوازن المطلوب في ادارة الدولة لصالح تطبيق هذه السياسة ولا اكمالها بإيجاد نظام مالي يؤمن الاستقرار الاقتصادي بما ينسجم والمرحلة الجديدة التي افرزتها وصول الفتوحات الى حدودها الطبيعية وبالتالي الى قلة واردات المقاتلة . وأشد هؤلاء الصحابة كان اباذر الغفاري وعمار بن ياسر، والاول كان من اشد المنتقدين لسياسة عثمان (رض) وولاته وبصورة خاصة فيما يتعلق بتبذيرهم الاموال. ولم يكن هذا التذمر الا تجاهلا للتطور الذي حصل في المجتمع وحملة على تفشي الترف وتبدل معيشة الناس، ولكن اللوم وجه الى الخليفة في حين ان الاوضاع العامة تبدلت وذهبت القلة السائدة في بدء الحركة الاسلامية.

٤-وقد أثارت سياسة عثمان (رض) في جمع القرآن غضب بعض المسلمين في الامصار، وممن لم يفهموا الامر على وجهه الصحيح ، لاسيما حينما امر بحرق بقية المصاحف التي كانت عند بعض القراء من الصحابة، ولاسيما عندما رأوا في بادئ الامر معارضة من بعض القراء الذين تراجعوا فيما بعد عندما وجدوا ان المصلحة فيما فعله عثمان (رض) كعبد الله بن مسعود اذ وجدوا مع الصحابة الاخرين ان جمع القرآن كان خطوة دينية سياسية كبيرة يقتضيها حفظ الدين وتحقيق الوحدة.

واذا كان البعض ابدى المعاضة عن حسن نية، فلا شك أن بعض مثيري الفتنة اتخذوا من فعل عثمان (رض) غرضا. فهاجموه وأظهروا الحرص على القراءات التي كان يقرأ بها أهل الامصار، والحقيقة انهم كانوا ينطلقون من النزعة الذاتية والتعصب الاقليمي ، ولأن الخليفة جمع الناس على مصحف واحد إمام .

ولاتساع الدولة اثره فقد بدأت الدولة تواجه بعض المشكلات الاجتماعية والسياسية ، إذ اخذت تفقد تدريجيا التجانس الذي كان سائد من قبل في رعيتها، فلم يكن كل من اعتنق الاسلام من الرعايا الجدد مخلصا في تدينه او في الاقل متفهما رسالة هذا الدين واحكامه ومستوعبا أصول الدولة الجديدة ومفاهيمها وانتشر أصحابه في الامصار فصعب عليهم الالتحاق بمركز الدولة لتبادل المشورة اذا لزم الامر، كذلك لم يستطع المسلمون في تلك الامصار المتباعدة متابعة ما يجري في عاصمة الخلافة والوقوف على وجه الحق فيها وبالمقابل لم يستطع القائمون بالأمر في العاصمة متابعة رعاياها بالأمصار والوقوف على احوالهم وتوجيههم الى الاصلح والى مراقبة مواقفهم تجاه ولاتهم وبالنسبة لإجراءات الولاة وسياستهم .وتعذر في تلك الظروف للدولة المترامية الاطراف التي تحتضن مختلف النزعات ان تتعامل مع القضايا بالنقاش الهادئ وتبادل الرأي للوصول الى الهدف الافضل الذي يضمن خير الرعية وحقوق الدولة ويصون الدين .فتطايرت

الشائعات وانبثقت الفتن والتبس الحق بالباطل، وضاعت الحقيقة بين التزييف المغرض وقصور المعرفة بما يدور فعلا او بما ينبغي ان يتخذ لحسم الموقف واستئصال الداء .فالفتنة اخذت طريقها خلال الثغرات التي اخذت تظهر خلال تلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخطيرة والمؤثرة التي شهدها المجتمع الاسلامي ودولته

ادت هذه العوامل وغيرها الى اشعال نيران الفتنة في نفوس بعض افراد القبائل العربية التي سكنت الامصار في موسم الحج سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م فخرجت وفود من عرب الكوفة والبصرة ومصر الى المدينة يظهرون الحج، ويروي الطبري ان عددهم بلغ ما بين ٦٠٠الى ١٠٠٠ وهناك من يضاعف هذا العدد على اختلاف الروايات وفي بادئ الامر فاوضهم الخليفة ووعدهم بالنظر في مطالبهم .

وبعد ان كان اتفاق هذه الوفود على خلع الخليفة قبلوا ما وعدهم قبلوا ما وعدهم ورجعوا الى امصارهم ، غير ان هناك حادثين مهمين قلبا هذا الوضع رأسا على عقب، اولهما هو ان الخليفة عثمان (رض) خطب الناس بعد خروج الوفود من المدينة قال في الخطبة ان هؤلاء اعترفوا له بأن ما وصل اسماعهم عنه باطل ولا صحة فيه. والحادث الآخر هو قصة الكتاب الذي زُوّر على عثمان وأرسل الى عامل مصر يطلب فيه حبسهم وتعذيبهم فرجعوا ثانية الى المدينة يجابهوا الخليفة بأمر الكتاب الا انه انكره، ولكنهم استمروا في محاصرة بيته وخيروه بين ان يعزل الولاة او يخلع نفسه والا فإنهم سيقتلونه، وبرفضه الاستجابة لاي من المطلبين الاولين لقي عثمان (رض)، حتفة بعد حصار دام اكثر من اربعين يوما بعد ان منعوا عنه الماء والطعام . كان ذلك في نهاية شهر ذي الحجة سنة ٣٥هـ ٦٥٦م وكان عمره اثنين وثمانين سنة فكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة .

ان من اهم النتائج التي جاءت على اعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان (رض) تفكك الوحدة السياسية وزعزعة الجماعة ثم انقسامها من ناحية، والى مساعدة التيار القبلي الذي ضمر الى حد ما زمن الخليفتين الاول والثاني الى أن يظهر من جديد وبشكل قوي ادى بالنهاية الى تقويض التيار الاسلامي وافساح المجال امام آل أمية الذين كانوا يمثلون التيار القبلي خير تمثيل . ولعل من المفيد ان نذكر قول دي غويه في هذه الحادثة الخطيرة " ان الذين ثاروا على عثمان وقتلوه هم انفسهم الذين اغتالوا عليا".

والخلاصة ان الثورة على عثمان (رض) ناتجة بالدرجة الاولى عن اوضاع ورثها عثمان ولم يكن من صنع يده، ولكن عثمان لم يستطع تغييرها. لقد ورث الاتجاهات القبلية الصاخبة في المجتمع وورث الاتجاه الاسلامي وصراعه مع الاتجاه القبلي وهذان التياران الرئيسيان كانا المحرك الاول للتطور كما ورث تأثيرات الفتوحات، والنظام المالي وتطور الامة وتبدل ظروفها.

المحاضرة الثامنة

خلافة علي بن ابي طالب علية السلام

وعلي هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي ، ويكنى أبو الحسن، واسم أبي طالب، عبد مناف ، وكان يقال لعبد المطلب شيبه الحمد لشيبة كانت في رأسه ، وكنيته أبو البطحاء ، لأنهم استقوا به فكنوه بذلك ، واسم هاشم عمرو أو عمرو العلا ، واسم عبد مناف المغيرة ، واسم قصي زيد.

المهم في الفترة التي اعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رض) من سيتولى منصب الخلافة وكيف يتم انتخابه، ومن بقي من اهل الشورى اربع فقط احدهم سعد بن ابي وقاص وقد اعتزل ، اضافة الى طلحة والزبير وعلي نفسه، ونحن نعرف ان المرشح الوحيد المنافس لعثمان كان عليا. وعلى هذا توجهت انظار الوفود الخارجة من القبائل اليه، مع العلم بأنهم لم يتفقوا في بداية الامر . إذ أن أهالي مصر أرادوا عليا واعراب البصرة أيدوا طلحة ؟، بينما ايد اعراب الكوفة الزبير ، واخيرا اتفقت الاغلبية على الامام على (ع). ولقد اعتادت القبائل ان ترى الخليفة من قريش ولم يكن في قريش من يتمتع بمثل نفوذ علي(ع) ، او بمثل منزلته الاجتماعية لسابقته في الاسلام ومصاهرته الرسول(ص) وعلمه وفضله وبلائه في سبيل الاسلام ونشر كلمته، ولأنه أميز الصحابة الموجودين .

ومن البديهي ان يرفض الامام علي (ع) مثل هذا التعيين لأنه كان زاهدا بالخلافة " لا حاجة لي في امركم فمن اخترتم رضيت به" وتحت الحاح الصحابة في المدينة من الانصار والهاشمين ورجال القبائل الذين وطئوا المدينة وخوفه من الفتنة في الداخل وما يحيق بالدولة من خطر في الخارج نزل علي (ع) عند هذه الرغبة وقبل البيعة في أواخر شهر ذي الحجة من سنة ٣٥هـ. وقد وردت مبايعة الامصار جميعا ما عدا الشام ، كما امتنع عن المبايعة بعض الصحابة.

وكانت الخطوة الاولى التي خطاها علي(ع) عزل ولاة عثمان ، إذ أراد بها معالجة أسباب النقمة التي كانت وراء قتل الخليفة عثمان (رض) ومحاولة منه تهدئة الخواطر علما بأن هؤلاء الولاة كانوا في موضع غير مرغوب فيه من قبل العرب في الامصار . كما أراد أن يولي بدلهم عمالا يوافقونه على نهجه في الخلافة وهو على ما سبق نهج يوافق طبعه في الزهد ، ليرجع بالناس الى مثل ماكانوا عليه في خلافتي أبي بكر وعمر (رض) ولا تجرهم الدنيا الى ما جرتهم اليه من الفتنه التي انتهت بقتل عثمان. فالأوضاع تتطلب هذه الخطوة وتقاليد الخلافة تؤيد ذلك.

ولما أراد تغيير العمال عمد الى الذين اشتهروا بحسن السيرة والعدل، كما تجنب من خرج على عثمان ولو كانوا ممن أظهر التشيع له، وكان بهذا عدلا بين الفريقين : فريق عمال عثمان ، وفريق الذين خرجوا عليه وهذه سياسة واعية تدفع عنها الشبهات وتقتل ما في النفوس المريضة .

ولكن تبديل الولاة هل يكفي لاقرار الوضع لا سيما وان الفتوح ركدت والاعراب استقروا في معسكراتهم واخذوا يناقشون في مسائل عديدة اهمها الغنائم وتحويلها الى المدينة ، وكذلك ثراء اولئك الذين كانوا من الفطنة بمكان بحيث استطاعوا استثمار اموالهم في التجارة وشراء الاراضي.... وكنتيجة لمثل هذه التطورات يمكن ان نلمس بعض الامور البارزة التي وقعت في عهد خلافة علي (ع) واهم هذه الملامح :

اولا: تحول مركز الخلافة :

إن الاتجاه الذي سار عليه عليّ (ع) يقتضي البقاء في المدينة معقل الاتجاه الاسلامي والتمسك بتقاليدها . ولكن قوة المدينة قد تضعضعت، كما ان نفوذ التيار القبلي كان قد امتد اليها مؤقتا بوجود رجال الامصار فيها اضافة الى اتساع الفتوح الاسلامية ، فلم تعد مكانا ملائما كمركز للسلطة الحاكمة وان الفتنة على عثمان (رض) قادها جماعة من الامصار ولم يلعب اهل المدينة اي دور واضح في هذه الحادثة . فعلى الخليفة الجديد ان يفكر في نقل مركز الثقل الى الجهة الفعالة والتي كانت المكان الذي زرع في نفوس القبائل فكرة التذمر والاستياء، والواقع ان البصرة والكوفة قد شاركتا مشاركة فعالة في هذا المجال . ووقع اختيار الخليفة على الكوفة لوجود الرجال والمال هناك حيث كانت القاعدة الثانية للجيوش العربية الاسلامية في جبهة المشرق خاصة بعد ان اتخذ طلحة والزبير وعائشة بعد خروجهم عليه، البصرة القاعدة الاولى مقرا لثورتهم . كما ان رجال العراق تدفعهم النزعة الاقليمية والاتجاه القبلي اثروا فيه ليتخذ تلك الخطوة وبذلك تخلى عن مركز التيار الاسلامي وبهذا التخلي انتقل دور الزعامة السياسية من الحجاز بشكل عام ومن المدينة بشكل خاص الى الامصار .

وقد تحرج عليّ(ع) في العراق فهناك كانت التقاليد القبلية وما يصحبها من اتجاهات وحزازات قوية . فالكوفة قبلية حتى في تخطيطها وتوزيع سكانها وقبائلها محافظة على التقاليد البدوية ولم تختلط بالشعوب الاخرى ولم تتأثر بالتقاليد الحضرية بعد ، ولا تفهم فكرة الدولة الا بالمعنى الديني . ولكن الامام عليا(ع) سار في الكوفة وفق الاتجاهات الاسلامية ، وكان لايناسب الكوفيين الذين يفكرون بمصلحتهم ومصلحة اقليمهم ويريدون الاستئثار لذلك نجد اتجاهة يصطدم باتجاههم في كل ازمة .

ثانيا: اجتماع كل من طلحة والزبير وعائشة وخروجهم على الخليفة :

ومع ان هناك دافعا واحدا في الظاهر جمع هذه الاطراف الثلاثة الى التكتل الا وهو المطالبة بدم عثمان ، الا انهم في حقيقة أمرهم يختلفون في نزعاتهم وأهدافهم الخاصة، مثلا ان طلحة او الزبير من الشخصيات المرشحة للخلافة وكلاهما من صحابة النبي (ص) وأن عليا(ع) لم يحقق اهدافهما في توليتهما على الكوفة والبصرة فخرجا الى مكة مدعيين انهما ذاهبان اليها لأداء العمرة وقد أذن عليّ(ع) لهما بالرغم من علمه باستعداد كل منهما بنقض البيعة له والخروج عليه.

اما عائشة (زوجة الرسول "ص") فعادت الى مكة بعد سماعها بمقتل الخليفة عثمان (رض) حيث كانت في طريقها الى المدينة ونزلت المسجد الحرام تحرض الناس ضد قتلة عثمان ، وهناك التف حولها كل المعارضين لبيعة عليّ(ع) علما بانها كانت تنتقد عثمان كثيرا على سياسته وسياسة ولاته ولكنها في الوقت نفسه لم تؤيد بيعة عليّ(ع). خرج هؤلاء الى العراق لوجود عدد من المؤيدين خاصة في البصرة وانضم اليهم عدد من شخصيات بني أمية مثل مروان بن الحكم وعبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة كما انضم اليهم يعلي بن منية والي عثمان على اليمن والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص ، وبعد مناوشات بسيطة مع عثمان بن حنيف والي عليّ(ع) على البصرة فتحت المدينة وهزم جيش عثمان الذي وقع في الاسر ثم اطلق سراحة ليلتحق بجيش الخليفة عليّ(ع) لدى وصوله ذي قار وعلى اثر هذه التطورات خرج الخليفة من المدينة الى العراق باتجاه البصرة وقبل وصولها انضم اليه ابنه الحسن وعمار بن ياسر على رأس جيش الكوفة. وسبق المعركة مفاوضات بين الطرفين لاحتواء الموقف ومحاولة الوصول الى ما يجنب الطرفين القتال، وعندما ادرك الجانبان عدم جدوى المفاوضات وقعت معركة قتل فيها طلحة وابنه محمد والزبير وعدد كبير من المسلمين قدروا بعشرة الآف مسلم .سميت هذه المعركة بمعركة " الجمل " نسبة الى جمل عائشة الذي دار حولة القتال . وبعد انتصار عليّ(ع) بايعته مدينة البصرة فخرج منها قاصدا الكوفة بعد ان عين عبد الله بن عباس واليا عليها ، كما امر باطلاق سراح الكثيرين من وجوه بني امية وغيرهم بعد ان اعلنوا مبايعتهم له امثال مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص ، اما عائشة فقد فضل عليّ(ع) عودتها الى المدينة بعد ان عرضت عليه بالمسير معه لقتال عدوه على ما ذكرته بعض الروايات .

وتعتبر معركة الجمل التي حدثت سنة ٣٦هـ اول معركة بإطارها الواسع تنشب بين فئتين مسلمتين ذهب ضحيتها كثير من معتنقي هذا الدين ووجوهه، بعضهم من صحابة الرسول(ص)، ولا ريب ان هذه المعركة ونتائجها التي اعتبرها الكثير فاتحة الحروب الاهلية في الاسلام في سبيل مسألة الخلافة ، سيكون لها اثر في اثارة النقاشات حول من هو المسؤول عن هذه الحرب ؟ ومن غير أدنى شك ان رد فعل فاجعة مقتل خليفة المسلمين هو المسؤول قبل كل شيء عن

هذه الحرب لان هذه الحادثة كانت من الخطورة والسابقة السيئة بحيث زعزعت الصفوف ، واطارت الافئدة .

ثالثا: خروج معاوية على سلطة الخليفة الشرعي :

كان معاوية بن ابي سفيان يتولى بلاد الشام منذ خلافة عمر بن الخطاب (رض) واستطاع خلال هذه الفترة الطويلة من بقائه واليا على هذه المنطقة والتي تزيد على العشرين عاما، انه يركز جميع السلطات في يده وقام بإصلاحات عدة أرضت أهالي الشام، فضلا عن قيادة الدولة في المدينة قد منحت هذا المصر اهتماما خاصا منذ تحريره إذ أصبح قاعدة كبيرة للجيوش العربية الاسلامية ، تجاور وتقف امام الدولة البيزنطية التي لم تزال تعتبر المتحدي الاكبر لهذه الدولة ولموقعه ايضا اصبح القاعدة البحرية للأسطول العربي الاسلامي وهذا مما زاد في قوة موقف معاوية وهو من قرابة الخليفة عثمان، وان الاخير في ايامه الاخيرة كان ينتظر مساعدة عسكرية من بلاد الشام ضد زعماء الفتنة. وبهذا فان المطالبة بدم عثمان (رض) صار شعار معاوية الرئيسي الذي مهد له الانفصال عن السلطة المركزية . لكنه لم يكن جادا في مطالبته به، فقد اتخذ المطالبة بدم عثمان وسيلة لا غاية . وسيلة للوصول الى طموحاته السياسية فهو ابن ابي سفيان بن حرب رئيس قريش قبل الاسلام وهو "أبعد الأمراء بالولايات عهدا وأقواهم جندا وأملكهم لقلب الرعية" فهناك الكثيرون من يرددون هذه النغمة وان التفافهم حوله إنما يدل على قوة الاتجاه القبلي بل قل الاقليمي ومؤاتاة الظروف لذلك .

ولأهل الشام موقفهم الخاص في إثارة وتشجيع معاوية على الخروج على الخليفة عليّ(ع) يقول الواقدي : ان معاوية لم يثر غيره على عليّ(ع) بمقدار ما أثار غيره عليه. ففي الشعر الذي انتهى الينا يلومه ابن عمه الوليد بن عقبة على تبادله الرسائل مع عليّ(ع) ، وعلى أنه وهو من اقربائه (عثمان)، لم ينهض للقيام بواجب الثأر ، وقد كان بطبعه سياسيا ، وكان أقل ما يمكن تحمسا الى القتال مع اهل العراق، فقد كان في الوقت نفسه مهددا من قبل الروم ومن قبل أهل مصر الذين كانوا من مؤيدين عليّ(ع).

والطبري يضعنا أمام رواية اخرى تشير الى ما كان يطمح ويخطط اليه معاوية حينما يذكر : وما كان معاوية يطمح بالخلافة ، بل كان طموحه الاول إنما هو أن يحتفظ على أقل تقدير بولاية الشام ، وأن يمتلك مصر التي ما كان يجسر على التخلي عنها لمنافسيه وهو عازم على حماية مؤخرته..... وقد حثه عمرو بن العاص على ذلك، وكان عمرو قبل ذلك يعتبر العصيان على عثمان وسيلة لغاية يستهدفها، متخذا كل ما قدر عليه ليعود الى ولايته السابقة. وبعد قتل الخليفة تعاقد مع معاوية بحلف بعيد النظر ، يبغي به الوصول الى تلك الغاية .

إن أمام خروج معاوية على السلطة المركزية ، ومحاولة لصق قتل عثمان بالخليفة الجديد وإحراج موقفه عن طريق مطالبته بتسليم قتلة الخليفة الشهيد، فإن الخيار لم يعد أمام عليّ(ع) إلا

بتجهيز الجيوش والخروج اليه بعد أن استتب له أمر العراق بعد موقعة الجمل . وقد سبق الاقتتال الفعلي بين الطرفين مفاوضات ومشاورات عن طريق سفراء من عليّ(ع) الى معاوية يطلب منه المبايعة ومن معاوية الى عليّ(ع) يطالبه بثأر عثمان .

والملاحظ على هذه المفاوضات انها أخذت وقتا طويلا وتأجلت مرات عديده ويمكن ارجاع ذلك الى عدة نواح منها محاولة احتواء النزاع والقضاء على الفتنة ولكون الجيشين يرجعان الى حد بعيد الى أفراد القبائل نفسها ، والاهم من ذلك الدور الذي كان يلعبه حفظة القرآن والاتقياء لدى الجانبين لاحلال السلام وكفاية المؤمنين شر القتال .

ومن البديهي ان تفشل المفاوضات لاختلاف النزعات والدوافع، فكانت على إثر ذلك موقعة " صفين " التي كانت نتائجها الاولى الى جانب الخليفة عليّ(ع) الا ان للخدعة التي أوحى بتطبيقها عمرو بن العاص في رفع المصاحف بالغ الاثر في تغييرها الى صالح معاوية . اذ حدث انشقاق في صفوف مؤيدي الخليفة على مسألة رفع المصاحف التي يقصد منها الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه في التحكيم من اجل حل النزاع . ولقد وصف طه حسين الاوضاع السياسية التي أحاطت بمعركة صفين وقال بانها كانت بجانب معاوية (إن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم الى آل سفيان وتثبيتها في بني أمية ، فلما كانت البيعة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهدا وأقواهم جندا وأملكهم لقلب الرعية). ويرى فلها وزن أن عرب سوريا كانوا أكثر العرب تفهما للنظام اعتادوا ذلك عندما كانوا تحت حكم الرومان وكان بحد ذاته من العوامل المساعدة لنجاح معاوية .

دفع العراقيون عليا لقبول التحكيم كرها بعد أن أثرت فيهم الصيحة الاقليمية التي نادى بها أهل الشام (من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق) بالرغم من الانتصار الذي حققه مالك الاشتر على جند معاوية وبالرغم من تحذير عليّ(ع) لهم بأن عملية رفع المصاحف ما هي إلا خديعة ومراوغة لكسب الوقت ولأحداث الفرقة بينهم بعد أن أصبح النصر قاب قوسين أو أدنى .

ثم فرضوا عليه ابا موسى الاشعري ليمثله حين اتفق الطرفان على اختيار ممثلين ليقوموا بالتحكيم ولم يكن ابو موسى من الموالين لعليّ(ع) حيث قال لهم فيه : (قد عصيتموني في أول هذا الامر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى الاشعري ، هو ليس بثقة، قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم إنه هرب حتى آمنته بعد أشهر)، كان عليّ(ع) قد اختار عبد الله بن عباس إلا أن انصار التحكيم الذين هددوا الخليفة بالقتل كما فعلوا بسلفه عثمان (رض) رفضوا ذلك لقرابته من عليّ(ع) ولأنه من قريش وبشكل أوضح لأنه مضري وان الاشعري من اليمن (والله لأن يحكما ببعض ما نكره واحدهما من اهل اليمن أحب الينا من ان يكون بعض ما

نجد في حكمهما وهما مضريان) وحين رشح بدلا منه مالك الاشتر زادوا من عنادهم وتمسكهم بأبي موسى الاشعري .

عقد الحكمان اجتماعهما في " أذرح" بين العراق وسوريا، غير ان المصادر التاريخية لم تترك لنا الكثير عن الحقيقة ما دار في الاجتماع علاوة على اختلافها فيما أوردته ولكن المتفق عليه هو ان الحكمين قد اتفقا على خلع كل من عليّ(ع) ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا خليفة حيث بدأ موسى الاشعري بخلع عليا ومعاوية ، في حين ثبت عمرو معاوية بعد أن خلع عليا. ومهما يكن من امر فإن قرار التحكيم لم يكن في صالح عليّ(ع) بأي شكل من الاشكال، فضلا عن تفويت الفرصة لحسم المعركة التي كانت في جانبه والفرقة التي دبت بين جنده وقادته وما ستجره عليه في المستقبل ، فإن مجرد قبوله التحكيم قد وضع نفسه على قدم المساواة مع وال في حين أنه خليفة المسلمين الشرعي المنتخب وفق القواعد الاسلامية المتبعة في انتخاب اي خليفة .

إن أهمية معركة صفين التي وقعت في سنة ٣٧هـ تكمن في أنها تمثل الصراع بين التيارين الاسلامي والقبلي أحسن تمثيل وانتصار الاخير كما ان عوامل نشوب هذه المعركة متعددة ومتشابكة ، فهي معركة بين شخصين انتقلت بعدها الى بيتين من اهم بيوت قريش، كما انها معركة بين امصار مختلفة ، بين الكوفة عاصمة الدولة العربية الاسلامية والخليفة الشرعي ، بين دمشق مقر معاوية والذي سيصبح اول خلفاء بني أمية، وبين اهالي العراق وبالآخص الكوفيين شيعة عليّ(ع) وبين اهالي الشام ، شيعة معاوية ، حتى نجد أن القراء الأربعة الآف قد انقسموا هم ايضا على المعسكرين المتنازعين .

رابعا : الخـوارج :

وهم تلك الفئة التي خرجت من بين انصار الخليفة عليّ(ع) وهو عائد من صفين حيث خالفته في قبول التحكيم ، فكان ذلك أول ظهور الخوارج . وسواد هذه الفئة من العرب البدو الذين نزحوا الى الكوفة والبصرة بعد الفتوح الاولى. ولم يكن بين الخوارج الاوائل قراء.

والخوارج هو الاسم الغالب على هذه الفرقة وهو من الخروج في سبيل الله كما جاء في قوله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله). او قد اشتق من الفعل (خرج) لانهم خرجوا على عليّ(ع) بعد ان كانوا ضمن اتباعه. وهم يطلقون على انفسهم (الشراة)أي الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى: (ومن الناس من يشتري نفسه إبتغاء مرضاة الله). كما يطلق عليهم (الحرورية)نسبة الى حروراء وهي قرية قريبة من الكوفة نزلوا بها اثر عودة عليّ(ع) وجيشه من صفين ولم يريدوا ان يدخلوا الكوفة ، ومن الاسماء التي تطلق عليهم ايضا (المحكّمه) اي الذين يقولون (لا حكم الا لله).

كانت معارضتهم لعليّ (ع)في بداية المر مقتصرة على الحرب الكلامية، ولما صاحوا صيحتهم المشهورة محتجين على التحكيم " لا حكم الا لله " قال امير المؤمنين عليّ(ع) : (كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم الا الله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة الا لله ، وانه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر) . ثم صعدوا من حملتهم هذه حيث كفروا عليا وقالوا" إنه محا عن نفسه إمرة المؤمنين " لمجرد قبوله التحكيم . الا انهم بدأوا يشكلون خطرا على الخليفة ، لا سيما وأنهم بايعوا زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي خليفة. وبعد اعتدائهم على احد الصحابة جهز عليّ(ع) جيشا سنة ٣٨هـ وسار اليهم وبعد أن استأمن عدد منهم واقعهم في معركة فاصلة هي معركة " النهروان " التي انتهت بمقتل خليفتهم الراسبي ومعظم اتباعه. الا ان هذه المعركة المبكرة لم تحد من ثوراتهم التي اخذت تتزايد فخرج احدهم في الانبار ، واخر في المدائن ، وثالث في الكوفة ، وكلما مر الوقت وازداد الضغط عليهم انتشروا في مناطق بعد وأوسع فوصلوا الى عُمان والى مكران وسجستان وآخرون الى الجزيرة واليمن .

الواقع أن نشأة الخوارج سياسة وقد ظلت أفكارهم سياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان وكان هؤلاء يعتقدون بأن الخلافة حق لكل عربي حرّ ومنهم من أدخل على هذه الفكرة بعض التعديل بعد دخول الموالي في الحركة ، فاشترط " الاسلام والعدل " بدل " العروبة والحرية ".

إن هذه الظروف التي حاقت بعليّ(ع) لم تكن بعيدة عن اسماع معاوية وانصاره وبهذا قال (وكان عليّ في أخبث جند وأشدهم خلافا ، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافا) لذا نراه يتحرك بسرعة ودهاء لتوسيع دائرة نفوذه فيسيطر على مصر بعد ان جرد لها حملة بقيادة عمرو بن العاص قدرت قواتها بستة الآف مقاتل مستفيدا من وضعها الداخلي حيث كاتب زعماء " العثمانية " هناك فكانت رأسي جسر لعمرو وقواته وبذلك تحقق لمعاوية سنة ٣٨هـ من حماية مؤخرته والسيطرة على اهم مصر تميز بموارده المختلفة وموقعة الهام .فعين عمرا أميرا على مصر وبذلك حقق له حلمه الذي من أجله انضم اليه .

إن احتلال مصر بهذه السرعة شجع معاوية أن يفتح قواته باتجاهات مختلفة ومهمة الغرض منها احراج موقف الخليفة في العراق وتشتيت جهوده بل الى كشف عجز قوات الدولة عن مجاراة قوته المتصاعدة التي لم تلبث أن سيطرت على الحجاز واليمن والجزيرة لتنضم الى الشام ومصر .

أما الخوارج الذين قد أعماهم التعصب يكتفوا بتكفير الخليفة عليّ(ع) بل قادهم الى التآمر عليه واستباحة دمه، فقد اجتمع ثلاثة منهم : عبد الرحمن بم ملجم المرادي والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن بكر التميميان واتفقوا على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص لانهم يرون انهم سبب الفتنة وحددوا السابع عشر من رمضان سنة اربعين من الهجرة موعدا لتنفيذ مؤامرتهم . فلما خرج عليّ(ع) لصلاة الصبح هجم عليه ابن ملجم يصطحبه اثنان من الخوارج (شبيب بن نجده

الاشجعي ومجاشع بن وردان بن علقمة)فاصاب بسيفه منه مقتلا. ونفذ الحسن بن عليّ وصية ابيه قبل وفاته إن هو مات أن يضرب ابن ملجم ضربة بضربة ولا يمثّلن به مسترشدا بالحديث الشريف (إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور). أما الآخران اللذان تعهدا بقتل معاوية وعمرو فقد لقيا مصرعهما بعد أن أخفقا في تنفيذ مهمتهما . ومن الجدير بالذكر أن عليا (ع) وهو على فراش الموت قد أثبت وبشكل عملي زهده في الحكم وتمسكه بقواعد الاسلام حينما سأله أصحابه أن يبايعوا أبنه الحسن فأجابهم (لا آمركم ولا أنهاكم) فقد ترك الامر شورى بينهم كما تركه من قبله من هو خير منه رسول الله (ص).

الحسن بن علي بن أبي طالب.. خامس الخلفاء الراشدين:

في إطار مشروعنا المتواصل في الوقوف على أهم المعالم والمحطات التاريخية لأمتنا المجيدة، كان لا بد من الحديث عن شخصية وعصر أغفل دراسته الباحثون، وتغافل عن سيرته القراء من أبناء الأمة، وهو سيرة وعصر الخليفة الراشدي الخامس الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. إن القارئ ليستغرب من ضعف الحديث عن سيرة وأعمال الخليفة الخامس الحسن بن علي في ذاكرة الأمة، كما أنه يتعجب من اختزال فقهه، ومشروعه الإصلاحي العظيم في ثقافتنا. فنهضة الشعوب من عوامل نجاحها الالتفات إلى ماضيها لخدمة حاضرها واستشراف مستقبلها، فالتاريخ . كما هو معروف . ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها ومعارفها، وهو عقلها الظاهر والباطن وخزانة قيمها ومآثرها، وأساس شخصيتها الغائرة في القدم والممتدة مع الزمن، وله (صلى الله عليه وسلم) سيرة لما تستكشف أعماقها، ولخلفائه الراشدين تاريخ حافل عظيم، ولأمته تاريخ يزهو على تاريخ الأمم والشعوب والدول. الحسن بن علي بن أبي طالب هو حفيد رسول الله وسبطه، وهو الرجل الذي عُرف في تاريخ الأمة بأنه رجل الإصلاح الذي صان عُرى دولة الإسلام وحفظ دماء المسلمين من أن تسفك بتنازله عن الخلافة الراشدة لمعاوية بن أبي سفيان . فلِمَ سُمي بالخليفة الراشدي الخامس؟ وما أدلة تلك التسمية؟ وما مشروعه الإصلاحي الذي أنجزه خلال أشهر حكمه؟

الحسن بن علي.. خامس الخلفاء الراشدين:

إن أهل السنة يعتقدون أن خلافة الحسن كانت خلافة حقة، وأنها جزء مكمل لخلافة النبوة التي أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) والتي مدتها ثلاثون سنة

بويع الحسن بن علي أميرًا للمؤمنين من عامة المسلمين بعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه، وتعد خلافة الحسن بن علي خلافة راشدة حقة، لأن مدته في الحكم كانت تتمة لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه

وسلم): «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك». وقد علق ابنُ كثير على هذا الحديث، فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول في سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا، وبذلك يكون الحسن خامس الخلفاء الراشدين. وعند الإمام أحمد من حديث سفينة أيضًا بلفظ: «الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك الملك»، وعند أبي داود بلفظ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء . أو ملكه من يشاء»، ولم يكن في الثلاثين بعده (صلى الله عليه وسلم) إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن، وقد قرر جمع من أهل العلم عند شرحهم لقوله (صلى الله عليه وسلم): «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة»، أن الأشهر التي تولى فيها الحسن بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها، وهذه بعض أقوال أهل العلم: وكما قال القاضي عياض رحمه الله: لم يكن في الثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة، والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي، والمراد في حديث: الخلافة ثلاثون سنة: خلافة النبوة، فقد جاء مفسراً في بعض الروايات: خلافة النبوة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا. وقال ابنُ أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر. في حين قال ابن كثير: والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في دلائل النبوة من طريق سفينة مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي. وذكر ابن حجر الهيثمي: هو آخر الخلفاء الراشدين بنص جده (صلى الله عليه وسلم)، ولي الخلافة بعد مقتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة فأقام بها ستة أشهر وأياماً، خليفة حق وإمام عدل وصدق تحقيقاً لما أخبر به جده الصادق المصدوق بقوله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»، فإن تلك الستة أشهر هي المكملة لتلك الثلاثين، فهذه بعض أقوال أهل العلم في كون الحسن أحد الخلفاء الراشدين. وبالتالي فإن أهل السنة يعتقدون أن خلافة الحسن كانت خلافة حقة، وأنها جزء مكمل لخلافة النبوة التي أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) والتي مدتها ثلاثون سنة.

الحسن ومشروعه الإصلاحي

بويع الحسن عليه السلام بيعة عامة، وبايعه الأمراء الذين كانوا مع والده، وكل الناس الذين بايعوا لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وباشر سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمّر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مئة مئة فاكتسب بذلك رضاءهم، وكان في وسعه أن يخوض حربًا لا هوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية السياسة والعسكرية والأخلاقية، والدينية تساعد على ذلك، مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد

بن عبادة، وحاتم بن عدي الطائي وغيرهم من قادة المسلمين الذين لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير. تُعملنا سيرة الحسن بن علي ومنهجه السليم في إدارة شؤون وأحوال الأمة أدب الاختلاف والتضحية بالمنصب والمال والنفس والتواضع والحوار للحفاظ على دماء وبلاد المسلمين وكان الحسن رضي الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل، وبواعث، وتغلب على العوائق، وكتبت فيها شروط، وترتبت عليها نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن بن علي رضي الله عنهما على مر العصور وتوالي الأزمان، حتى قال الدكتور خالد الغيث حفظه الله: كان الحسن رضوان الله عليه في صلحه مع معاوية ، وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في الردة. ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعد علمًا من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) على المنبر، والحسن بن علي على جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». إن صلح الحسن مع معاوية من الأحداث العظام في تاريخ الأمة الإسلامية. فسيرته من أقوى مصادر الإيمان والعاطفة الإسلامية الصحيحة والفهم السليم لهذا الدين، لذلك نتعلم من سيرته فقه الخلاف، والمصالح والمفاسد، ومقاصد الشريعة، والاستعلاء على حظوظ النفوس، وكيف نعيش مع القران الكريم، ونهتدي بهديه، ونقتدي برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويعمق في قلوبنا فقه القدوم على الله من خلال أقواله وأفعاله، وأثر هذه العلوم في حياة الأمة، ونهوضها وقيامها بدورها الحضاري المنشود. في الحقيقة إن ما تُعلمنا سيرة الحسن بن علي(ع) ومنهجه السليم في إدارة شؤون وأحوال الأمة هو أدب الاختلاف والتضحية بالمنصب والمال والنفس والتواضع والحوار للحفاظ على دماء وبلاد المسلمين، وسيرته من أهم الدروس والعِبر التي تعتبر رسالة واضحة لأبناء الأمة المتنازعين على مناصب وأموال والمتخاصمين خصومات لا تغني ولا تسمن في الدنيا والآخرة. وكما تُعلِمنا سيرة الحسن (ع) الحالة الطبيعية للانتقال السلمي للسلطة والممارسة السياسية والأمنية والدبلوماسية في تولي أمور المسلمين وأحوالهم.

المحاضرة التاسعة

الحضارة العربية الإسلامية في عصر الرسول و الخلفاء الراشدين

تعريف الحضارة :

هي نتاج الشعوب والأمم في كافة المجالات السياسية و الإدارية و الاقتصادية والاجتماعية و الفكرية و الفنية و الأخلاقية والعمرانية ، بما يخدم تطور الإنسانية ورقيها .

تعريف الحضارة العربية الإسلامية :

هي نتاج الأمة العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل في المجالات كافة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية والأخلاقية والعمرانية ، بما يخدم تطور الإنسانية ورقيها ، وسميت بالحضارة العربية الإسلامية لكون لغتها عربية من جهة ، ولأن الإسلام وقيمه كوّن أساس تراثها الفكري ووجه سائر مظاهرها في مسارات منسجمة مع أحكامه .

مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في عصر الرسول و الخلفاء الراشدين :

-١ المظهر الديني والفكري .

-٢ المظهر السياسي والإداري و العسكري .

٣ - المظهر القضائي و التشريعي

-٤ المظهر المالي و الاقتصادي .

-٥ المظهر المعماري و الفني .

- ٦ المظهر الاجتماعي .

أولاً – عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

ولد الرسول العربي " محمد بن عبد الله" عليه السلام ، بـ " مكة المكرمة" (سنة ٥٧١ م) (عام الفيل) ونشأ يتيماً ، ربته أمه " آمنة بنت وهب" وماتت وعمره (ستة سنيين) فكفله جده " عبد المطلب" ومات جده وعمره (ثمانية سنيين وشهرين وعشرة أيام) فكفله عمه "أبو طالب" ، ولما بلغ الخامسة و العشرين من عمره تزوج من " خديجة بنت خويلد" وهي تكبره بنحو(١٥ سنة) ، ولما بلغ الثالثة والأربعين من عمره وفي (رمضان سنة ١٣ ق.هـ / ٦١٠ م) أوحي إليه في "غار حراء" ، وبعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة في "مكة" هاجر إلى" يثرب"(سنة ٦٢٢م) وتوفي فيها في(١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٦٣٣م (.

ومن أهم المظاهر الحضارية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

المظهر الديني والفكري :

-١أهتم الإسلام بالعلم والحث عليه منذ أوائل نزول القرآن حيث هبط الوحي على الرسول(ص) وبدأ بكلمة "إقرأ" دلالة على رسالة الإسلام الحضارية وحضه على العلم منذ اللحظات الأولى للدعوة الإسلامية

-٢حث الرسول (ص) على العلم بقوله:" من سلك طريقاً يلتمس به علماً ، سهل الله طريقه إلى الجنة" .

٣ – الحوار مع المشركين عن طريق الإعلام و الإعلان ، وذلك عند بدأ الدعوة العلنية التي أمر الله بها بالآيتين الكريمتين : " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ " و" فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ " أي أن الرسول (ص) جاء محاوراً أكثر منه مقاتل .

٤– عدم تعارض الإسلام مع الأديان الأخرى وتلاقي الإسلام مع المسيحية ، وتجلى ذلك بسماح الرسول بالهجرة إلى الحبشة والتي أثبتت أن الإسلام مكملاً للديانات و الحضارات السابقة .

٥– إرسال الرسول (ص) "مصعب بن عمير" ليعلم أهل المدينة ويفقههم في الدين .

– ٦بناء الرسول(ص) مسجد قباء قبيل دخوله إلى المدينة(يثرب) فكانت أولى الرسالات الحضارية إلى الأمة الإسلامية، والتي أراد من خلالها الرسول(ص)إيصال رسالة واضحة للأمة أن المسجد هو الأساس والمنهج والجامعة التي يجب أن يتعلم فيها الإنسان المسلم عقيدته وعلمه، وأكد على هذه الرسالة عندما بنى هذا المسجد قبل التأمين على نفسه ليؤكد أن التأمين على الدين يأتي أولاً.

–٧الصحيفة التي عاهد من خلالها الرسول (ص) اليهود في المدينة المنورة ، والتي عبرت عن أول دستور سنه الرسول(ص) لتنظيم التعامل بين المسلمين وغيرهم من الأمم وخاصة بين المسلمين واليهود .

٨ – وللتأكيد على أهمية العلم جعل الرسول (ص) فداء أسرى بدر المشركين المتعلمين أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين .

–٩التأكيد على عدم مخالفة أوامر القائد للمحافظة على وحدة الصف في المعارك (مخالفة أوامر الرسول في غزوة أحد) أدى إلى تراجع المسلمين وخسارتهم .

١٠ – تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .

–١١ كان الرسول (ص) يختار أمرائه على القبائل ممن يقرؤون القرآن ويعرفون معالم الشريعة فيشرفهم على قومهم مثل " عثمان بن أبي العاص الثقفي" .

١٢ – تشجيع الرسول (ص) الشعراء في المجالات التي تفيد الدعوة الإسلامية .

الناحية الدينية

كان العرب قبل النبوة فريقين : الوثنيين ، او المشركين ، وهم عبدة الاصنام ، والكتابيون ، من يهود ونصارى ، فلما ظهر الاسلام سالمهم المسلمون حتى اذا ما اعتدى المشركون على المسلمين امر الله رسوله بقتالهم. ولما نقض اليهود ما عاهدوا الرسول عليه ، امر الله بقتالهم فكان المسلمون يقاتلون المشركين حتى يسلموا ، ويقاتلون الكتابين حتى يسلموا او يدفعوا الجزية.

فلما تم فتح مكة واستقر الامر للمسلمين لم يعد هناك سبب للإكراه في الدين فحظره الله تعالى، إذ قال: (لإكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي). ولقد أراد أحد الانصار أن يحمل ابنين له على الاسلام فنهاه الرسول (ص). ونهى القرآن عن الفتنة في الدين اي اضطهاد الناس

، من أجل عقائدهم ، واعتبر الفتنة اشد من القتل. بذلك يكون الاسلام الشريعة الوحيدة التي نادت بحرية العقيدة وتركت لكل انسان الحرية في ان يعتنق ما شاء من الاديان السماوية ويجهر بها ، ويقيم شعائرها ويدافع عنها ، بل يدعو الغير لاعتناقها ، في حدود النظام والاخلاق ، متى دفع الجزية التي تقوم مقام الزكاة ، التي يدفعها المسلمون لبيت المال في سبيل رعاية مصالحهم والدفاع عنهم .

وقد دعا الاسلام الناس الى التحرر من ربقة التقليد ، والى التفكير بالدليل والبرهان ، وتعرف الحقائق من آيات الله ، ليستنبطو من ابداع المخلوقات وحدانية الخالق . قال تعالى : (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍۚ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) وهكذا تدعو الآيات القرآنية الى التأمل الحر في الآيات الكونية ، من غير تقيد بالأدلة العقلية الهادئة.

وقد نعى سبحانه وتعالى على المشركين التقليد لأنه لا يتفق مع حرية العقيدة إذ قال: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون).وقد أوجب الاسلام أن تكون دعوة غير المسلمين للإسلام ومناقشتهم في الدين بالحسنى ، والتزام جادة العقل ، قال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن)، لان الايمان الصحيح هو ما كان منبعثاً عن يقين واقتناع ولا عن رهبة واتباع ، فأما من اهتدى فذلك فضل الله عليه ، وأما من أبى فهو آمن على روحه، وماله وعرضه ، لا يتعرض أحد له ، او لمكان عبادته ولا يحد احد من أقامته لشعائر دينه ، على الوجه الذي يرضيه .

وبذلك حطم الاسلام القواعد التي قامت عليها الاديان من قبل وهي قواعد: التقليد والاتباع واهمال النظر والتفكير الحر . وحمى الاسلام من يعيشون في ظل الحكام المسلمين ، اذ منع هؤلاء الحكام من التضييق عليهم في اقامة شعائرهم وبذلك تتوفر لهم حرية الاعتقاد وحرية اقامة الشعائر .

كما حمى الاسلام نظام الاسر عند غير المسلمين فلم يسمح لاحد ان يتدخل في تنظيم الزواج والطلاق ،الا بمقتضى عقيدتهم وتنفيذ اوامر دينهم وما يجب عليهم ان يتبعوه فيها ، ولا يكون التدخل الا إذا كان هناك اعتداء على حق مسلم . وأبيح لهم ما أباحه دينهم حتى أنهم لو كانوا يأكلون الخنزير ، ويشربون الخمر ، فليس لأحد أن يمنعهم ، ما داموا لا يعتدون على احد. وقد كانت هناك مودة ملموسة بين المسلمين والنصارى ، ظهرت اثارها في إيواء النجاشي لمهاجري المسلمين ، وإكرامه إياهم ، وفي استقبال الرسول (ص) في مسجده ، لوفد نصارى نجران، والسماح لهم بأن يؤدوا شعائر عبادتهم ، في جانب من المسجد .

وقد اباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية – نصرانية كانت أم يهودية – وجعل من حقوقها ان تبقى على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، ولم يفرق الاسلام بين حقوق الزوجة

المسلمة والزوجة الكتابية . وقد ضرب الرسول (ص) مثلا كريماً في العمل على كسب مودة المسيحين ، إذ تزوج السيدة (ماريا القبطية) التي أنجب منها ولده ابراهيم (وقد أسلمت قبل زواج النبي (ص) بها) .ولم يصطدم الاسلام باليهودية كدين ، وإنما اصطدم بالذين تآمروا من منقبها مع خصومه وتحزبوا علة قتاله . وذلك لان الاسلام هو ليهودية موسى ، ولنصرانية عيسى ، وهداية من قبلها من رسل الله الأكرمين : (قل آمنا بالله، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم، واسماعيل ، واسحاق، ويعقوب، والاسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، والنبيون من ربهم، لانفرق بين احد منهم، ونحن له مسلمون) فموسى في نظر الاسلام ، نبي الله ، وعيسى نبي الله ، ومن يسبهما يعتبر كافراً ، والنبوة الاخيرة تصديق لما قبلها ، ومحو للفوارق.

وأساس صلة الاسلام بالديانات الاخرى رعاية الحق، واقامة العدل : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله). والاسلام ينظر الى الرسل ، نظرة صافية معتدلة : فلا يؤله الرسول ، ولا يسجد للنبي ، ولا يلعن احداً من الرسل والانبياء كما أنه يعامل أهل الذمة أحسن معاملة : فقد جاءت السنة المتوترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين : (لهم مالنا ، وعليهم ما علينا)، و(من آذى ذمياً فليس منا). وقال (ص) : (من قتل رجلا من أهل الذمة ، لم يجد ريح الجنة). وقال : (من ظلم معاهداً ، او انتقصه حقه ، او كلفه فوق طاقته، او أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه الى يوم القيامة).

مما تقدم يظهر لنا ان الحرية الدينية لأهل الذمة بدأت مع الدين الاسلامي جزءاً أساساً من منهجه ونظامه، والى جانب ذلك ، كان أهل الذمة في الدولة الاسلامية، آمنين على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم . وكانوا يعاملون معاملة انسانية ، قوامها التسامح ، والمساواة بين أفراد المجتمع، ولا فرق بين مسلم ونصراني ويهودي ، عملا بقوله(ص): (كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته).

وعليه فيكون من أسلم من الرعية ، فله ما للمسلمين الفاتحين ، وعليه ما عليهم ومن آثر أن يبقى على دينه ، وفرت له الحرية ، في نفسه وماله وأماكن عبادته، مادام يؤدي الضريبة ، التي فرضتها الدولة عليه ، لقاء هذا السلام ، الذي تهيئه له ، الرعاية التي ترعى بها مصالحة.

الناحية الفكرية

حينما أعلن الاسلام تكريم الانسان، في قوله تعالى:(ولقد كرمنا بني آدم)، كان من أهم مظاهر هذا التكريم تحميل الانسان ومنحه الحرية الفكرية . يقول النبي (ص): (لا يكن أحدكم إمعة، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس ، أحسنت ، وإن أساءوا ، أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم ، ان أحسن الناس ، أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم)، كما يقول : (من قاتل تحت راية عمية : بتعصب لعصبته، أو يدعو لعصبته، أو ينتصر لعصبته ، فقتل ، فقتلته جاهلية).

ومعنى هذا أنه لا يجوز لنا أن نحرم أنفسنا نعمة التفكير والتعقل ، مقيدين أنفسنا بما يشبه قيود أهل الجاهلية ، الذين كانوا يغصبون لتعصبيتهم ، دون أن يكروا في سبب ما يغصبون له. وقد منح الاسلام كل أنسان الحق في أبداء رأيه ، بأية وسيلة مشروعة يراها، لا سلطان لأحد عليه فيما يريد أن يعبر عنه ، حتى لا تحرم الامة كثيراً من الآراء الصائبة، وحتى لا يكون الكبت والاستبداد سبيلا لنشر الاكاذيب والشائعات .

وقد جعل الاسلام من أظهر صفات المؤمنين أنهم يجهرون بآرائهم ، ولذلك كانت حرية الرأي مكفولة ، فبعصر النبوة ، وفيما بعده من عصور. لقد فتح الاسلام باب الحرية الفكرية في فهم الدين والاجتهاد فيه، على مصراعيه فعرف المجتمع الاسلام منذ عهده الاول الخلاف في فهم نصوص القرآن ، ونصوص الحديث واستنباط الاحكام .والباحث المنصف في الحياة الفكرية والاجتماعية ، عند المسلمين ، وفي تراثهم الفكري لا يستطيع الا ان يحكم بأن الحرية الفكرية جزء اساس من نظام الاسلام : فالفرد حر في أن يفكر بالطريقة التي يختارها لنفسه وفي أن يفهم الدين بما تؤهله له مواهبه وقدرته الفكرية.

وقد عنى القرآن الكريم بالحث على التأمل في النفس ، والنظر في ملكوت السماوات والارض، وحفز الناس على التأمل في ظواهر الكون واستنباط قوانينها، لما فيه من عبرة وأثار في النفوس حب الاستطلاع حيال الامور ، التي لا تثير الانتباه، لسيرها على وتيرة واحدة: كالليل والنهار والشمس والقمر ، وتناسل الحيوان يقول تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ،والى الارض كيف سطحت).

ومن هنا فإنه عن طريق التعقل وعمق النظر والملاحظة والاستنتاج يستطيع الانسان أن يقوم بالأمانة العظمى التي حمله الله تعالى إياها في قوله (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) حتى تتحقق خلافته عن الله تعالى في الارض بأنشاء الحياة المتقدمة والحضارة المتزنة عليها ، من أجل سعادة الانسانية جميعها .

وبدون ذلك تتعطل قوى الانسان فيتحول الى كائن مسلوب الارادة، خرافي العقلية ضعيف الشخصية ممسوخ الكرامة، تفتك به قوى الشر والعدوان فتسلب منه حقوقه وتسلمه الى الجهل والجوع والمرض وبذلك تقف ابداعاته وتنتهي مشاركته في صنع مستقله.

هذا الموقف الانساني السمح الذي وقفه الاسلام من حرية الفكر ، انما هو ركن من اركان دستوره، الذي قرر حقوق الانسان منذ القرن السابع الميلادي وجعلها اصلا من اصول عقيدة خالدة ورسالة شاملة.

المحاضرة العاشرة

الناحية السياسية

الشورى :

إن جوهر الحكم الاسلامي هو نيابة الحاكم عن الامة بناء على مبدأ الشورى الذي نص عليه القرآن الكريم اكثر من مرة . ونزلت – ضمن سوره – سورة تسمى (سورة الشورى) وجاء فيها قوله تعالى في بيان ما يجب ان يكون عليه المسلمون : (والذين استجابوا لربهم ، واقاموا الصلاة ، وامرهم شورى بينهم).

لذلك اتخذ الرسول (ص) من الشورى نبراساً له في تكوين دولته الجديدة ، فكان لايبرم أمراً دون مشاورة الصحابة : ففي غزوة بدر ، عندما نزل (ص) بأصحابه المحاربين منزلا اختاره، استعداداً للقتال ، قال له احد الصحابة :(أهو منزل انزله الله ! فلا تعدل عنه : أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟). فقال الرسول (ص): (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فأشار صاحبه الى منزل آخر ، ووافقة الرسول وكان سبباً في النصر.

وفي غزوة بدر كذلك ، عندما وقع في أيدي المسلمين بعض الأسرى ، ولم يكن قد نزل الوحي في أمرهم ، استشار الرسول (ص) أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر (قومك وأهلك ، إستبقهم ، لعل الله يتوب عليهم، وخذ فدية ، تقوي بها أصحابك)، وقال عمر : (كذبوك ، وأخرجوك من بلدك ، فقومهم ، واضرب أعناقهم ، هؤلاء أئمة الكفر ، والله أغناك عن الاعداء) . واخذ الرسول بالرأي الأول ورفض الرأي الثاني. فنزلت آيات شديدة العتب على النبي (ص) في أنه لم يأخذ بالرأي الآخر وكان هو الأوفق، في ذلك الوقت. قال تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم).

وقد أمر الله نبيه(ص) بالشورى ، بعد غزوة احد، وجاء في سورة آل عمران : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ).

وقد أخذ النبي (ص) بهذا المبدأ ، عندما جاءت أحزاب الكفار ، متعاونة مع اليهود بجيوش هائلة، لتحارب المسلمين في المدينة ، فجلس (ص) يشاور أصحابه في الأمر ، ويستمع الى آراء كل واحد منهم ، فأشار أحدهم ، وهو سلمان الفارسي ، بحفر خندق كبير عميق ، حول المدينة . لا تستطيع الأحزاب المعتدية أن تتخطاه، وقد عمل الرسول بهذه المشورة، فسميت الغزوة من اجل ذلك (غزوة الخندق). من هنا كانت الشورى اصلا في إدارة الشؤون الجماعية، وكان تحري الحق ،أو الاتجاه، الموافق للمصلحة ، من ألزم الواجبات على أولى الامر .

رابطة الدين :

لقد ظلت القبيلة أساساً لأنظمة الحكم المختلفة عند العرب ، منذ أجيال قديمة الى بعثة النبي (ص)، فهو الذي استطاع ان يستبدل بهذه الرابطة رابطة اخرى أقوى منها ، وهي رابطة الاسلام وهو الذي استطاع ان يروض العرب على تغليب قرابة الدين على قرابة الدم . وهذا النجاح الذي صادفه في هذه الناحية من رسالته لايقل في أهميته ولا في أثره، عن نجاحه في تحويل العرب من عبادة الأصنام الى عبادة الله(جل وعلا) فرسالته (ص) لم تقتصر على نشر شيء جديد فحسب بل اشتملت ايضاً على انشاء نظام جديد ودولة جديدة.

رابطة الامة :

كانت الهجرة النبوية الخطوة الاولى في تأسيس الدولة الجديدة : فقد كان اهل المدينة عند قدوم الرسول (ص) إليها، ينقسمون الى اربعة اقسام : اولا– الانصار من الاوس والخزرج، الذين ناصروا الرسول وتناسوا ما كان بينهم من عداء. ثانياً– المهاجرون من أهل مكة الذين جاءوا مع الرسول (ص) الى يثرب . ثالثاً – اليهود وكانوا فئة قوية غنية . رابعاً– المنافقون الذين ظلوا يترددون في موقفهم بين الشرك والاسلام .

وقد آخى النبي (ص) بين المهاجرين والانصار وأنجز ما هو أعظم من ذلك بعقد حلف بين جميع سكان مكة : من مسلمين – المهاجرين والانصار واليهود والمشركين ، وهذا الحلف لم يغير في الظاهر شيئا من العرف الجاهلي في الحكم وانما خفف من سلطان رابطة القبيلة شيئاً كثيراً وربط القوم برابطة الأمة ، وجعل النبي (ص) حكماً بين جميع السكان.

بسط نفوذ الدولة على جميع السكان:

ومما لاريب فيه ان هذه الوثيقة كانت اول حجر في بنيان الدولة الاسلامية العربية ، سلك فيها الرسول (ص) طريق التؤدة ، والحلم ، وبعد النظر في اخضاع المسلمين واليهود والمشركين لسلطانه السياسي ، قبل سلطانه الروحي . والمتأمل في نصوص هذه الوثيقة يجدها توافق العرف البدوي إجمالا ، في معظم الحالات ، ولكن إمعان النظر يبين أن النبي (ص) قد لاءم بين ما تعوده العرب قبل عصر النبوة ، وبين ما كان يرمي إليه الرسول (ص) من توطيد سلطان الاسلام ونشر رسالته الروحية : لقد سمح النبي (ص) في هذه الصحيفة المهاجرين أن يظلوا على شأنهم وسمح للانصار أن يظلوا على شأنهم كذلك أما اليهود فتنص الصحيفة على أن من لم يتبع المؤمنين منهم لهم أن يظلوا على دينهم ، ولكنها تطلب إليهم أن يتفقوا مع المسلمين في الحرب ، ولا يخرج أحد منهم إليها إلا باذن منه (ص).

أما النصوص الخاصة بالكفار فكثيرة ، أهمها : ألا ينصر كافر على مسلم . وهناك نصوص عامة لجميع سكان المدينة ، اهمها : أن مرد كل خلاف الى الله والى رسوله وأن بين أهل الصحيفة حلفاً دفاعياً، ضد من يهاجم المدينة من الأعداء.

وإن الباحث في هذه النصوص ليعجب من بعد نظر واضعها ، وتسامحه وقدرته على التوفيق بين الأضداد، لقد كانت يثرب قبل الهجرة إليها بلا زعامة سياسية ، لعدم استطاعة أي فريق من أهلها أن يتغلب على الفريق الآخر ، بصورة حاسمة، وقد تمكن النبي (ص) من بسط نفوذ الدولة وسلطانها على جميع السكان بما وضعه من نصوص في هذه الصحيفة.

والمتأمل في هذه النصوص يجد أن النبي (ص) قضى على كل العادات الذميمة في الثأر والغزو بما فرضه من قيود وبما وضعه من مبدأ التحكيم ، أما اليهود مع بقائهم على دينهم فقد أوجب عليهم أن يحاربوا من تحارب يثرب ، وأن يساهموا في نفقة الحرب ولا يسمح لهم بإعلان حرب ، دون موافقة النبي (ص). وأما الكفار فلم يكن لهم امتيازات في الصحيفة .

الاسلام دين الدولة:

أخذ الرسول(ص) وقد أصبح زعيم المدينة السياسي والروحي ، في محالفة القبائل القاطنة على طريق القوافل بين الحجاز والشام، استعداداً لحرب الدفاع المذكورة في قوله تعالى) : اذن اللذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وقوله تعالى :(واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل).

ثم تعاقبت الاحداث في تاريخ الاسلام السياسي والديني، فجاءت (بدر) نصراً مبيناً للدين الجديد، ثم أجلى بنو قينقاع عن المدينة، ثم جاءت (احد) بعد سنه من بدر ، وتلا ذلك جلاء بني النضير . وفي السنة الخامسة للهجرة ، جاءت قريش مع قبائل من العرب وحاصروا المدينة ، وساعدهم بنو قريظة وقد أخفقت حملة الأحزاب هذه وفيها قريش والأعراب واليهود.

وتعتبر سنة إخفاق الأحزاب نقطة تحول في تاريخ الاسلام : إذ وطد النبي (ص) بعدها سلطته على المدينة ، وعلى القبائل المجاورة لها، ثم بدأ سعيه لبسط نفوذ الاسلام على مكة نفسها، وحشدت قريش جموعها لمنعه(ص) من زيارة مكة هو واصحابه . وقبل النبي (ص) ان يصالح قريشاً، او يهادنها بحسب شروط ، رآها بعض أصحابه غير جديرة بالقبول ولكن صلح الحديبية – كما يطلق على هذه المهادنة – كان نصراً حاسماً للاسلام ، كما جاء في قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فقد اعترفت قريش بالنبي(ص) وأصحابه وعاملتهم معاملة الند للند، واضطرت الى قبول زيارة المسلمين للكعبة ، بعد أن أكرهتهم على هجر ديارهم والالتجاء الى الحبشة ثم الى يثرب .

ولم يطل أمد الهدنة مع قريش لأنها اعتدت على بعض حلفاء النبي (ص) فثارت الحرب التي انتهت بفتح مكة. وهنا لابد من القول إن محمداً(ص)- من بدر الى فتح مكة كان رئيس دولة بالإضافة الى أنه كان نبياً مرسلاً: فعندما ترك المدينة الى ساحة بدر ترك مكانه نائباً يصلي بالمسلمين اماماً، يتولى في نفس الوقت شئونهم الدنيوية . عندما خرج من مكة بعد فتحها أقام من يعلم الناس القرآن كما أقام من يتولى الشئون المدنية وكذلك فعل عندما غادر المدينة في طريقة الى تبوك ، فعين إماماً وحاكماً.

فاهتمامه (ص) بالناحية المدنية لم يكن أقل من اهتمامه بالناحية الدينية: لقد أخذ منذ السنة التاسعة من الهجرة ، يرسل الجبأة الى القبائل التي اتبعته لجمع الزكاة والصدقات او العشر، وأرسل قوة الى جماعة من بني تميم ، رفضوا دفع الزكاة لارغامهم على دفعها.

وفي اثناء غزوة تبوك ، وجد الرسول نفسه محتاجاً الى محالفة القبائل ، المتاخمة للدولة البيزنطية ، لوضع حاجز بينه وبين الرومان . ومن هذه المحالفات : المعاهدة التي عقدت مع (حنا بن رؤبة) صاحب أيله، وقد اتفق فيها على دفع الجزية . وهي أول معاهدة تعقدها الدولة الاسلامية مع سلطة ، او حكومة نصرانية في خارج الجزيرة.

وهكذا نجد الرجل الذي كان قبل عشر سنين مضطهداً في قومة ، والذي فر من بيته الى بلد آخر، أصبح في مدة قصيرة نبياً ورئيس دولة . فلما أعلن عزمه على الحج الى مكة اجتمع له مائة الف- وما اجتمع منهم في أي تاريخ سابق مثل هذا العدد الكبير – وقد خطب بهم خطبة الوداع، وأعلن فيها بعض المبادئ التي بشر بها . وفي هذه المبادئ هدم لما عرفه العرب في الجاهلية، وتنظيم لحياة جديدة في دولة جديدة تستمد روحها من دين جديد.

خلاصة المبادئ الاسلامية في الحكم :

وقد لخص المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر سابقاً ، المبادئ الاسلامية في الحكم، في العبارات التالية :

١-السيادة: لله وحده لانه الخالق المالك ، وهي في كل شعب ، للشعب نفسه، بعد الله الذي استخلفه في وطنه.

٢-الحكم: لله وهو حقه، وحق الشعب يباشره نيابة عن الله.

٣-الحاكم : وكيل الامة وليس له عليها سيادة بل هي سيدته وهو خادمها الامين.

٤-الشورى: أساس الحكم ، وكل حكم ، لا يقوم على الشورى، لا يكون شرعياً.

٥-التضامن الجماعي: ضروري في تحمل المسؤولية عن صوالح الافراد ، وصالح الدين والدولة

٦-الرقابة: حق للامة، فهي التي تراقب حكامها ، وتحاسبهم ، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحهم ، وتشرف على التنفيذ، وتعد له حسب مصلحتها.

٧-هدف الحكم : سعادة المحكومين وتحقيق السلام .

المحاضرة الحادية عشرة

النظام المالي والاقتصادية

يرى الاسلام أن المال كله ملك الله ؟، الذي له ملك السموات والارض، وأن الانسان في اختصاصه ببعض هذا المال ، انما هو خليفة الله فيه، استخلف في الانتفاع به فوجب أن ينهض بأعباء الخلافة ، وبحسن القيام بتكاليفها.

الـزكاة :

وأول هذه التكاليف هي فريضة الزكاة التي حددها الاسلام ، حتى تفيض بالبر على الطبقات المحرومة في المجتمع ، فتأسوا جراحها وتدعم بنيانها الاقتصادي وتخلق منها في النهاية طبقات عاملة منتجة، تتضامن مع سائر الطبقات الأخرى في المجتمع ، فنخلق منه وحدة متماسكة متساندة متعاطفة.

الانفاق في سبيل الله:

ويلي ذلك الانفاق في سبيل الله، وهذا اوسع نطاقاً من فريضة الزكاة فليس له نصيب محدد الا حيث يكون كفارة عن بعض الزلات والهنات، وقد افترضه الله لسدما لم تسده الزكاة من حاجات، وهذا يشمل كل ما ينفق لعلاء كلمة الاسلام سواء في اعداد العدة لمواجهة العدو، او لرفع مستوى المسلمين ، علمياً واقتصادياً واجتماعياً، وذلك لان سبيل الله هي طاعته في كل ما أمر به من جهاد ومساواة وعدل. وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم).

ولتقديم الآية (أموالكم) على (أنفسكم) حكمة نتسق مع مطالب الجهاد وقال تعالى ايضا: وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . فالآية الكريمة تشبه الاحجام عن الانفاق في سبيل الله بالانتحار الاختياري. وهذان التكليفان – فريضة الزكاة ، وفريضة الانفاق في سبيل الله – يستمدان فرضيتهما – كما رأينا – من تعاليم الاسلام وأوامره الصريحة ثم هما – علاوة على فرضيتهما الاسلامية يستندان على عاطفة الرحمة والتراحم.

أستثمار المال :

وثالث التكاليف الايجابية هو ما فرضه الاسلام على صاحب المال من مداومة استثماره ليساهم في تنمية الثروة القومية حتى أفتى بعض فقهاء الاسلام بحق ولي الامر في نزع ملكية الارض التي تركها مالكها عاطلة بغير زرع ، وتمليكها لمن يحسن الاضطلاع بها وباستثمارها . هذا عن التكاليف الايجابية الواردة في حق الملكية الخاصة التي اباحها الاسلام .

تحريم الاحتكار :

أما التكاليف السلبية : كف المالك عن استعمال ماله في إيذاء غيره، او في الاضرار بجماعة المسلمين ، وعلى هذا الاساس يحرم الاسلام الاحتكار بجميع صوره وأوضاعه .

تحريم الربا:

وثاني التكاليف السلبية تحريم الربا ، فالإسلام يرى أن الاقراض قد يكون : اما لسد حاجة استهلاكية ألمت بالمقترض ، وهذا ينطوي في مصاريف الزكاة والانفاق في سبيل الله . التي تقدم الكلام عنها ، او يكون سداً لحاجة إنتاجية يستعين بها المقترض على تنمية إنتاجه، وإذن يجوز للمقرض أن يساهم مع المقترض في مخاطر هذه التنمية من ربح وخسارة وهذا ما يسمى في الفقه الاسلامي ،(عقد القرض أو المضاربة). وهكذا احتاط الاسلام منذ أربعة عشر قرنا للمساوئ الخطيرة التي الحقها الربا – على نطاقه الواسعة –باقتصاديات وقتنا الحاضر.

تحريم الاسراف والشح :

وثالث التكاليف السلبية تحريم الاسراف والشح على السواء ، أما الاسراف فلأنه يثير اشمئزاز الطبقات المحرومة. وأما الشح فلأنه يؤثر في أنتعاش النشاط الاقتصادي.

حرية العمل والسعي وراء الرزق:

يقدس الاسلام العمل ويدعوا الى الجد فيه واتقانه ويضفي على كل عمل نافع مظهراً تعبدياً ، في ظل رقابة إلهية توجه نشاط كل فرد الى نفع ذاته ونفع المجتمع على السواء.

المنافسة :

والاسلام يدعو الى التنافس في الخير في رفق وبر وينأى بالمنافسة عن السعي الى الكيد للغير وإيذائه ويحدوها الى التعاون المثمر الذي هو أهم أركان الأقتصاد الاسلامي. هذه هي دعائم الاقتصاد التي أقامها الاسلام على أسس مطهرة بغية الموازنة العادلة بين الفرد ونفع الجماعة على السواء.

الجـزية :

أما أهل الذمة – بحكم ما ينالونه من تسامح المسلمين ، ودخولهم في ذمتهم وحمايتهم – يدفعون الجزية كل واحد منهم بحسب قدرته. وكانت الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح . اما ذوو العاهات والرهبان فلم يدفعها منهم الا من كان ذا يسار، ولم يكن المسلمون بدعا في هذا فقد كان الروم يأخذون من اليهود والمجوس ضرائب باهظة وكان محصلو الجزية من المسلمين يزودون بتعليمات مشددة باتباع اللين والامتناع عن المعاملة القاسية مع من يرفض دفع الجزية : يروى ان رسول الله (ص) أرسل معاذ بن جبل مع بعض الجبأة الى الجنوب وأوصاه أن يعامل الناس بالحسنى وان يكون ميالا الى اليسر بعيداً عن العسر.

وهذه المزيج الموفق من الجانب المادي والجانب المعنوي في سياسة الاسلام الاقتصادية هو نفس المزيج الموفق بين مطالب البدن ومطالب الروح ، وبين العمل الصالح للحياة الدنيا وللحياة

الاخرى، وهذا التوازن الرباني كفيل بتحقيق الرخاء في ربوع الارض ونشر لواء الخير في ارجاء العالم الاسلامي .

المحاضرة الثانية عشرة

النشاط العلمي والعمراني في العصر الاموي

أولاً: الحركة العلمية:

العصر الأموي لم يكن فقط عصر فتوحات عظيمة وعصر بناء وعمران، ولم يكن الأمويون رجال سياسة وإدارة من طراز عال فحسب، بل إن عصرهم شهد بداية نمو الحركة العلمية في كل مجال من مجالات العلوم.

وإن كان الازدهار العلمي لم يتحقق في عهدهم وتحقق بعدهم في عصر بني العباس إلا أن البداية التي بدأت منذ ظهور الإسلام أخذت تنموا وتتقدم في عصرهم حسب ما كانت تسمح به الظروف والإمكانات، فقد أخذت العلوم الإسلامية الأصلية مثل: التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وآدابها، أخذت هذه العلوم الإسلامية تتبلور وتصبح لها مدارس وأساتذة في كل المدن والأمصار الإسلامية، وكان الأساتذة الذين أخذوا يعلمون هذه العلوم هم من الصحابة والتابعين.

ففي مكة أم القرى، التي شهدت أول نزول الوحي ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فيها بعد فتحها:

١-معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وتركه الرسول في مكة ليعلم أهلها ويفقههم في الدين.

٢-كذلك من أساتذة مكة في العصر الأموي عبد الله بن عباس ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يجلس في البيت الحرام ويعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب.

وإلى ابن عباس يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية واسعة، فأشهر من تخرج من هذه المدرسة من التابعين والذين كان له دور كبير في الحركة العلمية في العصر الأموي مجاهد بن جبر ت ١٠٣ هـ، وعطاء بن أبي رباح ت ١١٥ هـ وطاووس بن كيسان...وغيرهم كثير.

واستمرت هذه المدرسة العلمية العظيمة قائمة يلتقي العلم فيها جيل عن جيل وكان من أنجب تلامذتها الإمام الشافعي ت ٢٠٤ هـ.

أما مدرسة المدينة المنورة فكانت أكثر علما وأوفر شهرة من مكة لأن معظم الصحابة الكبار عاشوا فيها وعلموا جيلا كبيرا من التابعين، كان من أشهرهم في العصر الأموي سعيد بن المسيب ت ٩٥هـ، وعروة بن الزبير بن العوام ت ٩٤ هـ الذي كان من أعلم أهل المدينة وأكثرهم تقوى وورعا.

عن هذه الطبقة أخذ العلم طبقة أخرى كان من أشهرها محمد بن شهاب الزهري ت ١٣٤هـ، الذي حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم، واتصل بكثير من خلفاء بني أمية، مثل عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك وقال عنه عمر بن عبد العزيز: "إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه".

وقد أنجبت مدرسة المدينة إمام دار الهجرة مالك بن أنس ٩٣-١٧٩ هـ الذي عاش حوالي نصف عمره في العصر الأموي.

هذا عن الحركة العلمية في العصر الأموي في المدينتين المقدستين: مكة والمدينة.

أما في العراق: فقد نشأت مدرستان عظيمتان في كل من الكوفة البصرة، ففي الكوفة عاش كثيرون من كبار الصحابة الذين نزلوها بعد تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ وكان من أشهر من عاش في الكوفة من الصحابة علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وإذا كان علي رضي الله عنه قد شُغل بالسياسة وأمور الدولة إلى حد كبير عن التفرغ للتعليم فإن ابن مسعود قد قام بهذا الدور، ولذلك يعتبر من أكثر الصحابة أثرا علميا في الكوفة، وقد أخذ عنه كثيرون من علماء الكوفة ولزمه تلاميذ منه تعلموا العلم وعلى يديه وتأدبوا بآدابه، وكان يعلم الناس القرآن ويفسره لهم ويروي لهم الأحاديث التي سمعها من الرسول صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة: أنه تكونت في الكوفة حركة علمية كبيرة اشتهر من علمائها شريح القاضي والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير وكل هؤلاء عاشوا في العصر الأموي ولم تزل مدرسة الكوفة تنموا حتى تُوجت بالإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (٨٠ . ١٥٠ هـ).

أما البصرة: فقد نشأت فيها كذلك مدرسة علمية كبيرة كان أساتذتها من كبار الصحابة مثل: أبي موسي الأشعري وأنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أشهر العلماء الذين خرجتهم مدرسة البصرة في العصر الأموي: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وكلاهما من الموالي، وكلاهما كانت له شخصية علمية ظاهرة في البصرة، فالحسن البصري اشتهر بمتانة خلقه وصلاحه وعلمه وفصاحته، وكان موضع حب واحترام أهل البصرة، حتى أن المصادر تروي أنه عند وفاته سنة ١١٠ هـ تبع أهل البصرة كلهم جنازته، حتى لم يبقى بالمسجد من يصلي العصر. وكان رغم انتقاده العلني لخلفاء بني أمية موضع احترامهم.

وأما محمد بن سيرين فقد تعلم على يد زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم، وكان محدثا ثقة وفقيها يفتي فيما يعرض عليه من القضايا والشؤون، واشتهر أيضا بتفسير الأحلام وتوفي سنة ١١٠ هـ.

وفي الشام: نشأت مدراس علمية منذ بداية الفتح الإسلامي لها في عهد عمر بن الخطاب، فقد روى البخاري في كتاب التاريخ: أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب أن أهل

الشام قد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأرسل إليه معاذ ابن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم جميعا، فكان هؤلاء الثلاثة أول مؤسسي الحركة العلمية الإسلامية في الشام، فقد تفرقوا في أقاليمها، فنزل أبو الدرداء في دمشق، وعبادة في حمص، ومعاذ في فلسطين، وتخرج على أيدي هؤلاء الصحابة الكبار عدد كبير من التابعين منهم: أبو إدريس الخولاني ثم مكحول الدمشقي، وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة، وكل هؤلاء من أعلام العلماء في العصر الأموي .

ثم خرّجت مدرسة الشام عبد الرحمن الأوزاعي الذي يعد من أقران الإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس، وكان من الطبيعي أن تكون الشام مقرا لحركة علمية واسعة وأن يقصدها العلماء من كل صقع لأنها أصبحت مركز الخلافة الأموية وفيها عاصمتها مدينة دمشق.

وفي مصر: نشأت مدرسة علمية إسلامية عظيمة بعد الفتح الإسلامي وكان أساتذتها ومؤسسوها أيضا من الصحابة الذين نزلوا مصر، ومن أشهرهم: عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما الذي يعد من أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يدوّن ما كان يسمعه من الرسول، وقد سكن مصر فلم يكن يغادرها إلا للغزو أو الحج أو العمرة، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية وأخذ عنه العلم كثيرون من أهلها.

وقد اشتهر من علماء مدرسة مصر بعد جيل الصحابة كثير من التابعين الذين عاشوا في العصر الأموي، منهم: يزيد بن أبي حبيب، الذي قال عنه الكندي المؤرخ المصري: أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز إليهم الفتيا بمصر والآخران هما جعفر بن ربيعة، وعبد الله بن أبي جعفر .

واستمرت مدرسة مصر التي كان مقرها جامع عمرو بن العاص في الفسطاط تنمو وتزدهر حتى خرّجت الكثير من العلماء، كان من أشهرهم: الليث بن سعد فقيه مصر وإمامها، والذي قال عنه الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك بن أنس، وقد توفي الليث سنة ١٧٥ هـ.

ويطول بنا الكلام لو تحدثنا عن الحركة العلمية في بقية أقطار العالم الإسلامي في العصر الأموي ولكن هذه مجرد إشارات تنبه الأذهان إلى أن العصر الأموي كان عصر فتوحات عظيمة وإدارة وسياسة وعمران ، وكان أيضا العصر الذي شهد بداية نمو الحركة العلمية الإسلامية التي كان قوامها القرآن وتفسيره، والحديث وشرحه والفقه وأصوله، والتاريخ والسير والمغازي، واللغة العربية وآدابها.. الخ.

وهناك فضيلة أخرى يجب أن تذكر للأمويين وتحسب لهم في صحائف حسناتهم: تلك هي حفاظهم على التراث العلمي الأجنبي الذي وجدوه في البلاد المفتوحة، فقد عرفنا فيما سبق أن الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي امتدت إلى آفاق بعيدة، شملت مساحات واسعة في قارات الدنيا القديمة الثلاث أسيا وإفريقيا وأوربا، وهذه المناطق التي حوتها الدولة الإسلامية، كانت هي

موطن الحضارة في العالم يومئذ، وفيها مدراس علمية وفكرية تركز فيها كل ما أنتجه العقل البشري من علوم على مدى آلاف السنين، فعِلم الهنود والفرس والإغريق على اختلاف أنواعه كان منتشرا في البلاد التي فتحها المسلمون في العصر الأموي، ووضع المسلمون أيديهم على هذا الكنز العلمي الذي كان موزعا على مدن زاهرة تعج بالنشاط العلمي مثل: الإسكندرية وغزة وبيروت ودمشق وحران والرها وغيرها، وكانت العلوم التي تدرس في أغلب مدارس هذه المدن هي علوم الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والهندسة والطبيعة والكيمياء والجغرافيا، وكانت تقوم على أساس وثني فماذا صنع المسلمون في العصر الأموي بهذه المدارس ؟ هل أغلقوها وعطلوا الدراسة فيها ؟

لم يحدث من ذلك شيء من ذلك على الإطلاق، بل أبقوا هذه المدارس على ما كانت عليه وتركوا الأساتذة يعلمون والطلاب يتعلمون في جو من الحرية لم يسبق له مثيل، بل لم يتدخلوا مطلقا في شؤون هذه المدارس وتركوا كل شيء للقائمين عليها، فلما رأى العلماء والطلاب هذه الحرية وهذا التسامح مع العلم والعلماء الذي أبداه المسلمون نحوهم والذي هو في الواقع من وحي الدين الإسلامي نفسه الذي يحترم العلم والعلماء ويكرمهم، بل يحث الناس على العلم والتعليم ويعتبر التفكير فريضة من فرائضه: أقبلوا على العلم والتعليم بصدور منشرحة وعقول منفتحة، وأخذت هذه المراكز العلمية تؤدي عملها تحت الحكم الإسلامي حتى جاء العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) وكانت الدولة الإسلامية قد استقرت والعلوم الإسلامية الأصيلة والتي أشرنا إليها قبل قليل من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه ولغة عربية وآدابها قد تأصلت ووضعت قواعدها وأصبحت لها مدارس شهيرة في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط الخ.

عندئذ بدأ المسلمون يتجهون للعوم الأجنبية والتي كانوا يسمونها العلوم الدخيلة وهي الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء.. الخ، اتجهوا إلى هذه العلوم وبدأوا يترجمونها إلى اللغة العربية وكان الخلفاء العباسيون يشجعون حركة الترجمة ويجزلون العطاء للعلماء على عملهم ويحترمونهم وينزلونهم منزلة كبيرة، فقد كان الخليفة المأمون يعطي العالم الذي يترجم كتابا علميا من لغة أجنبية إلى اللغة العربية وزن هذا الكتاب من الذهب الخالص، لذلك أقبل العلماء على الترجمة في همة ونشاط حتى لم يكد يمضي قرن واحد على بداية حركة الترجمة حتى أصبح ذلك التراث العلمي العظيم الذي خلفته البشرية على مدى أجيال عديدة يُقرأ باللغة العربية، والتي كانت أكثر اللغات انتشارا في العالم لأنها لغة الإسلام والمسلمين.

والمسلمون في ذلك الوقت كانوا أقوى وأغنى أمة على ظهر الأرض، فهل يقرأ المسلمون تاريخهم العظيم هذا ويحاولون استعادة مجد آبائهم وعظمتهم !؟

والخلاصة: أنه لولا سماحة الخلفاء الأمويين وسعة أفقهم وحفاظهم على هذا التراث لما رأينا هذه النهضة العلمية الكبيرة التي كان لها الأثر الكبير على حياة البشرية...

ثانياً: المنشئات الدينية والعمرانية:

لم يكن خلفاء بني أمية رجال حرب وفتوحات وسياسة وإدارة فقط ،وإنما كانوا رجال بناء وعمران، وشهد عصرهم العديد من المنشآت المعمارية الدينية والمدنية.والعمارة تمثل ناحية هامة من نواحي الحضارة الإسلامية، والعمارة لها جوانب عديدة منها بناء البيوت والقصور والمدارس والجامعات والمستشفيات ودور العبادة ومنها بناء الجسور والقناطر.. الخ .وقد أهتم الأمويون اهتماما كبيرا بكل هذه النواحي فقد اتسعت حدود الدولة الأموية إلى الحد الذي جعل من الضروري ربط أجزاء هذه الدولة الواسعة بشبكة من الطرق المعبدة حتى يسهل الاتصال بين أطرافها وبين عاصمتها دمشق، ولتكون حركة الجيوش بذلك سهلة.

وهناك ناحية هامة جعلت الأمويين يهتمون بالطرق وهي: فريضة الحج إلى بيت الله الحرام فقد كان عليهم أن يعبدوا جميع الطرق التي تربط مكة المكرمة والمدينة المنورة ببقية العالم الإسلامي حتى يسهل للحجاج الوصول إلى تلك الأماكن المقدسة بدون مشقة، كما كانت تنتشر على هذه الطرق الأسواق والاستراحات التي تزود المسافرين بحاجياتهم من طعام وشراب.. الخ.

كذلك اعتنى الأمويون بمشروعات الري للنهوض بالزراعة، لأن دولتهم ضمت العديد من الأقطار الزراعية التي تجري فيها أنهار كبيرة مثل: الشام ومصر والعراق وفارس، فكان لابد لكي تنهض الزراعة من تنظيم عملية الري وما يتطلبه ذلك من شق الترع وإقامة الجسور.. الخ.

كذلك اعتنى الأمويون ببناء القصور الفخمة، فقد كان معظمهم ميالا إلى الاستمتاع بمباهج الحياة بعد أن توفر لديهم المال الكثير، فاتجهوا إلى بناء القصور والتأنق فيها وتزينها بالزخارف والصور النباتية والهندسية، وقد أُكتشف في السنوات الأخير العديد من القصور التي ترجع إلى العصر الأموي والتي وُجدت مزينة بالصور حتى في الحمامات ومعظم القصور الأموية التي اكتشفها علماء الآثار منذ القرن الماضي وجدت في الصحراء – صحراء الشام بصفة خاصة – وذلك لأن الأمويون كانوا يحبون حياة البادية للاستمتاع فيها بالهدوء والهواء الطلق بعيدا عن ضجيج المدن..

وكما اهتم الأمويون بالمباني والمنشآت المدنية كالطرق ومشروعات الري والقصور والتأنق فيها، فقد كان اهتمامهم أعظم بالمنشآت الدينية وفي مقدمتها المساجد، فالمسجد أهم مؤسسة في الإسلام فقد كان أول شئ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عندما هاجر إليها أن أسس مسجده العظيم، الذي كان مكانا للعبادة وتبليغ الوحي وإدارة الدولة الإسلامية وفيه ربى الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم أصحابه شرائع الإسلام وفنون القيادة في ميادين الحرب والسياسة والإدارة، وقد حذا المسلمون حذو الرسول صلى الله عليه وسلم في كل

مكان حلّوا فيه، وفي كل مدينة جديدة أسسوها، فكان أول شيء يهتمون ببنائه هو المسجد وفعلوا ذلك في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان.. الخ.

وقد احتل بناء المساجد والعناية بها مكانا بارزا في عصر بني أمية على اتساع العالم الإسلامي، فكانوا يزيدون في مساحة المساجد التي كانت قائمة في عهدهم لكثرة المسلمين، كجامع صنعاء وجامع عمرو بن العاص اللذين أعيد بناؤهما في عهد الوليد بن عبد الملك.

وكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من أول المساجد التي حظيت باهتمام الأمويين، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بتوسعته وتجديده، وعهد بتلك المهمة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وأمده بكثير من الأموال وكميات كبيرة من مواد البناء والتجميل مثل الفسيفساء حتى جاء البناء على شكل رائع وعظيم.

وأعظم المساجد التي أنشأها الأمويون: المسجد الأموي في دمشق والذي أنشأه أيضا الخليفة الوليد بن عبد الملك، الذي كان مولعا بالبناء والتعمير، لدرجة أن المؤرخين يذكرون أن الناس كانوا في عهد الوليد لا حديث لهم إلا عن البناء والعمارة أسوة بخليفتهم، على قاعدة: أن الناس دائما على دين ملوكهم.

وقد اجتهد الوليد في بناء ذلك المسجد لتتمثل فيه عظمة الإسلام والدولة الإسلامية فجعله آية من آيات العمارة الإسلامية وانفق عليه أموالا طائلة ولا زال هذا المسجد قائما حتى الآن شاهدا على عظمة بنائه.

هذا وقد انتشرت المساجد في العصر الأموي في كل الأمصار الإسلامية بحيث يصعب حصرها، ومنها على سبيل المثال: مسجد القيروان الذي بناه عقبة بن نافع في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠ – ٥٥ هـ، وجامع الزيتونة في تونس الذي بني في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٤ هـ، والمسجد الجامع بواسط، ومسجد قصر الحير الشرقي، والمسجد الجامع بحران، والمسجد الجامع بالإسكندرية، المعروف بجامع الألف عمود...

المحاضرة الثالثة عشرة

الناحية الاجتماعية

إن من يمعن النظر في تعاليم الاسلام ، يجد أنها تتوخى مصالح الناس وحاجاتهم الضرورية، ورفاهيتهم وسعادتهم الاجتماعية في الحياة الدنيا ، وسعادتهم الخالدة في الحياة الاخرى. ونظرية العدالة الاجتماعية في الاسلام اساسها الحقوق الطبيعية للإنسان ، والقوانين التي تضمن هذه الحقوق وتنظيمها ، كما تتضمن التكافل الاجتماعي ، والحقوق الطبيعية هي : حق الحياة وحق الحرية ، وحق العلم ، وحق الكرامة وحق التملك.

فحق الحياة منحة من الله تبارك وتعالى للإنسان لا يملك أحد أنتزاعها ، بغير إرادة الله : (" وإنا لنحن نحي ونميت . ونحن الوارثون ". " وأنه هو أمات وأحيا" . " إنا نحن نحي ونميت ، والينا المصير") . وقد أعطى حق انتزاع الحياة من الافراد للدولة فحسب ، وفق قانون الجنايات لمصلحة المجتمع وحماية حياة الافراد. وفي ذلك ذكر القرآن الكريم : (ولكم في القصاص حياة). والعدوان على حياة فرد، بدون حق عدوان على المجتمع كله والانتقام بالقصاص من الجاني إحياء للمجتمع كله : (من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساد في الارض ، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها ، فكأنما أحيى الناس جميعاً).

ولم يكتف التشريع الاسلامي بإعلان مبدأ حق الحياة ، بل أعلن مع ذلك وجوب صيانة الحياة من كل ما يقضى عليها ، أو يتلفها او يضعفها : فحرم قتل النفس بغير حق: (ولا تقتلوا النفس،، التي حرم الله، إلا بالحق). كما أعلن عقوبة الاعدام للقاتل ، بغير حق : (كتب عليكم القصاص في القتلى) كما حرم الانتحار مهما كان الباعث عليه. ونهى عن المخاطرة بالنفس واعطى حق الدفاع عن النفس . وكذلك أعلن وجوب العناية بالصحة العامة ، ودفع الامراض والاوبئة عن المجتمع : فحرم المسكرات والمخدرات وحرم الزنا وحرم أكل ما يضر الآكل ، وحرم الميتة والدم ولحم الخنزير. ونهى عن إدخال اليد في الاناء ، قبل غسلها . أوجب الوضوء عند كل حدث يخرج من الانسان ، وأوجب الصلاة خمس مرات في اليوم وأوجب الصوم ، ورغب في الرياضة بأنواعها ، مثل ركوب الخيل والسباحة والرماية والمصارعة .

ومن أروع ما جاء به الاسلام تأكيداً لحق الحياة ، وما يحفظها إسقاطه للواجبات والتكاليف ، عند تعرض حياة المكلف للخطر ، أو تعرض صحته للسوء: كسقوط فرض الوضوء بالماء وانتقال الفرض الى التيمم بالتراب ، حين يكون على الماء عدو مخيف أو حيوان مفترس ، أو يكون استعمال الماء مضراً بصحة المتوضئ ، أو يؤدي الى تأخير شفائه ، أو زيادة مرضه أو إذا كان في حاجة الى هذا الماء لشرابه أو لطبخ طعامه أو شراب دابته أو غير ذلك . وقد أجازت الشريعة الاسلامية فعل المحرمات عند الضرورة للمحافظة على الحياة أو الصحة ، مثل ذلك المريض الذي يتوقف شفاؤه على شرب الخمر ، كذلك آكل الميتة والدم والحم الخنزير : (إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ،" أي ما ذبح على الاوثان " ، فمن اضطر ، غير باغ ولا عاد – فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم). ومن هنا جاءت القاعدة الاصولية : (الضرورات تبيح المحظورات).

وحق الحرية، وهو ثاني الحقوق الطبيعية للانسان، يقرره الاسلام، فيما دعا إليه، ويرى أن الحرية هبة من الله، وهي حق للفرد، من يوم ولادته، وذلك لأمرين، أولهما: أن الحرية فطرة في الانسان، ومن الظلم أن يصادر فيها. والثاني أن الانسان لايستطيع ان يسير في حياته، سيرا طبيعياً مطمئناً، إلا إذا كان طليقاً منة القيود ، الا ما تفرضه مصالح المجتمع، لذلك أتخذ

الاسلام مبدأ الحرية الشخصية ، في دائرة الاجتماع، دعامة لجميع ما سنه للناس من عقائد ، نظم وتشريع ، وحارب الاستعباد في مختلف صوره.

والحرية الشخصية تضمن : حرية الشخص في أن يعتقد ما يراه حقاً. يقرر مايراه حقاً. وأن يتصرف في دائرة شخصه بما يعود عليها بالخير ، من غير تدخل من احد على الا يضار بتصرفه الاخرون وأن يكون له الحق في ان يبدي رأيه فيما يتصل بالمجتمع الذي يعيش فيه .

ومن تعاليم القرآن والسنة يبدو بكل جلاء ان الاسلام لايرى قيمة الحياة الانسانية بدون الحرية . والانسان الحر هو غير الملوك، وغير المقيد بأي قيد مادي وهو الخالص في إنسانيته لاتشوبها شائبة ، وهو الكريم في خلفه الشريف في سلوكه. والامة في وطنها الذي تعيش فيه هي التي لا تستعبد لامة أخرى ولو كانت اقوى منها او اعلم او اغنى. فإذا اعتدت أمة على اخرى ، فسلبتها حريتها كان ذلك عداواناً لا يدانيه عدوان ، وظلما بوجب على الامة المعتدى على حريتها أن تهب لدفع هذا الظلم ، بكل ما تملك من ارواح وأموال بكل فئاتها القادرة على القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير)، أي أذن للأمة التي قوتلت واعتى عليها أن تقاتل دفاعاً عن حقها : (وانفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم)، ولامة المعتدى على حريتها اذا نهضت للدفاع وعرفت كيف تقاوم لعدوان ، يكافئها الله على ذلك بالحرية الكريمة والنصر المبين : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين) وعلى الامة الحرة ان تهب لنجدة المستضعفين المعتدى على حريتهم ، لتعيد إليهم حريتهم وتدفع الظلم والواقع عليهم : (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان). تلك هي مبادئ الحرية الانسانية في الاسلام للفرد والامة وحمايتها واجب على الفرد والدولة.

أما الحرية المدنية ، فهي حرية الفرد في اختيار العمل الذي يناسبه لكسب معيشته واختيار من يشاء للزواج منه واختيار المكان الذي يفضل الاقامة فيه والعلم الذي يريد ان يتفقه فيه. ولم يدع الاسلام لولي الامر ان يتدخل في هذه الحرية الا حين يعطل اصل من اصول الدين : كان يقوم فرد من الأفراد فينكر وحدانية الله ، او رسالات الرسل ويدعو الى ذلك جهارا، او تمنع طائفة من إبناء الزكاة او تسد على المسلمين طريق الحج، او تجاهر جماعة بالمعصية ، بشكل يفتن الناس ، ويخل بنظام الجماعة ولهذا التدخل اوضاع وحدود مقرره، لم يترك الامر فيها لهوى الحاكم او سلطانه الشخصي.

وإذا كان الاسلام يقرر الحرية بجميع أشكالها للناس كافة ، ويرى انه إطلاق الحريات في مصلحة المجتمع نفسه ، يقدر ما هو في مصلحة الافراد ، لآنه يشترط لتمتع الفرد بحريته، الا يكون ذلك عن طريق الطغيان على حرية الاخرين ، او عن طريق الاضرار بصالح الدين والدولة . فاذا اعتدى فرد على حرية فرد آخر كان تمتعه بحريته مضرا بالدين او الدولة، كان يستغل

حريته في الطعن على الاسلام او افساد اسرار الدولة ، أو التجسس عليها ، ونقل أخبارها الى أعداءها وجب على الدولة أن تقيد حرية ذلك الفرد، لان ذلك هو مصلحته ومصلحة الدين والدولة. ويقابل ذلك أن الدولة لا يملك حق تقييد الحرية الا عن هذا الطريق، فاذا قيدت حرية شخص ما ، بلا موجب فلا طاعة لها عليه.

أما حق العلم ، فلم يسبق الاسلام دين وقف منه موقف الاسلام من الدعوة للتمسك به وقد اشار القرآن الكريم بالعلم في نصوص كثيرة ، منها قوله تعالى وهو اول ما نزل من القرآن على النبي الامي(ص): (اقرأ باسم ربك ، الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم).

(والقلم وما يسطرون)(والطور وكتاب مسطور ، في رق منشور). ومن المعلوم أن أداة العلم : قلم يكتب ، ومداد يوضح، ومادة يكتب عليها . وقد اقسم الله بهذه الادوات الثلاث فيما سبق من الآيات : اقسم بالنون، وهي الدواة (على ما ذهب اليه المفسرون، واقسم بالقلم ، واقسم بالرق المنشور، ومن أمعن النظر في كتاب الله تعالى ، وجد انه تعالى إنما يقسم بكثير من مخلوقاته، تنويها بشأنها ولفت أنظار الناس اليها . وأما الدعوة الى العلم، فقد قال الله سبحانه وتعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال(ص): (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). وقال ايضاً:(من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً الى الجنة).

والعلم في نظر الاسلام شرف وواجب وحق أما أنه شرف فبالنصوص التي تشيد بفضلة، وترفع من مكانة العلماء:(قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون؟).(شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة، وأولو العلم ، يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتو العلم درجات) (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يفعلها إلا العالمون). وفي الحديث الشريف ، قال(ص): (العلماء ورثة الانبياء) أما ان العلم واجب فان الشرع جعل من العلم ماهو فرض عين ، اي ما يطلب تعلمه وجوباً من كل فرد مكلف ، ولا يعذر أحد في الجهل به، كما جعل من العلم ما هو فرض كفاية وهو كل ما يحتاج اليه المجتمع ، من غير نظر الى شخص بذاته.

خطب النبي (ص) ذات يوم فأثني على طرائف من المسلمين خيراً، ثم قال: (ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ، ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جرانهم ، ويتفقهون ويتعظون ، او لا عاجلتهم العقوبة). وأما أن العلم حق ، فان الاسلام فرض على العالم ان يعلم ، وعلى الجاهل أن يتعلم (كما ذكرنا من خطبة الرسول ص).

وبهذا كان من الواجب على الانسان ان يسعى لتحصيل العلم ،وعلى الدولة والمجتمع ان ييسرا له الوصول الى هذا الحق وبهذا يكون حق العلم من حقوق الانسان الطبيعية .وعلى هذا الحق يبين الفقه الاسلامي كثيراً من الاحكام : فأجاز للابن أن يخرج يطلب العلم المفروض، ولو

من غير اذن والديه، كما يخرج للجهاد المفروض ، من غير اذنهما كذلك، بشرط الا يتعرضا للفاقة او الضياع بخروجه وأذن للزوجة أن تخرج، بغير اذن زوجها ، اذا أبى الزوج أن يعلمها ما فرض الشارع عليها من علم . وقد اعتبر الاسلام كتب العلم ضرورية لأصحابها ، من طلاب وعلماء ضرورة المسكن والمأكل والملبس ، فلا تدخل قيمتها في نصاب الزكاة الواجبة كما أنه لا يعتبر قيمة كتب العلم، ولو بلغت الآلاف من الجنيهات ثروة مادية لدى صاحبها ، بحيث يعتبر ممن يجوز لهم اخذ الزكاة كما لا تلزمه صدقة الفطر، اذا كان لايملك غيرها ولا يلزمه بيعها لأداء فريضة الحج ، اذا كان لايملك من المال ما يكفى لنفقات الحج واذا لزمه الدين ، وحكم بإفلاسه، تترك كتب العلم له. وغني عن البيان ان الاسلام يجعل حق العلم ثابتاً للجميع، بلا استثناء بين الرجل والمرأة ، او بين الغني والفقير ، او بين الامير والخفير فالكل في هذا الحق سواء.

أما حق الكرامة ، فهو رابع الحقوق الطبيعية للانسان، والتي هي أساس نظرية العدالة الاجتماعية في الاسلام . حقا ان التفاوت في المواهب والكفاءات، والطبائع والامكانيات ، هو سنة من سنن الحياة في عمران الكون ، به يخدم الناس بعضهم بعضا، كل فيما يستطيعه ويحسنه. وقد وفق الاسلام بين واقع الحياة الذي لابد منه ، وبين مبادئه: فساوى في الحقوق والواجبات ، مما لا يقوم مجتمع كريم سعيد الا على اساسه، حتى لا يؤدي تفاوت الناس في المواهب والكفاءات الى استبعاد فريق لفريق ، وانفراد فريق قليل بالمغانم والزام الجمهور بالمغارم فكل حق يقابله واجب. وكل فئة من الناس لها حقوق، وعليها واجبات لا يستثنى واحد منها من الاخرين بميزة في حق، او إسقاط في واجب : فالعالم ؟، إذا قتل جاهلا ، يقتل به ولا عبرة بامتيازه عليه بالعلم ، والجاهل ، إذا قتل عالماً يقتل به وحده، ولا يؤخذ معه غيره ، والمبدأ في ذلك : (النفس بالنفس). يقول النبي(ص) : (يأيها الناس ! إن ربكم واحد ، وأباكم واحد ، فكلكم لآدم ، وآدم من تراب). فالكرامة حق لكل إنسان ، وكرامته ملازمة لإنسانيته.

بهذا ضمن الاسلام تعاون المجتمع مع تعدد فئاته، وتفاوت احوال أبنائه، وتساويهم جميعاً في الواجبات الاجتماعية ، والكرامة الإنسانية: فليس في الاسلام رجال دين ، لا يخضعون للقانون ، وليس فيه أشراف لا يؤدون عملا، وليس فيه أمراء ، ولاتصل اليهم سلطة الدولة، وليس فيه أغنياء لا يدفعون ضريبة ، ولا يبذلون جهداً، وليس فيه أذكياء ، يدعون لهم حقاً في استغلال البلداء، بل الكل شعب واحد ، يخضع لقانون واحد : رئيس يخدم الشعب ، وشعب يؤازر رئيسه ، ويطيعه.

حق التملك: وهو الحق الخامس من حقوق الانسان الطبيعية ، ومرده الى اندفاع الناس ، في حق الحياة الحرة الكريمة ، الى العمل ليكسبوا قوام حياتهم ومعيشتهم لا يوصد باب العمل دون واحد منهم ، ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة منهم، لكل إنسان من الدنيا بحسب طاقته، وجهده

وكفاءته: (وأن ليس للانسان إلا ما سعى)وعند تملك المال ، وبعد تملكه ، يفرض الاسلام رعاية مصلحة المجتمع لان المال لله ، والانسان مؤتمن عليه: (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ، فيد المالك يد استخلاف والله جعل المال وسيلة للخير ، فلا يجوز أن يستعمل الا في الخير ، اي في مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية في نظر الاسلام وظيفة اجتماعية ، ولما كان الامر كذلك. فان الاسلام يكره كرها شديداً تكدس الثروات في أيد قليلة في المجتمع ، لما يؤدي إليه ذلك من ترف وإفساد واستغلال . يقول الله تعالى ، في وجوب إعطاء الفقراء نصيباً من الغنائم : (كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) .

بل إن من الثروات ما يمنع الاسلام تمليكها لفرد او افراد حتى لا يستأثر بها إنسان او جماعة ، دون بقية الناس ، لحاجتهم جميعاً اليها، قال (ص) : (الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار) وليس النص على هذه الاشياء للحصر ، بل قواعد الشريعة تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع ، لا يصح أن يترك تملكه لفرد او افراد اذا كان ينشأ، عن احتكارهم له، استغلال حاجة الجمهور اليه ، بل يجب ان تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور ، وجاز لها ان تتخذ الوسائل الكفيلة بإشراك الناس جميعاً في الافادة منه ، تحقيقاً لمعنى الشركة الواردة في الحديث الشريف.

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية ، فقد جاء بقوانين مالية للقضاء على تكديس الثروات ، والعمل على توزيعها لتنفيذ التشريعات التي وضعها لتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين جميعاً، لأن هذا التكافل الاجتماعي لا بد له من موارد ماليه لضمان تنفيذه، وإلا ظل نظرياً بحتاً. ومن هذه القوانين : قانون الزكاة وقانون الوقف ، وقانون المغانم ، وقانون النذور. ولا ننسى قوله تعالى : (ليس البر ان تولوا وجوهكم ، قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر ، والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ....) ، وهذه الآية تدل على ان لهذه الفئات حقاً في المال ، غير الزكاة بدليل ان الزكاة عطفت عليها،،،، والعطف يقتضى المغايرة . ولا ننسى قول النبي (ص) : (إن الله فرض على اغنياء المسلمين في أموالهم القدر الذي يسع فقراءهم – أي ما يحتاج اليه الفقراء – وهل يجهد الفقراء ، إذا جاعوا وعروا ، إلا بما يصنع أغنياؤهم ؟ ألا وإن يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً).

من هذا يتبين أنه إذا لم تكف الزكاة والقوانين الاخرى لسد حاجات التكافل الاجتماعي ، ولم يكن في بيت المال ما يقوم بتلك الحاجات فقد أنتقل واجب القيام بها الى أموال الناس ، بحيث يؤخذ منها ما يسد تلك الحاجات ، مهما استنفذت من تلك الثروات . وقد فطن العالم في العصر الحديث الى هذه الحقيقة وبدأ ينادي بالتكافل الاجتماعي بين افراد المجتمع مع أن الاسلام قد فطن الى هذه الحقيقة منذ اربعة عشر قرناً، فبعد أن قرر لكل مواطن تلك الحقوق الخمسة التي

لا تتم كرامة الانسان وسعادته بفقدان واحد منها ، نظر الى الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بها ، فاعتبر المجتمع هو المسؤول عن تحقيقها لهم فكرة (التكافل الاجتماعي) في عدالة الاسلام الاجتماعية .

الاخاء: لم يكتف الاسلام بإبراز حقوق الانسان الطبيعية بل عنى كذلك بمبادئ اجتماعية قيمة: فنادى بالإخاء ، وهو رابطة روحية سامية تجعل المجتمع عشيرة واحدة يتعاون افرادها في سبيل الخير ، ودفع الشر ، كل عضو في المجتمع مسؤول عن إخوانه في دائرة اختصاصه والفرد مسؤول عن الجماعة ، والجماعة مسؤولة عن الفرد ، يتضافر الجميع فيما يعود بالنفع الفردي والجماعي. والاسلام لا يعترف بالفروق المصطنعة التي اوجدها البشر ، لتكون مانعة من إخائهم : فلا اللون ولا الجنس ولا اللسان ولا المال ، ولا النسب يسوغ لها، كلها او بعضها ان تحرم الناس من الاخاء ، بل إن أختلاف الالسنة والالوان ليس الا آية من آيات الله ، ومظهراً من مظاهر قدرته: (ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتك وأموالكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين).

وقد رسم الاسلام للآخاء مبادئ تتلخص في الحديث الشريف :(أحب لأخيك ما تحب لنفسك)، ومن تلك المبادئ :-

١-الوفاء بالعهد بين الافراد في المعاملات الفردية : (وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولا)، اي يسأل صاحبه يوم القيامة.

٢-الامانة : وهي مظهر من مظاهر الشرف، والاحساس النبيل والضمير الحي : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها)، والاسلام إذ يحرص على الامانة إنما يبغي سعادة المجتمع بتقليل آساب العداء وشر الثقة بين الناس فتقوى رابطة الاخاء بينهم .

٣-المحافظة على الدماء والاموال والاعراض: حتى لا نشيع البغضاء بين افراد المجتمع ويظلوا إخوة متحابين

٤-التعاون في شتى صوره: وهو يوثق المودة بين المواطنين قال (ص) : (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا). وقد ضرب المسلمون الاولون الامثال في التناصر والتعاون فهذا النبي (ص) يؤخي بين المهاجرين والانصار .

٥-الامر بالمعروف والنهي عن المنكر : إذ لا يجوز للمسلم ان يترك اخاه المسلم في ضلاله، بل لابد أن يمد ، وأن ينقذه مما يتردى فيه ، وبذلك لا ينحرف الناس عن طريق الخير ، وتقل الشرور ، وتتألف القلوب ويسود الاخاء بين المجتمع.

المساواة : وشرع الاسلام مبدأ المساواة في الحقوق والتكاليف واصبح الناس سواء لا يخير احدهم عن الاخر جنس، او حسب ، او غنى . وحتى الاقليات الدينية ضمن لها الاسلام المساواة . قال(ص): (الناس سواسية، كأسنان المشط الواحد) وحكمة الاسلام في ذلك ، ان

الشعب – أذا أنس من حاكمه أنه يعدل بين الناس جميعاً، فلا يؤثر غنياً على فقير ، ولا صديقاً على خصم – اطمأنت نفوس الناس ، وأيقن كل واحد انه لابد أن ينال حقه، مهما كانت مكانته في المجتمع.

وقد حث النبي (ص) على المساواة بقوله: (أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه). وقوله: (كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته).

وقد ضرب الرسول (ص) مثلا طيباً في المساواة ، في غزوة الخندق ذلك أنه لما اتفق المسلمون على حفر الخندق حول المدينة، كان (ص) اول من أمسك بالفأس ليعاون المسلمين ، ومساوياً نفسه بهم ولذلك اندفع الجميع حتى أتموا الحفر ، في مدة وجيزة. وهذه المساواة هي الديموقراطية الصحيحة. هي ديموقراطية الاسلام.

وقد ساوى الاسلام بين الرجل والمرأة، ولم يفرق بينهما الا حيث تدعو الى ذلك طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ، ومراعاة الصالح العام ، صالح الاسرة ، وصالح المرأة نفسها : ولو نظرنا في تاريخ الاحقاب السابقة للإسلام ، لوجدنا ان الامم القديمة لم تعط المرأة مكانتها اللائقة بها ، فكانت المرأة مهضومة الحق ،؟ مهيضة الجناح ، ينظر إليها على أنها لا ترقى الى مستوى الرجل ومكانته ، لا بطبيعة تكوينها ، ولا بمؤهلاتها وملكاتها، التي تكون شخصيتها: فعند الاغريق ، كان أفلاطون يرى ، في كتابه (الجمهورية) أن من الواجب تداول المرأة ، كسائر الأشياء الأخرى. وعند الرومان نص القانون على أن للرجل حق السيادة المطلقة على المرأة ، حتى أنه كان له أن يقتلها ، إذا شاء . واتفق الأغريق والرومان على أن المرأة شيء يمتلك ، كسائر الأشياء، التي تمتلك بالشراء أو بالتنازل ، وانها – عند زوجها– أشبه ما تكون بفرسه ، او سلاحه، قد يؤجرها او يقرضها.

فلما أشرق الاسلام بنوره، ونزل القرآن اعتد بالمرأة وخاطبها الله تعالى بمثل ما خاطب الرجل وكلفها الاسلام عقيدة ومعاملة ،بمثل ما كلف به الرجل ، وسوى بينها وبينه في القيمة الانسانية، وفي النواحي الروحية ،وسفه كثيرا من العادات التي كان يقررها المجتمع بالنسبة للمرأة فكلاهما في نظر الاسلام من جوهر واحد، ومن عنصر واحد ، وليس لاحدهما من مقومات انسانية أكثر مما للأخر. يقول تعالى (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم ، من ذكر وأنثى ، بعضكم من بعض)– أي أن الله لا يفرق بين الإناث والذكور في الجزاء على العمل، ولا يضيع عمل عامل منهم ، وان الذكور من الاناث والاناث من الذكور. ويقول تعالى (يأيها الناس اتقوا ربكم ،الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيراً ونساء). وبهذه الآية يقرر الله أن المرأة من نفس عنصر الرجل، لا من عنصر آخر ، فالمرأة والرجل زوجان ، يبث الله منها الخلق كله . والتسوية بين المرأة والرجل تقررها آيات كثيرة ، مثل قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)، وقوله: (

أيحب الانسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من منى يمنى، ثم كان علقة ، فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى)- فالذكر والانثى يكمل كل منهما صاحبه ، في نشأة هذا النوع. فالمرأة مخلوق عاقل مستقل ، وهي في نظر الاسلام مكلفة كالرجل. سواء بسواء ، ووعدها الله كما وعد المؤمنين . مادام كل منهما مكلفا. يقول تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة). وقل في آية أخرى : (من عمل سيئة ، فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً، من ذكر أو أنثى . وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب).

وبذلك قضى الاسلام على ما كان سائداً من قبل عن طبيعة المرأة : فقد كان يقال إنها من عنصر خبيث، ومن طبيعة وضيعة، بالقياس الى طبيعة الرجل وكانت من نتائج تلك العقيدة أن ظهرت عادة التخلص من البنات ، بقتلهن او وأدهن عقب ولادتهن ، الامر الذي اشتهرت به بعض القبائل العربية قبل عصر النبوة.

لقد سوى الاسلام بين المرأة والرجل في جميع الحقوق المدنية ، لا فرق في ذلك ان تكون المرأة متزوجة او غير متزوجة فالزواج في الاسلام يختلف عن الزواج في معظم الامم المسيحية ، في انه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها في التعاقد ، ولا حقها في التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها ، محتفظة باسمها واسم اسرتها وبكامل حقوقها المدنية ، وبأهليتها في تحمل الالتزامات واجراء مختلف العقود : من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما الى ذلك محتفظة بحقها في أن تتملك تملكاً، مستقلاً عن زوجها ، او غيره، إذا أرادت . وأجاز لها الاسلام كذلك الاشتغال بالتجارة والصناعة وليس من حق الزوج منعها من ذلك، خصوصاً إذا كان الغرض مساعدته على القيام بأعباء الحياة . لكن اشترط ان تؤدي عملها في وقار وحشمة بعيدة عن الشبهات ، ونطاق الفتنة ، بما لا يؤدي الى ضرر خلقي او اجتماعي ، او يعوقها عن أداء واجباتها نحو زوجها وبيتها واولادها.

وسوى الاسلام كذلك بين الرجل والمرأة في حق التعلم : فأعطى المرأة الحق نفسه الذي أعطاه للرجل في هذه الشؤون ، واباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علمة وأدب وثقافة وتهذيب، بل وخصها على ان تتعلم وتخرج من ظلمات الجهل الى رحاب العلم المنيرة، وأوجب عليها ذلك ، في الحدود اللازمة لوقوعها على امور دينها ، وحسن قيامها بوظائفها في الحياة . وقد حث الرسول (ص) النساء على طلب العلم وجعله فريضة عليهن ، في هذه الحدود فقال (ص): (طلب العلمة فريضة على كل مسلم مسلمة). وضرب(ص) أروع مثل في الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعلة مع زوجه (حفصة)، أم المؤمنين عندما تزوجها (ص) إذ طلب الى الشفاء العدوية التي كانت تعلم الفتيات في الجاهلية، أن تتابع تثقيفها لحفصة ، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه ، كما علمتها الكتابة ، وهذه (أم سليم)وهي من هي في

مكانتها ومنزلتها تقول للرسول (ص): (غلبنا عليك الرجال ، يا رسول الله ، فاجعل لنا يوماً من نفسك). فوعدهن يوماً لقيهن فيه . وهذا يبين أن النساء والرجال كانوا يحضرون دروس العلم ، ويتلقون مختلف المعارف الاسلامية عن الرسول (ص). وقد كان الدافع لأم سليم على هذا الطلب حرص النساء على أن يحصلن أكبر قسط من المعرفة، وأن يكون لهم من النبي (ص) وتعليمه أوفر نصيب وهذا لا يتيسر ، عند اجتماعهن بالرجال في مجلسه (ص) ، لحياء المرأة ، وترفعها عن أن تزاحم الرجل في سؤال أو استفسار .

وهناك ما يثبت ان ميادين التعلم بمختلف صنوفها كانت مباحة للفتاة العربية وأنه قد نبغ منهن بفضل ذلك عدد كبير منهن وبرزن في شتى انواع المعرفة والفنون بل ظهر بينهن متعلمات فضليات كن مراجع في الدين. ومن اولئك: السيدة عائشة ، زوج النبي (ص) ، إذ كانت المرجع الاول في الحديث والسنة. ولا يفرق الاسلام في حق التعليم بين الحرة والامة ، بل إن الرسول (ص) اهتم بتعليم الأمة ، اكثر من اهتمامه بتعليم الحرة ، يؤيد ذلك قوله: (أيما رجل كانت عنده وليدة (أمة) فعلمها فاحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران).

وقد سوى الاسلام بين المرأة والرجل في حق العمل : فأباح لها أن تقوم بالأعمال المشروعة التي تحسن أداءها ، ولا تتنافى مع طبيعتها ، بما يحفظ لها كرامتها ويصونها عما يتعارض مع الخلق الكريم . وفي عصر النبوة ، كان النساء يقمن بأعمال كثيرة: فأسماء بنت ابي بكر كانت تقوم بالأعمال المنزلية كلها، وتسوس فرس زوجها، وتعلفها وتحمل النوى على رأسها من أرض ، لزوجها على مسافة ثلثي فرسخ. وقد ساهمت المرأة المسلمة في الحرب ، في عهد النبي (ص) فقامت بواجبها ، ولم تخل غزوة من غزوات الرسول (ص) من نساء يقمن بمساعدة الجيش مواسين المرضى، وضمدن الجرحى وناولن السهام وقاتلن مع المقاتلين ومن بين هؤلاء من حفظ لهن التاريخ مواقف بطولة مجيدة ، كالسيدة أمية بنت قيس الغفارية ، التي اكبر الرسول (ص) حسن بلائها، في غزوة خيبر فقلدها بعد هذه الغزوة قلادة تشبه الاوسمة الحربية، في عصرنا الحاضر ، ظلت هذه القلادة تزين صدرها طوال حياتها ولما ماتت دفنت معها عملاً بوصيتها .

ولم يفرق الاسلام بين الرجل والمرأة حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين ، وما يصلح له. ومن اهم الامور التي قرر الاسلام فيها هذه التفرقة امران هما : الاعباء الاقتصادية ، والقوامة على الاسرة : فلم يضع الاسلام على كاهل المرأة أي عبء من الاعباء الاقتصادية ، اللازمة لمعيشة غيرها ، أو لمعيشتها هي نفسها ، ووضع كل ذلك على كاهل الرجل: فجعل نفقتها ونفقة بيتها واولادها واجبة على زوجها، اذا كانت متزوجة ، سواء أكانت موسرة أم معسرة، وجعل نفقتها على اصولها ، او فروعها ، او اقربائها ، حسب ترتيب الفقه الاسلامي ، فيما يتصل بالنفقة ، ان لم تكن متزوجة. فان لم يكن لها قريب ، قادر على الانفاق

عليها ، فنفقتها على بيت المال. ويتصل بالناحية الاقتصادية موضوع ميراث المرأة . والواقع أن المرأة لم تكن ترث– قبل عصر النبوة – فجعل لها الاسلام الحق في أن ترث، ونزلت آيات كثيرة . تقرر ذلك ومنها قوله تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ،وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، مما قل منه، او كثر ، نصيبا مفروضاً). فالميراث حق أوجبه الله للمرأة ، وليس منحة أو هبة ، ولكن الله سبحانه وتعالى حدد نصيب المرأة بأن جعل (للذكر مثل حظ الانثيين). وفي هذا التقسيم حكمة : فالرجل يتولى الانفاق على بيته، وعلى اخوته، وعلى امه، فإنفاقه أكثر من المرأة. ومن الواجب ان تعرف المرأة فضل الاسلام عليها: فالمرأة أم واخت وزوجة وهي في كل ذلك يقوم من ينفق عليها : فالزوجة لزوجها ، والبنت لأبيها ، والأخت في رقبة اخيها ، فكل اخ يرعى اخته ويتولاها ما دامت لا تخالفه فيما نهى الله عنه والامة حين تفقد عائلها تجد أبناء ينفقون عليها ، فان لم تجد فأهلها .

أما الأمر الثاني ، الذي رأى الاسلام فيه التفرقة بين الرجل والمرأة فهو القوامة على الاسرة ، وقد اعطى الاسلام الرجل هذا الحق لسببين : اولهما ، ان الرجل هو المكلف بالانفاق على الاسرة ، ليسمن العدل أن يكلف احد الانفاق على شخص آخر ،دون أن يكون له القوامة عليه والاشراف على شؤونه. وثانيهما ان المرأة شديدة الانفعال يسيطر الوجدان على مختلف نواحي حياتها النفسية ، وذلك من نعم الله عليها لتقوم بوظيفة الامومة والحضانة على خير وجه . والوجدان الرقيق والحنان الشديد من مظاهر كمال انوثتها واستعدادها للقيام بوظائفها بينما الرجل يغلب عليه الادراك والتفكير وهما صفتان لازمتان للقوامة والرياسة .

والى هذين السببين الرئيسين يقول (جل شأنه): (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من اموالهم)، ففي عبارة (بما انفقوا من أموالهم) إشارة الى السبب الاول – وفي العبارة : (بما فضل الله بعضهم على بعض)، إشارة الى السبب الثاني ، هو ما خير الله تعالى ، به الرجال من صفات تجعلهم أفضل وأصلح في شؤون الرياسة والقوامة.

الفصل الثاني

انتقال الخلافة من العصر الراشدي الى الاموي

يمكن القول إن إنهيار خلافة الإمام علي (ع) الذي حاول إرساء قواعدها على أساس المساواة والعدل، لم تحدث عند اغتياله من قبل عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، وإنما بدت ملامح ذلك الانهيار عند وقف القتال في تمرد صفين الذي قاده معاوية بن أبي سفيان ضد

الإمام علي(ع) ، ومن ثم فرض قبول التحكيم على الإمام من قبل الاستسلاميين والمخدوعين في جيشه ، إذ كان ذلك بداية النهاية لحكمه ، وانتهاء العهد الذي قام بعد وفاة رسول الله (ص) ، أو ما اصطلح علي تسميته بالعهد الراشدي ٠

لقد هيأ ذلك الحدث ، قيام حقبة جديدة ، مكنت معاوية زعيم الأسرة الأموية التي قادت معارضة الإسلام ، وعادت رسول الله حتى تم فتح مكة سنة ٨ هـ ، أن يحط قدمه على مرقاة المنبر النبوي الأولى ، حيث بايعه أهل الشام بعد إعلان نتيجة التحكيم بالخلافة فزاده ذلك قوة، وقد وصف النجار خدعة التحكيم بالقول : كانت مأساة في تاريخ الإسلام، بل ومهزلة يعف عنها صغار الأحلام، فجاءت هذه الظاهرة لتلغى ما كان متعارفاً عليه من شروط في السبق والهجرة وصحبة رسول الله، ورأي أهل الحل والعقد (المهاجرون والأنصار) لتحل محلها القوة والغلبة في الاستيلاء على الخلافة فكان ذلك بداية لسلطان معاوية بن أبي سفيان على المسلمين ، الذي كان قبل ذلك بقليل إذا غلظ القول مع احد أو تخاصم معه نبزه بتاريخه وتاريخ أسرته بأنه طليق وابن طليق ، ولو إن هذا الوصف أحياناً ما يلقى على مسامعه وهو في عز حكمه دون وجل منه لأنه كان مفروضاً عليهم ولم يكن عن رغبتهم، وفي هذا السياق قال الخضري (لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعتمد من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة).

لقد شهدت أواخر خلافة الإمام علي (ع) خصوصاً بين ٣٨ هـ – ٤٠ هـ ، أحداثاً جساماً ، منها سيطرة معاوية على مصر ومن ثم قتل واليها محمد بن أبي بكر بطريقة وحشية ، إذ اخذ معاوية بن حديج ، قائد معاوية، محمداً ، ووضعه في جلد حمار ثم احرقه عطشاناً ثم دسَّ معاوية السم إلى مالك الاشتر الذي أرسله الإمام علي ليتسلم ولاية مصر من محمد بن أبي بكر قبل مقتله.

إن مبايعة أهل الشام لمعاوية بالخلافة ، جعلنا نشاهد لأول مرة بعد وفاة رسول الله (ص) ظاهرة وجود خليفتين في آن واحد ، الإمام علي بن أبي طالب الخليفة الشرعي، الذي بايعه أهل الحل والعقد في المدينة ، ونال رضا الأغلبية من المهاجرين والأنصار ومقره الكوفة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والي الشام المتمرد، الذي اعتبر ما تم تدبيره في التحكيم من قبل عمرو بن العاص ، ووقوع أبي موسى الأشعري في مصيدته، سنداً يخوله الخلافة فبويع بها في الشام، في حين إن هذه النتيجة غير لازمة في التحكيم لأنه لم يأت في شروط التحكيم بصورة صريحة ، النظر في خلافة الإمام علي(ع) .

إلا إن الشيء الخطير الذي قام به معاوية بدأ من سنة ٣٩ هـ ، هو القيام بسلسلة من العمليات الإرهابية على أعمال ولايات الإمام علي(ع) ، سببت خسائراً في الأرواح والأموال ، ولم يستطع الإمام علي (ع) من صدها إلا بشق الأنفس ، بسبب التخاذل الذي سرى في نفوس المقاتلين

والتقاعس عن جهاد عدوهم ، وربما تعود هذه الظاهرة إلى الدور ألتأمري الذي المحنا إليه سابقاً ، من قبل معاوية في بذل الوعود وشراء الضمائر .

لقد سببت هذه الظاهرة ألماً رأينا صداه في الخطب التي وجهها الإمام علي(ع) لأتباعه ، فهي تمتلئ بالأسى والأسف وتفيض لوعة وحزناً عميقاً ، فقال في أحداها: (ويحكم يوماً أناجيكم ويوماً أناديكم ، فلا أُجاب عند النداء ، ولا إخوان صدق عند اللقاء، أنا والله منيت بكم ، صمٌ لا تسمعون بكمٌ لا تنطقون).

كما تنبأ الإمام علي (ع) بخطبة أخرى له ، إذ ظل ديدنهم على هذه الشاكلة من خصومهم ، فأن أعداءهم سوف يظهرون عليهم مع باطلهم ، فقال: (إني والله لأظن إن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم إمامكم في الحق ، وطاعتهم إمامهم في الباطل).

إن هذا التراخي والتخاذل الذي طغى على القوم ، يمكن أن نعيده فضلاً عن عمليات شراء الضمائر التي اتبعها معاوية بالمال والإغراء ، فأن العراقيين لم يتعودوا على ما جاء في خلافة الإمام علي (ع) التي يصبح المواطن قوة فعالة ، تضمن له الدولة حقوقه ، ويضمن هو للدولة واجبه نحوها في البناء والجهاد في الإنتاج وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [فقد] كان أنموذج الكوفة هو أنموذج التسْيِّر الذاتي ، فالدولة هي المواطنون وهي المجتمع وليس قوة فوقية رابضة فوق الناس تخنقه وتزهق روحه وتستعبده.

إن هذه المفاهيم تجديد للمبادئ الإسلامية التي بشر بها رسول الله وأرسى قواعدها في أسس دولته في المدينة ، إلا إن مرور السنين أنستهم إن السلطة نابعة منهم ، فتعودوا على القوة والأوامر المشددة ، وقطع العطاء والنفي ، لذلك طغت اللاأبالية على المسؤولية ، وعليه فأن حمل الكافة على الضبط والالتزام الدقيق بالأوامر والنواهي ، وإلغاء الفوارق في العطاء ، لا بد وان يصاحبه شعور بالتململ والنفرة ، يمكن القول انه أقرب إلى التمرد الداخلي ، لأن برنامج علي (ع) لا يطيقه إلا المخلصون المؤمنون ، فتغير الحال ، وصار زمام المبادرة بيد معاوية ، وتحول الموقف لصالحه، فبدل أن يكون معاوية في موقع الدفاع ، والإمام علي(ع) في موضع الهجوم ، صار الأمر بالعكس ، معاوية وأهل الشام يهاجمون ، والامام علي(ع) وأهل العراق يدافعون .

وكما قال احد الباحثين ، فإن علياً(ع) جاء إلى الحكم في وقت تآمرت عليه الأطراف المختلفة ، بما فيها المحسوبة عليه ، والمقاتلة بين قواته ، كما جاء في ظل ظروف لا تشجع على الحكم ولا تساعد مطلقاً على إحداث التغيير المنشود.

هذه الأمور مجتمعة ، جعلت خلافة الإمام علي(ع) تنحسر ظلالها بصورة فعلية، وسيطر معاوية على المسرح السياسي ، ليس ببذل الأموال فحسب ، بل لجأ إلى أسلوب جديد استوحاه

من فكر جاهلي ضال ، وهو القيام بسلسلة من الحملات الإرهابية ، حاول من ورائها إرغام أتباع الإمام علي(ع) على التخلي عن الولاء له ، لاسيما وان تلك الحملات صاحبتها قساوة غير اعتيادية من قتل وتشريد ونهب الأموال ، كما طال ذلك الإرهاب غير المسلمين من المعاهدين (أهل الذمة) .

وبناءً على ذلك ، فإن خلافة معاوية لا تبتدأ بشهادة الإمام علي(ع) أو بصلح الإمام الحسن(ع) عام ٤١ هـ مع معاوية ، وإنما بدأ سلطانه بعد نهاية التحكيم الذي جعل يد معاوية تمتد إلى أقصى ولايات جمهورية الإمام علي ، ومن ثم صيرورته سلطاناً للمسلمين .

أما كيف تحقق هذا المستحيل ، فيمكن أن نجد في قول المستشرق روجرسون جواباً لذلك ، إذ قال : إن علي(ع) يمتلك النبالة ورفض الدخول في اللعبة القذرة في سياسات القوى القبلية ، لذلك حال هذا أن يكون زعيماً سياسياً ، والواقع أن هذا الرأي الذي توصل إليه هذا المستشرق يرجع إلى إنه أدرك إن الإمام علياً(ع) تتمثل فيه الزعامة الروحية التي تستند على شحنات عالية من الأيمان الخالص الذي صرح عنه الإمام علي(ع) بوضوح في قوله : " انه لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب "، فالإمام علي(ع) ليس غافلاً عن أساليب الدهاء واللف والدوران ، لكن يحول دون ذلك الوازع الديني والضمير الإنساني ، ثم يعود هذا المستشرق ليصف موقف الإمام علي(ع) بأسلوب أخاذ ، بأنه جزء من الجمال الحقيقي الذي تحلى به الإمام علي(ع) ، لذلك فأن هذا شاهد ودليل على أن أجمل المثل على الإطلاق لا بد أن تتلاشى في العالم القذر لدنيا السياسة على حد وصف هذا المستشرق ، لذلك اختار الإمام علي(ع) طريق المعاناة وفضلها على طريق التسويات ، ويضيف انه يقول الحقيقة مفضلاً هذا على ربح أو كسب يأتي عن طريق الرياء والنفاق والرشوة ، لذلك فهو لم يطمح إلى مال أكثر من يحتاجه لسقف يؤويه ولباس يستر بدنه وطعام يكفي ليشاركه فيه كل صاحب حاجة، وعليه فإن قول هذا المستشرق ينسجم تماماً مع ما صرح به الإمام علي(ع) الذي أكد فيه على إن الدين والتقوى تبعدانه عن مهاوي المكر والدهاء ، وهذا يعني إن الحق طريقه حتى لو كلفه قلة ناصريه .

لكن الأمة غدرت بعلي(ع)، وكما قال له رسول الله ، ضغائن في صدور القوم لا يبدونها لك إلا من بعدي ، أحقاد بدر وثرات أُحد ، ولعل هذه العمليات الإرهابية جزء من تلك الأحقاد التي تغلي في صدر معاوية ضد الإمام علي.

الأمويون (السفيانيون) في دمشق

١- أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان

٢ أبو خالد يزيد بن معاوية

٣ أبو ليلى معاوية بن يزيد
ملك أربعين يوماً
الأمويون (المروانيون)

٤ أبو عبد الملك مروان بن الحكم
٥ أبو الوليد عبد الملك بن مروان

٦ أبو العباس الوليد بن عبد الملك

٧ أبو أيوب سليمان بن عبد الملك

٨أبو حفص عمر بن عبد العزيز
سقي سماً؟؟
٩ أبو خالد يزيد بن عبد الملك
١٠أبو الوليد هشام بن عبد الملك
١١ أبو العباس الوليد بن يزيد
قتل
١٢ أبو خالد "الناقص" يزيد بن الوليد
١٣ أبو إسحاق إبراهيم بن الوليد خلع ثم قتله العباسيون في وقعة الزاب
١٤ أبو عبد الملك "الجعدي الحمار" مروان بن محمد قتله العباسيون في وقعة الزاب

حدود الدولة الأموية في أقصى اتساع لها

لم يكن يدور بخلد المروانيين من بني أمية، وهم يغادرون المدينة مقهورين بعد أن أوصدت جميع الأبواب في وجوههم، أنهم على قيد خطوات قليلة من المجد والملك، وأنهم يسيرون نحو بناء إمبراطورية عظيمة وتشييد عرش من الأمجاد المتواصلة والشرف الرفيع.

فقد كانت المدينة معقلا لعدد من معارضي حكم بني أمية، وقد التف حولهم عدد كبير من الأنصار والموالين، ولم تفلح محاولات "مروان بن الحكم" . عامل "معاوية بن أبي سفيان" على المدينة . لدفعهم إلى البيعة ليزيد بن معاوية حينما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه من أهل الحجاز، فقد ثار هؤلاء المعارضون، وعلى رأسهم "الحسين بن علي" و"عبد الله بن الزبير"

و"عبد الله بن عمر" و"عبد الله بن العباس" و"عبد الله بن أبي بكر"، وعارضوا هذا الأمر بشدة، فكتب مروان إلى "معاوية" بذلك؛ فقدم معاوية إلى المدينة، وحاول إقناعهم، ولكنهم أبوا، فما كان منه إزاء عنادهم وإصرارهم إلا أن توعدهم بالقتل، وأخذ منهم البيعة لابنه بالسيف على رؤوس الأشهاد.

الحكم بعد معاوية

وبعد وفاة معاوية اعتلى يزيد عرش الخلافة، وامتنع عن بيعته الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، واجتمع زعماء الشيعة لمبايعة الحسين، وأرسلوا إليه يحثونه على الخروج إليهم في "الكوفة" ووعدوه بالنصرة والتأييد، والقتال معه حتى تصير إليه مقاليد الخلافة، ولكن رجال يزيد بن معاوية استطاعوا أن يرصدوا تحركات الحسين، واستعدوا لإحباط محاولته الوصول إلى الكوفة، وأسفر الأمر في النهاية عن معركة "كربلاء" الشهيرة التي قتل فيها الحسين، وحُملت رأسه إلى يزيد في دمشق.

أما عبد الله بن الزبير الذي لم يجرؤ على الجهر بطلب الخلافة في حياة الحسين؛ لأنه كان يرى أحقيته بها، فقد وجد –بعد مقتل الحسين– أنه أحق بالخلافة، خاصة بعدما اجتمع حوله عدد كبير من أصحابه وبايعوه بالخلافة، وإن كان ذلك قد تم بصورة سرية.

وطارت الأخبار إلى يزيد بما فعله ابن الزبير، فصمم على الانتقام منه، وازداد الأمر تعقيدًا بعد أن ثار أهل المدينة أيضًا، وخلعوا يزيد بتحريض من ابن الزبير وطردوا عامله، ونادوا بخليفة ثالث هو "عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر".

ولم يجد يزيد إزاء كل هذه الأحداث والانقسامات بدًا من الحرب، فأرسل جيشًا إلى المدينة فاستباحها ثلاثة أيام، أسرف خلالها في القتل والسلب والنهب، ثم اتجه بعد ذلك إلى مكة فحاصرها في أوائل سنة [٦٤هـ= ٦٨٣ م]، وكان ذلك أول حصار لمكة في تاريخ الإسلام.

إحراق الكعبة

كان عبد الله بن الزبير يظن أن حرمة مكة ستمنع قوات يزيد من اقتحامها وتخريبها كما فعلت في المدينة، ولكنه كان واهمًا فيما ذهب إليه، فقد صوب المهاجمون المجانيق نحو الكعبة، وضربوا بيت الله الحرام بعنف، حتى تهدمت الكعبة واحترقت في [٣ من ربيع الأول ٦٤ هـ= ٣٠ من أكتوبر ٦٨٣م]

واقتحم المهاجمون مكة ودار قتال شرس بين الفريقين، وفي تلك الأثناء جاء الخبر بوفاة يزيد، فكف المهاجمون أيديهم عن القتال، والتقط المدافعون أنفاسهم.

وأرسل الحصين بن نمير الكوفي قائد جيش يزيد إلى ابن الزبير يطلب وقف القتال، ويدعوه إلى الذهاب معه إلى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها بعد أن بايع له أهل الحجاز (مكة والمدينة)، وأهل العراق (الكوفة والبصرة)، وأهل مصر، واليمن، وخراسان، ولم يبق إلا أهل الشام.

ولكن ابن الزبير رفض، وأراد أن يجعل مركز خلافته في الحجاز، فعاد الحصين بجيشه إلى الشام، وبذلك انتقلت الخلافة إلى "معاوية بن يزيد" الذي لم يتجاوز عمره الثمانية عشر عامًا، ولكنه كان مريضًا ضعيفًا، يغلب عليه الزهد في الدنيا والتفكر في الآخرة، فشعر أنه لا يستطيع القيام بأعباء الخلافة، فتنازل عنها، وما لبث أن تُوفِّي بعد ذلك بأيام قليلة.

مروان بالحكم

قفز "مروان بن الحكم بن العاص" إلى السلطة على إثر اجتماع تاريخي لكبار بني أمية وأعيانهم، عقد في "الجابية" في [٣ من ذي القعدة ٦٤ هـ= ٢٢ من يونيو ٦٨٤م] قرروا فيه البيعة لمروان بن الحكم، وكان شيخًا كبيرًا قد تجاوز الستين، يتمتع بقسط وافر من الحكمة والذكاء وسداد الرأي، وكان شجاعًا فصيحًا يجيد قراءة القرآن، ويروي كثيرًا من الحديث عن كبار الصحابة، وبخاصة "عمر بن الخطاب"، ويعد هو رأس "بني أمية" بالشام.

ووضع المجتمعون اتفاقًا تاريخيًا لتجنب أسباب الفتنة والشقاق، واشترطوا أن تكون ولاية الحكم لـ "خالد بن يزيد" من بعد "مروان"، ثم "عمرو بن سعيد بن العاص"

وكان مروان قد سطع نجمه في عهد ابن عمه الخليفة "عثمان بن عفان" الذي قربه إليه، وجعله مساعدًا ومشيرًا له، وكان كاتبه ومديره، فلما قُتل عثمان كان مروان أول من طالب بدمه، ثم بايع "عليا بن أبي طالب"، فلما حدثت واقعة الجمل اعتزل الحياة السياسية، فلما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ولاه على "المدينة"، وكان أقوى المرشحين لاعتلاء عرش "بني أمية" بعد وفاة معاوية بن يزيد (معاوية الثاني.(

ومن العجيب أن مروان وأسرته كانوا قد قضوا حياتهم كلها في الحجاز، ولم ينتقلوا إلى الشام إلا في نهاية [ربيع الآخر ٦٤ هـ= ديسمبر ٦٨٣م]، أي قبيل البيعة لمروان بستة أشهر فقط!!

أولاً: اسمه ونسبه وحياته قبل خروجه على ابن الزبير:هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملقب أبو عبد الملك القرشي الأموي، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، ولد بمكة، وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، وروى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد بن جبر، وابنه عبد الملك، وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عنه يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش، وكان يتتبع قضاء عمر، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية ، وكان إذا وقعت معضلة –أثناء ولايته على المدينة– جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان، وكان ذا مكر

ودهاء، وكان شديد الحب لبني أمية، وكان متحمسًا لبيعة يزيد بن معاوية، ولما توفى يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي الراجع من حصار مكة الأول، وكان خروج بني أمية برغبتهم، ولم يبايع مروان ابن الزبير، والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودون بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحاته للزعامة، وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هي الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده –عبد الملك، وعبد العزيز– بولاية العهد، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وأثنوه عن عزمه وأقنعوه أن يدعو لنفسه ، وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر في ذلك الأمر لاسيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير في معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بني أمية في بلاد الشام، وضعف موقفهم فإننا لا نعتبر ذلك مناقضًا لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما في الموقف الذي اتخذه، وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته والخروج عليه، ولقد سار مروان في محاربته لابن الزبير على الخطوات التالية القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام، وأهم الأحداث بالشام كان مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط إعادة مصر إلى الأمويين محاولة إعادة العراق والحجاز تولية العهد لعبد الملك وعبد العزيز –بعد أن تزعم المعارضة الأموية– بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، ولأهمية مؤتمر الجابية إليك تفصيل ما جرى فيه .

١–مؤتمر الجابية: ظلت الأردن –موطن الكلبيين– وعلى ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصًا على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذي عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزًا للخلافة لم يكن أمرًا عاطفيًا غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، أثبتت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخي، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني، والوجود الأموي بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة، وتشقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك– صراعًا عنيفًا بين القبائل القيسية واليمانية، ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بين قيس الفهري إليهم، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد، والذي كان يُشرف –آنذاك– على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني، بينما تشبث الكلبيون – رغم الضعف الظاهري لمواقفهم في ظل هذه البيعة

الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم وتربى فيهم يزيد ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون، فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام، في الوقت الذي يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير، ويفضل هذا الفريق البيعة لمروان بن الحكم، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية، للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك ابن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط.

أ–الممارسة الشورية في مؤتمر الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمرًا تاريخيًا يمكن أن يوصف بلغة السياسة بأنه كان مؤتمرًا دستوريًا، وقد حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأي من أهل الشام، وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة في القرار المصيري، ونستطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشورية النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة – غير بني أمية– قد عرضت للبحث، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل، كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامي أحد زعماء الشام، حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف، وأمام ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير، ويدعون إليه من أمره فهو –والله– كما يذكرون، إنه لابن الزبير، حواري رسول الله وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق، ذات النطاقين، وهو –بعد– كما تذكرون قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام من صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبوا الصغير –يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية– فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد ، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات ، وقد دارت نقاشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا، ومن هؤلاء الزعماء، حسان بن مالك بن بحدل الكلبي والحصين بن نمير السكوني، وروح بن زنباع الجذامي، ومالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان ، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع

بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك

ب–أهم قرارات مؤتمر الجابية كانت عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة، وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، ومبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، وأن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفويًا، والاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين أتباع ابن الزبير في الشام بادئ الأمر .

ج– قامت زعامة مروان لمعارضي ابن الزبير على أساس الشورى، إذ انتخب بالاختيار الحر من الذين شهدوا المؤتمر وهم أهل الحل والعقد والشوكة والقوة في الشام، وبويع بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليته، شورية دستورية اتخذتها المعارضة لتقوية صفها، وبذلك صار في العالم الإسلامي –إذ ذاك– خليفتان: عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، ومروان بن الحكم الزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة في عاصمة الخلافة، ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير ، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزمة لبقية الأقطار والأمصار كلها، وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا ينتشر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء ، وقد نسب ابن حزم هذا الرأي لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام والصحيح بالنسبة لعهد ابن الزبير هو الأخذ بمبدأ الأكثرية أو الأغلبية، وإن كانت حجية إقرار بيعة أهل عاصمة الخلافة أخذ بها في بيعة الصديق والفاروق وذي النورين والحسن بن علي، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيرًا، فالأخذ بمبدأ الأكثرية للترجيح في تنازع قد قرره الإمام الغزالي حيث قال: يتم الترجيح بينهم بتقديم من انعقدت له البيعة من الأكثر، والمخالف للأكثر باغٍ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق. وذلك هو الرأي الذي نؤيده، لأن حسم النزاع بترجيح أكثرهم حوزًا لرضا المسلمين هو ما يقضي به مبدأ حق الأمة الإسلامية في اختيار الخليفة ، فضلاً عن الأدلة الشرعية المؤكدة لترجيح رأي الأكثرية أو الأغلبية، نذكر منها: أن الرسول قد أخذ بما انعقد عليه رأي أغلبية المسلمين وإن بدا مخالفًا لرأيه، وذلك حيث علم بتحريك قوات المشركين في اتجاه المدينة لحربهم، فاستشار المسلمين، فرأى فريق منهم – وكان أكثرهم– الخروج إليهم، وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا بالمدينة، فلما رأى الرسول أن رأي الأغلبية مع الخروج أخذ برأيهم ووافق على الخروج للمشركين في أحد ،

وغير ذلك من الأدلة.. وقد أخذ مشروع الدستور الإسلامي الذي أعده مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بفكرة الإلزام برأي الأغلبية، حيث نصت المادة منه على أن تكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين في البيعة

٢-معركة مرج راهط :تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني، وانعقدت البيعة لمروان، وحل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بني أمية، وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً؛ فما زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص، وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحًا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين، فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها، وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، وكان أول فتح على بني أمية -على حد تعبير ابن الأثير- ولم يضيع مروان وقتًا، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان، حيث هزم القيسيون، أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام، واستمرت المعركة حوالي عشرين يومًا، وكانت في نهاية سنة ٦٤هـ، وقيل: في المحرم سنة ٦٥هـ.

نتائج مرج راهط أعادت هذه المعركة الملك لبني أمية بعد أن كان مهددًا بالزوال، وحولت السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني تخلص الأمويون من الضحاك بن قيس الذي كان يعد معارضًا قويًا للأمويين، وتابعًا مخلصًا لابن الزبير. سقطت قنسرين في يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا، وكان عليها عياض الحرثي -حسب قول ابن الأثير- سقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامي إلى ابن الزبير. سقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير اندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة، وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصرًا مؤقتًا، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية .

أسباب هزيمة القيسيين لم يرم ابن الزبير بثقله في تلك المعركة، وكان عليه أن يجيِّش الجيوش ويمد أتباعه بالرجال والأموال والسلاح ليقضي على المعارضين بالشام عندما كانت المعارضة لم توحد صفوفها بعد: - اعتماد مروان على رجال دهاة خبراء في الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو بن سعيد

- عدم اشتراك أتباع ابن الزبير في الشام كلهم، فقد شارك ولاة الشام التابعون لابن الزبير بأعداد من الجنود فقط - ترك الضحاك مدينة دمشق دون قوة تستطيع المحافظة عليها رغم أهميتها،

وهذا سهل للأمويين الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من أموال مكنتهم من الاستفادة من هذا الخطأ .

–بكاء مروان بن الحكم في مرج راهط وروي أن مروان بن الحكم لما جيء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك وقال: الآن حين كبرت سني ودق عظمي، وصرت في مثل ظمء الحمار، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض. وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط وقال: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك وفي رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة، ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء، وهذا الشأن. إن ندم مروان في مثل هذا الموقف وبعد أن تحقق له النصر، وتأكدت له طرق الحكم، وتمهدت له سبل الوصول إلى غايته، لدليل قاطع على ما كان يجيش به قلب مروان من عامل الخير، لقد كان هذا النصر جديرًا أن ينسيه كل منغصات الحياة، وكان فوزه بالخلافة حقيقًا بأن ينفي عنه كل ما يسبب له الندم، ويعكر له الصفو، فما بال مروان يندم وهو في هذه الظروف التي تزيل الهم عن النفس وتبعد الندم لطالبي الملك والزعامة والسلطان؟

وأغلب الظن أنه تورط في طلبه للخلافة، ودفعه إلى هذا المستنقع الآسن أناس لهم مصالح دنيوية لا تخفى، فشعر بوخز الضمير، وخاف على نفسه من سوء الخاتمة بعد أن ولغت يداه في دماء المسلمين من أجل الحطام الزائل.

الثَّا: ضم مصر إلى الدولة الأموية ومحاولة إعادة العراق والحجاز :مكّن انتصار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطوته التالية هي المسير إلى مصر لاسترادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة، واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبًا، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة ، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سرًا وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر، فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد بن معاوية، وحسان بن مالك، ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالبًا العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه وكان نجاح مروان في استرداد مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ ، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليًا عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له يا بني، عُمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينًا على غيره، ويَنْقَد قومه إليك، وقد

جعلت معك أخاك بشرًا مؤنسًا، وجعلت موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وما عليك يا بني أن تكون أميرًا بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟

بعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زيادة، وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير، ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئًا من أهدافها في عهد مروان؛ إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث في قرقيسيا، وعند مجئ عبد الملك أقر هذه الحملة –التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد– أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشًا من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز، ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة ، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان .

رابعًا: تولية العهد لعبد الملك ووفاة مروان بن الحكم :ختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسدًا لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين ، وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموي، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذي قرر في مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد، وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بتولية العهد لولديه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق، فوافق حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذي يطالب بولاية العهد بعد مروان، وأعلن ذلك بعد رجوعه من قتال مصعب بن الزبير عندما حاول إعادة نائل بن قيس الجذامي إلى فلسطين، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وذلك سنة ٦٥هـ مستعينًا بحسان بن مالك بن بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيد ابن الأشدق بأن الأخير هو ولي العهد، فقال حسان: أنا أكفيك عمرًا. لهذا جمع الناس وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد .

ويعتبر بعض المؤرخين أن من أهم أعمال مروان بن الحكم تولية ولديه ولاية العهد، وذلك لحفظ الخلافة في البيت المرواني من جهة، ولوضع حد للتنافس على الخلافة بين بني أمية من جهة ثانية، ولتفادي المشاكل التي ربما تحدث بشأن الخلافة، كما حدثت بعد موت معاوية الثاني ..

الخليفة معاوية بن أبي سفيان ٤١هـ :

- نسبه :

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .ولد قبل البعثة بخمس سنوات وقبل ال ول ١٠٠ من الإبل و١٠٠ أوقية من الفضة وكان من المؤلفة قلوبهم .اتخذه رسول الله كاتباً للوحي وقد روى عن رسول الله ١٦٠ حديثاً.

وروى عن الحسين والحسن وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير هجرة بثمانية عشر عاماً.

حضر معاوية الخندق وشاهد من قوة الله ما أصابه من هلع .أسلم يوم الحديبية وكان يكتم إيمانه ولاحظه والده أبي سفيان وأعلن إسلامه يوم الفتح .شهد معاوية مع الرسول غزوة حنين والطائف وأعطاه الرس.اختلف المؤرخون في كتبة معاوية هل هو كان كاتب أعمال رسول الله أو كاتب الوحي .أن العمل بين يدي رسول الله شرف للإنسان في أي شيء يخص رسول الله.وهذا دليل على ثقة رسول الله فيه وأنه أمين على أعماله.

منهج معاوية تجاه الأمة الإسلامية :

الإحسان إلى كبار الشخصيات من أبناء الصحابة وشيوخهم عامة وبنو هاشم خاصة الذين كان يعتقد أنهم أفضل منه وأولى بالخلافة منه فراح بدهائه يمتص غضبهم لحلمه ويتقرب إليهم حتى اجتمعت عليه القلوب .توكيد الأمن في جميع أرجاء الدولة الإسلامية وذلك أنه اصطنع عدداً من أعقل وأكفأ رجال عصره وأقدرهم وأقواهم حزماً وأخبرهم بالإدارة وسياسة الناس ليساعدوه في إدارة الدولة وكان هؤلاء الرجال صنفين :

أما من أهل بيته مثل أخيه عتبة بن أبي سفيان ، سعيد بن العاص ومروان بن الحكم . أو من أشد الناس إخلاصاً له وتنفيذاً لسياسته مثل : عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه .

أنه كان يباشر أمور دولته بنفسه وكان يعرف كل صغيرة وكبيرة فكان يكرس كل وقته للإشراف على أمور الدولة ومصالح الرعية .وبهذا المنهج الواضح ، والسياسة الحكيمة أدى إلى استقرار أحوال الدولة الإسلامية وسادها الأمن والنظام ولم يعكر هذا الاستقرار سوى الخوارج الذي اتخذ معهم سياسة الحزم والشدة

في مواجهة معاوية:

اختلف أرباب التاريخ والحديث والرجال حول معاوية بن أبي سفيان بين قادح ومادح وحتى نتفهم خلفية الصراع الذي دار بينه وبين الامام علي وابعاد المواجهة العسكرية في صفين كان لابد في البداية من تحديد الموقف من معاوية بن أبي سفيان.

ولنترك ما قيل وما تناقلته الألسن من روايات وأحاديث حول معاوية وهي تعج في الكتب، ولنأخذ برأي من عاصره وعايشه معايشة المشارك له في السلطة.

فهذه الآراء لحدما تستطيع أن ترسم لنا ملامح هامة عن شخصية معاوية. وهي اراء يمكن الإعتماد عليها لأنها صادرة عن اناس لازموا معاوية في فترة من الزمن.

١- رأي عمرو بن العاص

في أول لقاء عمل بين معاوية وعمرو بن العاص أخذ معاوية يضع اللمسات الأولى لاعلان الحرب على الامام علي (عليه السلام).

قال معاوية: نلزمه دم عثمان.

فأجابه عمرو: واسوأتاه إن أحق الناس الا يذكر عثمان لأنا ولأنت .

وقال معاوية: ولم؟

فقال عمرو: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام. واستغاثك فابطأت عليه، وأما أنا فتركته عياناً- وهربت الى فلسطين.

قال معاوية: دعني من هذا، هلم فبايعني، فقال عمرو: لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك، قال معاوية: صدقت، سل تعط ، قال عمرو: مصر طعمة.

فغضب مروان بن الحكم، وقال: ما بالي لا أشتري فقال معاوية: أسكت

يا ابن عم فانما يشترى لك الرجال فكتب معاوية لعمرو مصر طعمة .

٢- رأي عبد الله بن عمرو بن العاص

ارسل معاوية كتاباً الى عمرو بن العاص يطلب منه أن يقدم الى الشام ليكون معه في الحكم فاستشار عمرو ولده عبد الله، فأشار اليه عبد الله بما يلي: أقم في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولاتزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعاً .

ويعني انك لن تقبض من معاوية شيئاً يذكر.. فهو سيعطيك القليل ويأخذ منك الكثير.

٣- رأي سعد بن أبي وقاص- وكان على الحياد

بعث اليه معاوية برسالة جاء فيها.

أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر والشورى ونظيراك في الاسلام وخفت لذلك أم المؤمنين. فلا تكرهن ما رضوا. ولا تردن ما قبلوا، فإنما نردها شورى بين المسلمين

فاجاب سعد بن أبي وقاص: أما بعد فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه غيران علياً كان في السابقة ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدرته وقد علمنا أنه أحق بها منا ولكن لم يكن بدّ من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا وأما أمرك يامعاوية، فانه أمر كرهنا أوله وآخره، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما- والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين .

٤- رأي محمد بن مسلمة

وكتب رسالة مماثلة الى محمد بن مسلمة فأجابه في طلبه.

ولعمري يامعاوية ما طلبت الا الدنيا، ولا اتبعت الا الهوى ولئن كنت نصرت عثمان ميتاً. لقد خذلته حياً .

٥- رأي أبي الدرداء وابي هريرة

وذكروا ان أبا هريرة وأبا الدرداء قدما على معاوية من حمص وهو بصفين فوعظاه وقالا له: يامعاوية علام تقاتل علياً وهو أحق بهذا الأمر منك في الفضل والسابقة؟ لأنه رجل من المهاجرين الأولين السابقين باحسان، وأنت طليق وأبوك من الأحزاب .

٦- رأي المغيرة بن شعبة (وهومن قماش معاوية)

أخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن المطرف بن المغيرة بن شعبة ما مختصره، قال كان أبي يجتمع بمعاوية ثم يأتيني فيكثر في المدح، وفي ليلة أمسك والدي عن العشاء مغتما فسألته عن سبب ذلك.

فقال يابني جئت من أكفر الناس وأخبثهم فقد خلوت به وقلت له: قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فقد كبرت ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم.

فقال: هيهات هيهات أي ذكر أرجو بقاءه، ملك أخوتيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، الا أن يقول قائل: أبو بكر ثم ملك أخو عدي مما عدا أن هلك حتى هلك ذكره الا أن يقول قائل: عمر وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات أشهد أن محمداً رسول الله فأي عمل يبقي وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك، لا والله الا دفناً دفناً .

وإذا كان كلام معاوية يثير اشمئزاز من هو مثل المغيرة فالى أي مدى بلغه معاوية اذن وهو يومذاك يدعى خلافة المسلمين فأية خلافة تلك وأي مسلمين أولئك!

٧- رأي الحسن البصري

أربع خصال في معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة منها لكانت موبقة انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف، واستخلافه من بعده سكيراً خميراً، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الوالد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجراً وأصحاب حجر .

ما سبق هو شيء يسير مما قيل عن معاوية بن أبي سفيان ولوأردنا أن نحصي كل ما قيل عنه وما ارتكبه من أعمال منافية للاسلام لاحتجنا الى فصول عديدة لكن حصراً للفائدة رأينا الاقتصار على تلك الشخصيات المؤشر لها في التاريخ التي لم تحسب على جبهة علي (عليه السلام) والتي كانت على الحياد أو متعاونه مع معاوية، وكان معاوية يسعى من أجل اقناعها بالتعاون معه فرأيهم في معاوية له اعتبار ويؤخذ به سيما وانه منقول من مؤرخ محايد هو ابن قتيبة وابن عقيل وهما ليسا من مؤرخي الشيعة وأيضاً انهم قالوا رأيهم وجهاً لوجه معاوية.

المهم ان تلك الاشارات تكفي اختصاراً في رسم بعض ملامح معاوية. فهي ترسم لمعاوية صورة الحاكم الذي همه السلطة بالدرجة الأولى. وهو على استعداد لأن يضحي بكل شيء من أجل السلطة. كما وانه على استعداد لأن يتوسل بكل الوسائل لتمشية سياسته، وانه جمع حوله أصحاباً على اساس المنفعة المتبادلة وان همه الأول هو أن يؤسس حكومة تقوم على الدنيا وليس على الدين

فشخصية بهذه الأبعاد كيف يتمكن علي بن أبي طالب اقراره والياً على الشام فيلتصق اسمه باسمه، فيعرفه التاريخ انه أحد ولاته!!

كيف يمكن لمطلع بأحوال المسلمين وعارف بالاسلام أن يلوم علياً عند خلعه لمعاوية؟ وعلى فرض ان الامام ترك معاوية وشأنه. فهل كانت الشام بكافيه لتملأ عيون معاوية وتشبع شهوته للسلطة؟

الاجابة على هذا السؤال تبدو واضحة للمتتبع لأحداث التاريخ. فمعاوية كان يعمل من أجل الحرب بقصد التوسع، فالشام لم تعد الا وجبة صغيرة على مائدة أطماعه وتعددت أطماعه مع قيام معركة الجمل حيث كان في تصوره ان المعركة قد أنهكت قوات الامام علي (عليه السلام). وان الفرصة الذهبية قد سنحت للهجوم على عاصمة الدولة الاسلامية وتصفية الامامة الشرعية المتمثلة بالامام علي (عليه السلام).

ونلمس هذه الرغبة في الحرب عند معاوية من رده المستمر للوسائط التي كانت تعمل على تضييق الفجوة بين الشام والكوفة. كان رد معاوية:

انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم الا السيف .

ولاية معاوية :

اكتسب معاوية ثقة عمر بن الخطاب، فولاه الأردن كما ولى أخاه يزيد على بلاد الشام. ولما توفى يزيد في طاعون، أضاف عمر لمعاوية ما كان لأخيه. ولما ولى عثمان الخلافة ولى معاوية بلاد الشام كلها، ثم استقل بها بعد مقتله. ولما بويع علي بالخلافة، امتنع معاوية عن مبايعته، واتهمه بإيواء قتلة عثمان في جيشه . وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، ومحاربة علي ومازال الخلاف جاريا بينهما . وتم الصلح بين معاوية وبين الحسن بن علي الذي آلت إليه الخلافة بعد مقتل والده، لكنه تنازل بمقتضاه لمعاوية عن الخلافة.

أهم الأحداث السياسية في عهد معاوية :

ظهور حركة الخوارج وحركة الشيعة .

سياسة معاوية الخارجية : وضع معاوية أسسا وقواعد ثابتة في سياسته الخارجية، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع، كما كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين .

كان معاوية يعمل جاهداً على نشر الدين الإسلامي بين الشعب الفارسي. ومن أجل ذلك أسكن عشرات الآلاف من الأسر العربية في المناطق الفارسية، وبصفة خاصة في خراسان، حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلا إلى نشر التعاليم الإسلامية واللغة والثقافة العربية. ومع أنه لم يغفل عن حراسة الحدود، فكانت الغزوات تنطلق من ثغر السند، إلى حدود بلاد ما وراء النهر. عندما أصبح البيزنطيون اضطراباً لوجود خلافة لمسلمين ، ركز معاوية معظم جهوده للتصدي لهم، وإيقافهم عند حدهم، خاصة في ميدان البحر، واتبع في سبيل ذلك إستراتيجية عسكرية خاصة. وذلك الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية .

إحداث أسطولا بحريا: وضع معاوية مخططا للتفوق على أعداء الدولة في البحر وإبعادهم عن السواحل.وتنفيذاً لهذا المخطط أنشأ معاوية أسطولا بحريا؛ عهد بإدارته إلى عدد من الملاحين العرب من بني الأزد الغساسنة. وبفضل هذا الأسطول، تمكن المسلمون من إحكام سيطرتهم على سواحل بلاد الشام، ومن تنفيذ خطة السيطرة على الجزر. وبذلك يكون معاوية أول من نظم أسطولا بحريا، وأول من أرسل حملة إسلامية للغزو في البحر المتوسط. وغزا المسلمون بقيادة معاوية جزيرة قبرص في عام ٢٨ هـ/ ٦٤٩ م واستولوا عليها . وكان النصر الذي لازم هذه الحملة بداية مرحلة من النشاط البحري للمسلمين الذين قاموا بسلسلة من الغارات البحرية في بلاد الشام ومصر ؛ تمهيداً لحصار القسطنطينية.

سياسة معاوية الإدارية:

نفذ معاوية العديد من الإصلاحات في الإدارة وكان معظمها خطوة ناجحة . وقد استعان معاوية بأشخاص من النصارى، ممن عملوا في الإدارة البيزنطية أمثال سرجون بن منصور وابنه منصور بن سرجون، بإدارة ديوان المال.إن جهود معاوية انطلقت من مؤسستين، ديوان الخاتم وديوان البريد، في الوقت الذي عرف فيه المسلمون ديوان الجند، وديوان الخراج وديوان الرسائل.

ديوان الخاتم:

أنشأ معاوية ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار غير الخليفة، ولا تتعرض للتزوير والتعديل، بالإضافة إلى أن هذا الديوان كان يستقبل التقارير التي ترفع إلى الخليفة من الولاة.

ديوان البريد :

أنشأ معاوية ديوانا للبريد، حين اتسع نطاق الدولة، وصار من الضروري نقل الرسائل بسرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين عمال الأقاليم. وكان لهذا الديوان مهمتان. الأولى: نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها ؛ والثانية: أن موظفي هذا الديوان كانوا عيونا للخليفة يراقبون الولاة والعمال في أعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون الخليفة على علم بأحوال الولايات وما يحدث فيها.

نظام الكتبة: عين معاوية كاتبا لديوان الرسائل، وكاتبا لديوان الخراج، وثالثا لديوان الجند، ورابعا لديوان الشرطة وخامسا لديوان القضاء .

وفاة معاوية : توفّي في دمشق عن ٧٨ سنة بعدما عهد بالأمر إلى ابنه يزيد بن معاوية ، ودفن في دمشق . وكانت وفاته في رجب سنة ٦٠ هـ ، كان خلالها والياً لعشرين عاما وخليفة لعشرين عاما آخر.

الفتوحات في عهد معاوية

فتح القسطنطينية :

أصبح للمسلمين قوة بحرية فعّالة وقادرة على مواجهة البيزنطيين .وعندما أصبح معاوية خليفة صار حراً في اتخاذ القرارات ، وكان من سياسته الضغط على الدولة البيزنطية تمهيداً للاستيلاء عليها ، ولعله كان يهدف إلى إسقاط الدولة البيزنطية والقضاء عليها مثلما قضى على الدولة الفارسية في عهد عمر بن الخطاب لأنها تعتبر للبيزنطيين مركز القوة والأموال والرجال وللقسطنطينية أهمية بالغة : موقعها الجغرافي فهي تلتقي عند آسيا وأوروبا ويسهل العبور بين القارتين وهذا سهل انتقال التجارة والاتصال الحضاري بين القارتين أمراً ميسوراً. كما أدى إلى ازدهار المدينة وجعلها من أكبر مراكز الحضارة . فهي ميناء هام للبيزنطيين لاتصال مياه البسفور ببحر مرمرة فهو آمن لإرساء السفن فيه . هي مركز سياسي وعسكري وحضاري واقتصادي وديني وثقافي وأدبي .

الاستعداد :

بعد موقعة ذات الصواري في عهد عثمان اعترفوا الروم بقوة المسلمين البحرية للأسباب الآتية :

ولذلك اهتم معاوية بصناعة السفن واختيار أمهر الصناع والإغداق عليهم بالأجور العالية .

كما أن التعاون بين الشام ومصر سواء من حيث المواد الخام لصناعة السفن أو الأيدي العاملة ، ففي الشام كانت تتوفر أخشاب الصنوبر والبلوط لصناعة السفن وفي مصر أخشاب الصنط لصناعة الصواري والمجاديف .

تقوية الثغور البحرية وشحنها بالسفن والجنود مثل : عكا وصور والإسكندرية.

فتح القسطنطينية :بدأ معاوية يغزو قبرص – رودس ، وأنزل بها عدد من المسلمين سنة ٥٢هـ وهي من أخصب الجزر وفيها الزيتون والكروم .ثم استولى القائد جناده على جزيرة أرور وأسكن بعض المسلمين بها ثم جزيرة كريت.وهكذا استولى معاوية على جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط تمهيداً للوصول إلى القسطنطينية وغزا جزر جنوب البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية بقيادة معاوية بن حديج .كما غزا معاوية أطراف الشام الشمالية وهي مناطق الحدود بين الدولة

البيزنطية والدولة الإسلامية ضد غارات البيزنطيين ولتكن سنداً ضد القوات الزاحفة على القسطنطينية .كما أن البيزنطيين خربوا المناطق الواقعة شمال حلب وأنطاكية والحصون بين الإسكندرية وطرسوس في عهد الخلفاء الراشدين حتى لا يستفيد منها المسلمون ، فكان على معاوية أن يعمل على إصلاحها وتعميرها فاهتم بمدينة أنطاكية وعمر المدن وزودهم بالمؤنة بين الإسكندرية وطرسوس ، وجدد حصن مرعش .وهكذا استكمل معاوية استعداداته الحربية بحراً وبراً ودرب رجاله وحصن حدوده بإرسال حملة استطلاعية بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري واستطاع أن يكتسح دفاعات الروم ويصل إلى مدينة خلقدوينة .

الحملة الأولى

ثم أخذ يدرب رجاله ثم أرسل جيش بقيادة سفيان بن عوف وجعل ابنه يزيد أميراً شرفياً عليها وكان في الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وقد توغلوا حتى وصلوا إلى القسطنطينية ودار بينهم القتال وتوفي أبي أيوب الأنصاري عند القسطنطينية .عودة يزيد بن أبي سفيان مع جيشه إلى الشام دون أن ينال من القسطنطينية لمناعتها.وأغلب الظن أن معاوية كان يدرك صعوبة الاستيلاء عليها للأسباب الآتية :

لمناعتها وحصانتها . قسوة المناخ وشدة البرودة والتيارات الهوائية التي تأتي من البحر الأسود فتعوق السفن وتردها على أعقابها. النار الإغريقية على المسلمين .إلا أن المسلمين ثبتوا للبيزنطيين رغم مناعة وحصانة المدينة فإنها ليست بعيدة المنال عنهم وأنهم على استعداد لبذل الروح في سبيل نشر الإسلام ومع أن الحملة لم تنجح عسكرياً إلا أنها تعتبر ناجحة من الوجهة السياسية حيث جعلت شغل الأباطرة الشاغل هو الدفاع عن عاصمتهم ، ولذلك وجه الإمبراطور كل جهوده وأحدث تغيرات في النظم الحربية والإدارية والاهتمام بالجيش للدفاع عن إقليم آسيا الذي يعتبر المورد الأساسي للدولة في الشرق .

الحملة الثانية : ففي سنة ٥٤هـ اتخذ معاوية جزيرة أرور قاعدة حربية للعمليات الحربية لأنها قريبة من القسطنطينية فجهز معاوية أسطولاً ضخماً وأرسله للقسطنطينية وظل مرابطاً أمام أسوارها من ٥٤هـ حتى سنة ٦٠هـ فكانت الأساطيل تنقل الجنود من السفن إلى البر لمحاصرة القسطنطينية واستمر الحصار البري والبحري ، ولم يكن سوى مناوشات بين الطرفين من الصباح إلى المساء .وبالرغم من صبر المسلمين وجلدهم طيلة سبع سنوات إلا أن المدينة صمدت أمامهم لا بفضل مناعتها بل بسبب أن الإمبراطور تنبه من الحصار الأول فعمل على إصلاح:

أسوارها .تقوية دفاعاتها . حشدها بالمؤن والعتاد لمقاومة الحصار .استعمال النار الإغريقية .

وفي النهاية دعت الظروف الداخلية في كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار وعودة الأساطيل إلى الشام لأن معاوية أدرك أن مدة الحصار طالت دون تحقيق هدف كما أنه أحس بدنو أجله فرأى

من المصلحة عودة الجيش إلى الشام بسبب خوفه على أبنه أن يواجه مشاكل عندما يرحل معاوية وذلك لضبط الأمور.

فتح أفريقيا في عهد معاوية :

لقد استلم عمر بن الخطاب مفاتيح بيت المقدس من البطريرك صفرونيوس .وفي هذه الأثناء عرض عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب فتح مصر للأسباب الآتية : أهميتها العسكرية والاقتصادية والبشرية .

لنشر الإسلام بها . لحماية حدود الدولة الإسلامية من أي خطر بيزنطي يهدد كيانها من ناحية الشام وفلسطين .

وبذلك سار عمرو بن العاص إلى مصر وأتم فتحها في ثلاث سنوات سنة ١٨هـ حتى ٢١هـ ثم اتجه بقواته إلى الغرب لتأمين حدود مصر الغربية ففتح برقة وصالح أهلها على ١٣ ألف دينار وقد تقبلوا الإسلام عن طواعية وكانوا يبعثون بالجزية سنوياً .ثم سار عمرو بن العاص إلى طرابلس وفتحها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح أفريقيا ولكن عمر بن الخطاب رفض ذلك للأسباب الآتية :أن عمر بن الخطاب ليس تواقاً للفتح لأنه كان يخشى على المسلمين من التوغل في أراضي غير مأمونة .أن عمر كان على يقين أن الإسلام سيغزو القلوب دون حرب وسوف ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها خاصة أنه دين الفطرة والإنسانية السليمة وقد ترك عمرو بن العاص عقبة بن نافع في مدينة برقة يدعو الناس إلى الإسلام وبذلك نجح عقبة في جذب قبائل لواته ونفوسة وزواغة وهراوة للإسلام. وبعد وفاة عمر بن الخطاب كان والي مصر عبد الله بن أبي السرح في عهد عثمان بن عفان الذي استأذن الخليفة في غزو أفريقيا لأن خطر الروم أصبح لا يستهان به فكان من الخليفة حث الناس على الجهاد وفتح أفريقيا وأرسل جيش بقيادة الحارث بن الحكم وهو الأمير وكان ملك قرطاجة – جرجير ، فقتلوه المسلمين وقد طلبوا أهل أفريقيا من عبد الله بن أبي السرح أن يأخذ مالاً ويخرج من بلادهم وبذلك رجع إلى مصر ولم يولى عليهم أحداً . وفي عام ٣٤هـ خرج معاوية بن حديج فافتتح قصوراً واتخذ قيرواناً عند القرن.

النتائج :

كانت حملات عمر بن العاص وعبد الله بن أبي السرح إلى أفريقيا مكنتهم من معرفة هذه البلاد طرقها ومسالكها وسكانها ومدى قوتهم. إزالة الرهبة والخوف من نفوس المسلمين إذا دعوا إلى فتحها.

معاوية بن أبي سفيان وأفريقيا :

توقفت الفتوحات بعد عهد عثمان بن عفان بسبب الفتنة التي أدت إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب .ولما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ضيق الخناق على

البيزنطيين من الشرق في منطقة القسطنطينية ورأى أن يحاصر الروم من الجنوب عند شواطئ أفريقيا.أرسل معاوية بن أبي سفيان القائد معاوية حديج سنة ٤١هـ ففتح بنزرت وفي سنة ٤٥هـ فتح قمونية وكان عدد الجيش عشرة آلاف جندي منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم وكان ملك الروم تقفور ومعه ٣٠ألف مقاتل.أخرج معاوية بن حديج له عبد الله بن الزبير فأشرف عليه من تل عالي فخاف نقفور فهرب من البحر ورجع ابن الزبير إلى معاوية بعد أن تمكن من فتح سوسة – ومصراته. ثم أرسل معاوية بن حديج عبد الملك بن مروان في جيش بلغ ١٠٠٠ فارس إلى جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عدد كبير .كما أرسل جيش في البحر ومعه ٢٠٠ سفينة حتى وصلوا صقلية وسبوا وغنموا ثم رجعوا إلى أفريقيا .ثم أسند معاوية بن أبي سفيان القيادة للقائد المعروف عقبة بن نافع وكانت خطوة موفقة في اختيار عقبة .

وقد أدرك عقبة أنه لكي يستمر الإسلام في أفريقيا لابد من بناء قاعدة ينطلقون منها إلى الجهاد ويعودون إليها لكي يأمنوا على أهلهم وأموالهم فبنى مدينة القيروان وبنى بها مسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم .

أرسل معاوية إليه ١٠ آلاف فارس وانضم إليهم من أسلم من البربر وبذلك وضع عقبة نواة الجيش من البربر حتى كان مستقبلاً قيادة الجيوش في أفريقيا من البربر كما أصبح عقبة والياً على أفريقيا .

سار إلى منطقة مقدامش فبلغه أن أهل مدينة ودان نقضوا الصلح الذي عقده معهم بسر بن أرطأة – وزهير البلوي ، أما هو فسار إلى فزان ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا ثم فتح كواره – وخاور – وغدامس .وقد أخذ عقبة يغزو ويرسل السرايا فدخل عدد كبير من الناس في الإسلام بأفريقيا وهذا لا يستبعد عن معاوية خاصة أنه خشى من عمرو بن العاص عندما كان والياً على مصر والمغرب ولذلك خشى من عقبة خاصة بعد أن أسس القيروان وأصبح له شعبية كبيرة في أفريقيا .ولكن هذا الرأي لم يوافق عليه أحد لعدة أسباب : أن نزعة الاستقلال لم تخطر ببال أحد في ذلك الوقت . أن عقبة لم يعرف عنه أنه طامع في الحكم أو لديه نزعة استقلال وإنما عرف عنه حبه لغزو والجهاد. ولو أن معاوية كان يخشى من عقبة لما اعتذر إليه ثم وعده بإعادته إلى ولاية أفريقيا وبذلك أمر يزيد ابنه أن يعيده . كما أن عقبة كان يعتمد على الجيش الذي يأتيه من مصر والشام خاصة أن معاوية أرسل لهم عشرة آلاف مقاتل وقد استعمل معهم القسوة والقوة ولذلك لم يكن محبوباً لديهم ولم يكن له شعبية .

إذاً كل ما في الأمر أن مخلد بن مسلمة كان له مجاملة لمولاه أبي المهاجر بن دينار إساءة أبي المهاجر إلى عقبة عند وصول أبي المهاجر إلى المغرب أساء عزل عقبة فسجنه وقيده بالحديد ولا ندري ما الذي جعل أبي المهاجر يقدم على ذلك ؟ كما أن د/ حسين مؤنس يتهم مسلمة بن

مخلد بأنه هو الذي أوحى إلى أبي المهاجر بالإساءة إلى عقبة .إلا أن ابن عبد الحكم يختلف معهم في الرأي بأن مسلمة أوحى بحسن عزل عقبة ولكن أبي المهاجر خالفه خاصة أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وأقسم له أنه وصى أبي المهاجر به فلماذا فعل ذلك أبي المهاجر خاصة أن أبي المهاجر كان يحترم عقبة ، ويعرف مقامه وأنه جزع عندما دعا عليه عقبة وقال [هذا رجل لا يرد له دعاء : نحن لا نعرف استنتاج غير رأي د/ محمد علي دبوز أن أبي المهاجر اضطر لذلك لأن عقبة لم يرضخ للعزل خاصة بعد كفاح مرير وجهاد وفتح وتأسيس فليس من السهل أن يتنازل بسهولة وأنه يرى نفسه أحق بالولاية من أبي المهاجر. كما أن أبي المهاجر خاف أن يقع خلاف بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة فيستغل الروم الموقف فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين .

وإذا كان هذا الاستنتاج صحيح فلا بد على كل مسلم أن يحمل على القادة الأجلاء مهما كانت خلافاتهم لأن لكل قائد له وجهة نظر وأن يحاول اللاحق أن يستفيد من السابق وجهوده بدلاً من الإساءة إليه .

سياسة أبي المهاجر بن دينار ومنهجه في بلاد المغرب :

وهنا نرى أن أبي المهاجر قام بدور عظيم في بلاد المغرب وتمهيداً لقبوله للإسلام ديناً ونظاماً وحياة .فقد كان يتمتع بقدر كبير من الكياسة – والسياسة وحسن التصرف فقد رأى أن سياسة القوة التي استعملها عقبة لابد من تغيرها . وأن يستبدلها بكسب القلوب لأن البربر قوم أشداء يعتزون بكرامتهم وحريتهم فسياسة اللين قد تكون أنفع من القسوة وبذلك نجح في سياسته نجاحاً كبيراً .كما أدرك أن الذين يؤليون البربر هم الروم فقرر أن يعزل البربر عن الروم .فلابد أن يكشف للبربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذا البلد إلا لنشر الإسلام وليس لاستعبادهم واستعماره ويستغلوا بلادهم .

سياسة الروم مع البربر :

وهنا نجد أن الروم قد غيروا سياستهم مع البربر :بدأ الروم تتقرب من البربر .عملت على إنهاء خلافاتهم معهم خاصة الخلافات الدينية لتضمن ولاءهم والوقوف معهم ضد المسلمين . وبذلك أزالت الروم روح الكراهية لدى البربر تجاه الروم .بدأ البربر يعملون على شد أزر الروم والوقوف بجانهم ضد المسلمين ، وبذلك قام تحالف بين البربر المسيحيين والروم .وكان هذا التحالف زمن أبي المهاجر بن دينار وبالرغم من الهزائم التي لحقت بهم من قبل المسلمين إلا أنهم مصرين على الاستمرار خاصة أن سلطانهم ما زال يمتد من بنـزرت إلى طنجة .ولذلك كان على أبي المهاجر أن يضرب ضربته الأولى حتى يهز كيانهم فما زالت قوتهم على ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة فلابد من كسر جناحهم وأن يكسر حلفهم مع البربر .سار إلى

قرطاجنة ونازلها وتحصنت بالأسوار العالية وبذلك أحس الروم أنه لا قبل لهم بالجنس الإسلامي فطلبوا الصلح فصالحهم على شرط إخلاء جزيرة شريك حتى ينزل جنوده بها وتكون مقراً لهم ولم يصالحهم بالأموال ، وكان هدف أبي المهاجر من احتلال جزيرة شريك أن يراقب الروم وتحركاتهم .

وهكذا نرى أنه حقق نصراً سياسياً وقد ترك فرقة من الجيش يرأسها حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا الهجوم .ثم رفع أبي المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك وترك بها حامية إسلامية تؤمن ظهر المسلمين وتراقب حركات الروم.ثم اتجه إلى الساحل الغربي حتى وصل مدينة ميله وكان بها عدد كبير من البربر والروم ولديهم استعداد للقتال فقاتلهم واحتلها وأخذ الكثير من الغنائم منها . وهذه المدينة تتوسط المغربيين الأدنى والأوسط فهي مكان استراتيجي لمراقبة الروم والبربر وأقام بها سنتين . وفي خلال هذه السنتين استفاد أبي المهاجر في الاتصال بالبربر وشرح لهم حقيقة الإسلام ومساوئ الروم وبذلك نجح في هذه السياسة وأقبل البربر على الإسلام. وبذلك سكنت وهدأت عواصف الاضطراب من ناحية البربر .أبي المهاجر يتطلع إلى المغرب الأوسط ويراقب الأحداث فوصلت له الأخبار بتجمع الروم والبربر فقرر المسير إليهم .وكان يحكم المغرب الأوسط قبيلة أدرية وهي قسم من أقسام البربر البرانس وزعيمهم كسيلة وهو قوي الشخصية ذكي الفؤاد غيور على وطنه وله مكانة مرموقة بين البربر ، وكان يدين بالنصرانية ولا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين .وقد شوهوا له الإسلام والمسلمين فأصبح عدوهم اللدود وأخذ يحرض البربر على حرب المسلمين وأبي المهاجر خاصة أنه عرف نية أبي المهاجر في أنه سوف يحتل المغرب الأوسط والأدنى وبذلك أثار كسيلة فيهم حمية الحرب فتجمع حوله جيش كبير العدد .

معركة تلمسان :

التقى أبي المهاجر مع كسيلة في منطقة تلمسان وكثر القتلى بين الفريقين كما أبلى كل من الفريقين وعرفوا خطورة نتائج المعركة وفي النهاية انتصر المسلمون وأسر كسيلة وهرب باقي جيشه .وقد أحسن أبي المهاجر معاملته وقربه وعامله بلطف معاملة الملوك وطمع في إسلامه وأدرك أبي المهاجر لو أن كسيلة أسلم سوف يسلم قومه لأنه زعيمهم وله مكانة في قلوب البربر .وكان أبي المهاجر يترقب هذا الاستثمار وبدأ. يحدثه عن الإسلام وأنه دين التوحيد الخالص لله . ودين المساواة والحرية والأخوة وأنه لو أسلم لن يخسر بل سوف يكسب أجر الدنيا والآخرة . كان كسيلة ذكياً مخلصاً لقومه وطموحاً ولا يريد غير الإصلاح وأدرك أن الإسلام هو دين السعادة والقوة وأن العرب هم الأخوة فأسلم وتعلم العربية وأصبح أبي المهاجر وأصحابه هم خاصته ودعا قومه للإسلام فأقبلوا عليه وأطلق كسيلة من الأسر . وأصح من أعز أصدقائه أبي المهاجر وأحب البربر الإسلام وناصروا هذا الدين وبعد أن اطمأن أبي المهاجر إلى استقرار

الأمور في المغرب الأوسط والأدنى واطمأن إلى إسلام البربر مع زعيمهم كسيلة رجع إلى قرية تسمى دكرور يراقب الروم ويرصد تحركاتهم لكن سوء الحظ لم يطل به فقد توفي مولاه مخلد بن مسلمة والي مصر سنة ٦٢هـ وكان له سنداً قوياً وبذلك أعاد يزيد بن أبي سفيان سنة ٦٤هـ عقبة بن نافع والياً على أفريقيا وعزل أبي المهاجر وبذلك انتهت الفتوحات في عهد معاوية

البيعة ليزيد :

لم يكشف معاوية عن خطته في جعل الحكم وراثياً في إسرته عندما أصبح سلطاناً للمسلمين ، تفادي لردود الفعل التي سيواجها عند إعلانه فجأة ، فهو قد إنشغل في السنوات الأولى من السلطة في تثبيت أقدامه في البلاد ، وتعيين كبار أهل بيته ولاة في الإدارة ، فضلاً عن كسب الأتباع والمؤيدين عن طريق البذل والعطاء أو تصفية الحساب مع الهاشميين وأتباعهم، والتخلص من أولئك الذين يجأرون بالشكوى من الأوضاع الجديدة ، وبعد ان تسنى له تهيئة أرضية سهلة ، فبدأ يفكر بالوسيلة التي تنقل الحكم من المهاجرين إلى الأمويين ، بصورة لا يصاحبها رد فعل عنيف تنهار على أثرها الآمال الأموية التي انتعشت بعد وفاة رسول الله ، لاسيما وان هذا المبدأ في الحكم يعتبر انقلاباً عما تعوده المسلمون في اختيار الخليفة ، لذلك إرتأى ان يكون وصوله إلى ذلك بشكل تدريجي يمتص النقمة المتوقعة بالتدريج أيضاً.

لقد كانت خطواته الأولى كما مرت بنا، تقوم على التخلص من كل الشخصيات التي بوجودها لا يمكن طرح مشروع الوراثة لإبنه يزيد فتخلص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حرب صفين ، وسم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والإمام الحسن ابن علي (ع) وسعد بن أبي وقاص كما ارتبط بهذه الخطوات شراء الذمم بالأموال والتضييق على أنصار العلويين ومطاردتهم ، أما الذين يمتلكون حساً ثورياً يخشى منه أن يشتد ، فكان نصيب هؤلاء القتل كما حصل لحجر وأتباعه في مجزرة مرج عذراء.

وقد وجد معاوية إن مشروعة يسير في طريقه الصحيح ، وأراد ان يدعم هذا النجاح بالحصول على مؤازرة مستشارية ، فتمكن من خداع مروان الطامع في العرش بان لوح له بأنه سيكون وصياً ليزيد أما المستشار الثاني زياد بن أبيه ، فكان له وجهة نظر تخالف ما يريده معاوية ، إذ وجد إن حياة يزيد وما فيها من تهتك باتت معروفة للجميع ومكشوفة لحد التفاصيل ، فاقترح عليه تأجيل المشروع لعل يزيد يقلع عما تعود عليه ، حينذاك تكون الفرصة مواتيه لذلك ، ولما نقل موفد زياد هذا الرأي لمعاوية ، غضب على زياد واعتقد إنه يحدث نفسه بالخلافة .

لكن معاوية استمر في تهيئة مستلزمات مشروع الوراثة ، الذي يقطع الطريق على بني هاشم ولا يفسح مجال العودة إلى حكم أبناء الإمام علي (ع) ، فعمد على ترويض الناس على تقبل هذه الفكرة لمدة سبع سنيين يشاور ويعطي الأقارب ويداني الأباعد حتى استوثق له أكثر الناس

وذكر ابن قتيبة ، ان معاوية لم يلبث يسيراً بعد وفاة الحسن حتى بايع ليزيد بالشام وكتب ببيعته إلى الآفاق، وذكر السيوطي ان معاوية لما حج عام ٥١هـ أخذ البيعة لابنه يزيد .

أما ما قيل إن المغيرة بن شعبة هو الذي أوحى بفكرة ولاية العهد ليزيد لأن معاوية كان ينوي عزل المغيرة ، فابتكر هذه الفكرة ليبقى في منصبه، وقد أدلى برأيه أولاً ليزيد الذي بدورة نقلها إلى أبيه ، وإثر ذلك رده إلى ولايته تثميناً لما جاء به ، فاخذ بها معاوية وتبناها .

وتبدو هذه الرواية غير مقنعة من الناحية التاريخية ، وذلك ان هاجس حكم المسلمين ترسخ في نفوس الأمويين منذ إختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين من قبل مجلس الشورى ، حينما خاطب أبو سفيان الأمويين (تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة..) لذلك لابد ان جرس تلك العبارة ما يزال يرن في أذن معاوية وينتظر اليوم الموعود لذلك الحدث ، فترسخت تلك الفكرة في ذهنه ، ووجد الفرصة سانحة عند تأزمت الأوضاع في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، لذلك لم يبذل معاوية أي مجهود في سبيل إنقاذ الخليفة ، وإنما كان يأمل في أن يقتل ليكون وسيلة للوصول إلى منبر الخلافة ، ومن ناحية أخرى إن معاوية رفع راية العصيان ورفض مبايعة الإمام علي (ع) ، وحرض على التمرد عليه في مؤامرة الجمل ، ثم خاض ضده حرباً شعواء في يوم صفين التي أغرقت المسلمين في بحر من الدماء ، كاد فيها ان يفقد نفسه لولا رفع المصاحف وما صاحب عن ذلك من بذل أموال ومكر وحيلة تلاه اغتيال الإمام علي (ع) ومن ثم عقد الصلح مع الإمام الحسن (ع) لهذا فليس من المعقول ، بعد كل هذا العناء ، أن يترك الحكم بعد وفاته للأقدار، فمعاوية الذي اعتلى منصب الخلافة في حين لم يكن فيه خصلة ينافس بها علياً (ع) ، كان يحمل مشروعاً بعيد المدى يعيد ما كان لأمية قبل الإسلام من جاه وهيبة، ثم ان السنوات الأربعين التي قضاها معاوية في ولاية الشام وخلافة المسلمين ، ذاق فيها لذة عيش لم يحلم بها لذلك لا يمكن ان يتركها للآخرين لاسيما وان الأمويين وولاتهم خلال إدارتهم للدولة ارتكبوا كثيراً من المجازر ضد أبناء القبائل العربية ، فهذا الأمر يجعل معاوية يخشى على مستقبل أهله وعشيرته من انتقام القبائل المنكوبة فيما إذا خرج الحكم من أيديهم ، وعليه لا يمكن لمعاوية ان يفارق ذهنه هذا التفكير ، وربما كان في قوله عن يزيد يكشف لنا جزءاً مما ذهبنا إليه ، إذا أشار لولا حبي ليزيد لأبصرت رشدي.

لذلك فان حكاية المغيرة، أو ما قيل عن تأثره بالنظام الوراثي البيزنطي والساساني ،لا يمكن قبولها أساساً لتفسير ما أدخله معاوية من تغيرات في نظام الحكم ، وإنما يعود إلى تاريخ تسنم عثمان مقاليد الأمور ، إذا لم نقل أنها تعود إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب حينما استخدم آل

أبي سفيان قواداً وولاة على بلاد الشام ، وإذا عدنا إلى إجراءات معاوية في سبيل اخذ البيعة لابنه يزيد نستنتج مما ذكره ابن قتيبة ان هناك عدة مراحل سلكها معاوية من اجل ذلك، فالخطوة الأولى بدأت في حياة الإمام الحسن (ع) عندما دعا وفود الأمصار إلى دمشق وهيأ معاوية نخبة من أتباعه على رأسهم الضحاك بن قيس ، طلب منهم ان يتكلموا بعد أن ينتهي خطابه بذكر يزيد والدعوة له حتى تتوجه أنظار الناس إلى يزيد وبالفعل فقد قام الضحاك ودعا إلى بيعة يزيد ونسب إليه أوصافاً نادرة من حسن المذهب والسيرة ومحبة المسلمين له ، ثم تلته المجموعة الأخرى التي لقنت بما تقول فجعلوا من يزيد أصلاً لكل فضيلة ، وكان الأحنف بن قيس الذي كان ضمن الوفد العراقي ، لم يشارك في الحديث ، إلا بعد أن حدثه معاوية بأنه يريد سماع رأيه فقال إن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون ليزيد ولا يبايعونه مادام الحسن حياً ، وهذا يعني ان بدايات الدعوة لبيعة يزيد بدأت والإمام الحسن ما يزال على قيد الحياة.

وقد رد على الأحنف، الضحاك ونسب إلى أهل العراق النفاق وطلب من معاوية أن يدفع رأيهم الى نحورهم وان من يفارقوه لا يضره ذلك ، لكن الأحنف تكلم ثانية ووجه كلامه لمعاوية قائلاً أنت أعطيت الإمام الحسن (ع) وعوداً فالأجدر الوفاء بها وان تغدر تعلم ، ثم بين إن أهل العراق لا يحبونه منذ أبغضوه ، ولم يبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، فتدخل معاوية وقام خطيباً وقال : ان العيابين والمرتابين من شأنهم الحنق والإسراف ، وهم لا ينتهون حتى تحل بهم قوارع أمر جليل .

وقد أدرك الأحنف بن قيس إن العراقيين هم المقصودون بذلك التهديد ، فنهض مرة أخرى ، وقال لمعاوية انك أعلم بليل يزيد وبنهاره ، وسره وعلنه ، فان كنت تعلم إنه خير لك فولِّه واستخلفه ، وان كنت تعلم إنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ،فانك ليس لك من الآخرة إلا ما طاب.

ومما يلاحظ إن قول الأحنف هذا فيها الشيء الكثير من الإيماءات الخفية التي لا تعجب معاوية ولا أهل الشام ، وقد صرح به بالرغم من إن أحد أعوان معاوية (يزيد بن المقنع) هدد بالقتل كل من يعارض توليه يزيد عندما خاطب معاوية : أنت أمير المؤمنين فان مت ، فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى هذا ، فهذا وأخذ بقائم سيفه ، فقال له معاوية : إقعد فأنت من أخطب الناس ، وعلى اثر ذلك أعرض معاوية عن ذكر البيعة مؤقتاً لعدم توفر الظرف المناسب.

أما المرحلة الثانية فهي ما حدثت في سنة خمسين هجرية حيث قدم المدينة ودعا عبدالله بن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، ولكنه لم يدع الإمام الحسن (ع) ولا أخاه الحسين (ع)، وهذا يعني ان الحسن مازال حياً في هذه السنة ، وذكر للعبادلة انه يريد استخلاف يزيد ، فأما عبد الله بن عباس فلم يكن رده واضحاً إلا ان عبد الله بن جعفر دعا بالخلافة إلى أولي رسول الله ، إما عبد الله بن الزبير فذكر له بصورة غير مباشرة إلى هؤلاء

الأربعة الذين دعاهم وعدم إهمال الحسن والحسين ، وجاءت كلمة عبد الله بن عمر في إن الخلافة ليست هرقلية ولا قيصرية وإنما هي لمن هو أهل من قريش ، لكن معاوية ختم الاجتماع بقوله بان الخلافة لبني عبد مناف إلى يوم القيامة وقد عنى بهذا إخراج عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر من ألخلاقة ، ثم سكت عن البيعة ولم يشر إليها .

ثم تأتي مرحلة ثالثة حدثت في ٥١هـ بعد وفاة الإمام الحسن ، إذ لما أتاه الخبر اظهر البيعة له بالشام ، ثم كتب الكتب إلى تلك الشخصيات التي ذكرناها يطلب منها البيعة ليزيد لكن لم يظفر منهم بشيء .

إن تلك الدعوات والمخاطبات التي قام بها معاوية كانت ضرورية للدعاية لمشروعه في توريث يزيد الخلافة ، وقد بذل معاوية هذا الجهد الكبير لأن الوراثة نظام مستحدث تتعارض مع المبدأ الإسلامي التي يؤكد على إختيار أصلح المسلمين لمنصب الخلافة ، وفي نفس الوقت يتعارض حتى مع الأعراف القبلية التي لا تعترف بالوراثة المباشرة ، لهذا وجد معاوية في إجراءاته تلك وسيلة تخفف من شدة المعارضة بصورة تدريجية، وكجزء من حملة الدعاية دفع يزيد للحج بالناس ، في سبيل ان يبرز شخصيته بين الناس ، وقد استغل يزيد وجوده في مكة ففرق أموالاً كثيرة يشتري بها قلوب الناس وقد رفض عقيبة شاعر أهل البصرة بيعة يزيد في أبيات جاء فيها :

فهبها أمة هلكت ضياعاً يزيدُ يسوسها وأبو يزيد
دعوا حق الأمارة واستقيموا وتأميل الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لاتزركم جنود مردفات بالجنود

ولما بلغ شعره معاوية ، أرسل إليه عشرة آلاف درهم ، فكف لسانه عن ذلك وغيَّر رأيه ، وأصبح عنده يزيد هو الخليق الذي يملأ فراغ المنبر الغربي إذا توفي معاوية.

وبعد أن هيأ معاوية الوسائل الكفيلة لنشر فكرة الوراثة في الشام والعراق ، أراد التوجه نحو المدينة، عاصمة رسول الله ومقر أبناء الصحابة ، وهؤلاء هم الذين يشكلون عنده الهاجس الأكبر ، فكتب إلى مروان والي المدينة بعد مراسلات معه في هذا الموضوع ان يخبر أهل المدينة ، أن أمير المؤمنين ! قد اختار لكم فلم يأل ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده ، وعندما كشف مروان إن يزيد هو مرشح معاوية للخلافة إنتفض عبد الرحمن بن ابي بكر على مروان وقال له : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ، ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ، وطالب ان تكون الخلافة شورى بين المسلمين ،ولما سمع مروان قول عبد الرحمن رد عليه كذباً في سبيل تحقيره بين الناس ، وأشار على عبد الرحمن قائلاً هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا / الاحقاف ١٧) ، ولما سمعت السيد عائشة هذه الفرية ، نادت عليه من وراء الحجاب فأنصت الناس ، فقالت كذبت والله ما هو به ولكنك

فضض من لعنة نبي الله ، وقد أيد موقف عبد الرحمن الإمام الحسين (ع) وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

إن معارضة هذه الشخصيات التي تقود الرأي العام في المدينة ، يعني تعثر مشروع معاوية في الوراثة ، فاعتقد معاوية إن المصلحة تقتضي أن يذهب شخصياً الى الحجاز لاستخدام وسائله الخاصة في حملهم على البيعة ليزيد .

معاوية يجتمع بالمعارضين :

نجد ان الروايات التي تتناول زيارة معاوية للمدينة مقر المعارضة ، تختلف بشكل كبير، فبعضها يصف معاوية انه قابل الشخصيات المعارضة بجفاء وقابلهم بكلام تطغي عليه الخشونة ، لدرجة انه رد على سلامهم قائلاً : لا مرحباً ولا أهلاً، وقيل انه هددهم بالقتل إذ استمروا بمعارضتهم تولية يزيد ، إلا ان السيدة عائشة تدخلت في هذا الموضوع وأقنعته بالرفق بهم ، لذلك اضطر الإمام الحسين (ع) والنفر الذين معه بالذهاب الى مكة ، وهناك أيضاً اجتمع بهم معاوية ثانية .

ومع ان قناعتنا ان جعبة معاوية تحمل الكثير من هذه الأساليب، إلا إنه لا يمكن تقبل هذه الرواية ، فمعاوية الذي يحمل عناء سفر طويل من دمشق إلى المدينة في سبيل إقناع هذه المجموعة على البيعة لأبنه ، لا يمكن ان يلجأ إلى هذا الأسلوب العكر في البداية، لأن فيه تعقيد للأمور، كما انه يدفعهم إلى الإصرار على موقفهم، لاسيما وإن مرشحه يزيد ، لم تكن سمعته جيدة لما عرف عنه من الانشغال بالصيد والملذات المحرمة ، لذلك فان الموقف يستدعي ان يكون الموقف ودياً لا عدائياً .

لذلك يمكن قبول الروايات الأخرى التي تذهب إلى عكس ذلك وترى انه استقبلهم بترحال وود ظاهر، واستناداً إلى هذه الرواية ، فان معاوية لجأ إلى الحيلة في التعامل معهم، وقابلهم بصورة انفرادية كل على حدة، وابتدأ بمقابلة الإمام الحسين (ع) ، ثم بقية الشخصيات الأخرى ، واتهم كل شخص إنه قائد المجموعة في المعارضة ، وطلب من كل واحد ان لا يخبر الآخر بما جرى من محادثات معه ، وتقول هذه الرواية التي استقيناها من الطبري ، انه هدد فقط عبد الرحمن بن أبي بكر بالقتل، وهذه الرواية تبقى ناقصة وغير مقبولة ، لأن الشخصيات الأخرى أخطر منه في نظر معاوية ، فالأجدر ان ينالها تهديداً أكثر .

إلا إن عبد الرحمن قد توفي فنقصت عصبة المعارضين واحداً وقد اختلف في سنة وفاته ما بين سنة ٥٣هـ الى ٥٥هـ وقيل انه توفي في السنة التي قدم فيها معاوية للمدينة لأخذ البيعة ليزيد ، والسؤال في هذا الموضع : هل كان موت عبد الرحمن الذي تزامن مع مجيء معاوية طبيعياً أم لمعاوية له يد فيه ؟ لاسيما وان الروايات وصفت عبد الرحمن بأنه عاند معاوية بصلابة ،

حتى انه رفض مبلغ مائة ألف أرسلها له معاوية فردها عليه ، وقال لا أبيع ديني بدنياي ، فخرج إلى مكة، فمات قبل أن تتم البيعة ليزيد وكان موته فجأة.

ومع إن معاوية تخلص من أحد المعارضين ، لكنه كان مصراً على بيعة الآخرين، لان إمتناعهم يترتب عليه امتناع الناس، لذلك جاء بكوكبه من الفرسان معه تقدر بألف شخص ، وكان الهدف المعلن من هذه الزيارة هو حج بيت الله، لكن الواقع إن السبب الرئيس لها هو انتزاع البيعة من مجموعة القمة المعارضة، وقد ذكر أبن الاعثم ان معاوية أغدق بالهدايا على بطون مكة واستثنى منهم بني هاشم، ولما استفسر منه ابن عباس عن سبب ذلك ، أجابه إن صاحبكم الحسين بن علي (ع) أبى عليّ أن يبايع يزيد، إلا إن ابن عباس هدده ، فاستجاب معاوية له ، وأعطى بني هاشم ، لكن الإمام الحسين (ع) لم يقبل من ذلك شيئاً.

ويعلل الباحث الدكتور بيضون سبب المعارضة قائلاً إنَّ زعماء الحجاز كانوا يجدون في أنفسهم كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة ، فضلاً عن إن غياب معاوية بالنسبة إليهم يكون مقروناً بارتفاع الكابوس المخيم على حياتهم السياسية ، وانتعاش الآمال المكبوتة ، وعودة الاعتبار إلى مقر دولتي الرسول والخلافة وحرية التحرك لأبناء الصحابة الذين عاشوا طوال عهد معاوية ، فيما يشبه الإقامة الجبرية.

ومع أهمية هذه العوامل التي ساقها الدكتور بيضون ، إلا إن هناك عامل مهم يتمثل بما عرف عن يزيد من هوايات شاذة ، فإن هذا النفر شعروا إذا أصبح يزيد أميرهم، فإن ذلك يكون خزياً عليهم وعاراً على المسلمين، لذلك أصروا على الرفض لبيعة يزيد برغم كل ما فعل معاوية من إنفاق وبذل وحسن استقبال وعودة ، ومع عدم وضوح الروايات بالشكل المطلوب، إلا إنه يبدو إن معاوية في قرارة نفسه كان يهتم بالدرجة الأولى بموقف الإمام الحسين (ع) وابن عباس لقرابتهم من رسول الله ومكانتهم بين المسلمين ، فعبد الله بن عمر كان رجلاً منعزلاً متعبداً، وعبد الله بن الزبير على الرغم من ان والده الزبير حواري رسول الله، إلا ان الناس ومعهم معاوية لا يعدلونه بالإمام الحسين (ع)، وحتى ان عبد الله بن الزبير نفسه يشعر بذلك الشعور أيضاً، وهذا يتضح عندما جاء الحسين إلى مكة بعد وصول عبد الله إليها ، لم يجرأ عبد الله بعد وفاة معاوية بالدعوة إلى نفسه بوجود الإمام الحسين (ع) إلى جانبه، بل كان الحسين أثقل الناس عليه ، وكان أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين (ع) بالبلد.

ونتيجة لذلك حرص معاوية على الاجتماع بالإمام الحسين (ع) وعبد الله بن عباس لهذا الغرض، وابتدأ معاوية حديثه مع الإمام الحسين (ع) حول بني أخيه الحسن وأعمارهم كمقدمة للدخول في الموضوع الرئيس وهو بيعة يزيد ، فقال بعد حمد الله ورسوله وما بذله النبي من تضحيات في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى إنتقل إلى ربه زاهداً في الدنيا راغباً عنها ، ثم تناول إبنه يزيد ، وقال انه يحاول ان يسد الخلل به ورأب الصدع بولايته، ثم وجه كلامه إليهما وقال

فيكما فضل القرابة وخطوة العمل وكمال المروءة ثم قارنهما مع يزيد وفضَّله عليهما بملكته على المناظرة والمقابلة مع علمه بالقرآن والسنة ، والحلم الذي عرف به ، ثم ضرب مثلاً بغزوة السلاسل وكيف ان رسول الله ولى على المسلمين من كان دونهم وفيهم أوائل الصحابة من المهاجرين ، وفي رسول الله إسوة حسنة ، وطلب منهما الإنصاف لأن القائل لا يقول إلا بفضل قولكما .

أراد ابن عباس الكلام ، إلا إن الإمام الحسين (ع) قال له : على رسلك فأنا المقصود ، فأمسك ابن عباس ، فقام الإمام الحسين (ع) وحمد الله وصلى على نبيه، وخاطب معاوية بعد ان ذكر له بأن الناس مهما أطنبوا في ذكر فضائل رسول الله فإنهم لم يؤدوا عنه ، ثم فند أقوال معاوية ، وقال هيهات يا معاوية فضح الصبح فحمة الدجى وبهرت الشمس أنوار السرج ، ثم حلل حديث معاوية وقال له فصلت حتى أفرطت واستأثرت حتى أجحفت ، واستمر الإمام في حديثه وإتهم معاوية إنه يريد أن يوهم الناس في يزيد وشبهه كمن يريد أن يصف محجوباً او ينعت غائباً ، وتخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، ثم سرد الحسين (ع) قائمة بصفات يزيد وقال انه باصر باستقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش ، والحمام السبق لا ترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي، ثم نصح الإمام الحسين (ع) معاوية بترك ذلك وان لا يلقى الله بوزر هذا الخلق ، وقال له إنك تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فالأجدر أن تقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ، ثم أوضح الإمام ما تعرضت له الخلافة بعد وفاة رسول الله ، من حجج واحتجاج حتى سارت في غير طريقها، كما فند المثل الذي ضربه معاوية عن سرية ذات السلاسل وقال ان القوم أنفوا من إمرته (عمرو بن العاص) وعدّوا عليه أفعاله (أي عمرو بن العاص)، لذلك قال لهم رسول الله : لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري، لذلك لا يصح الاحتجاج بالمنسوخ.

طار صواب معاوية لهذا الرد الذي تميز بالبلاغة والإحاطة بالتاريخ والقدرة على الجدل المبنى على المنطق ، لذلك التفت لابن عباس فقال له : ما هذا؟ فأجابه ابن عباس، إنها لذرية الرسول واحد أصحاب الكساء.

رأى معاوية ان مناوراته سواء تلك التي أجراها مع المعارضة في المدينة او في مكة، لم تحقق الهدف المطلوب الذي جاء لأجله، لذلك أراد أن يستطلع رأيهم للمرة الأخيرة ، فان تحصل المطلوب فهذا ما أراد، وان أصروا على الرفض فهناك الوسائل البديلة للوصول إلى الهدف ، فاحضر معاوية الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، تحدث معهم بلسان معسول، ولفت نظرهم إلى صلاته وجوائزه التي أغدقها عليهم ، وبيّن لهم إن يزيد أخوهم وابن عمهم وإنه يريد ان يقدموه إلى الخلافة، وهم الذين يأمرون وينهون، وقد فوض المعارضون عبد الله بن الزبير ليكون الناطق باسمهم، فطلب من معاوية بان يترك أمر الخلافة شورى بين

المسلمين، ولما سأل البقية عن رأيهم أجابوه بنفس القول، وفي ضوء ذلك اتخذ قراره الأخير، وقال لهم إنه سيلقي خطبة على الناس، وهددهم بالقتل إن هم عارضوه وأشار انه لا يرد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، حتى يسبقها السيف إلى رأسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال له: أقم على رأس كل واحد من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل يرد عليّ بكلمة صدق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما.

بعدها صعد معاوية المنبر وخطب بالناس ، وقال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، ولا يبتز أمر دونهم ولا يقضى أمر عن غير مشورتهم ، وقد بايعوا يزيداً فبايعوه باسم الله، وفي هذا الصدد قال احد الباحثين ان سياسة معاوية التي نشأ عليها واحدة فكسب بها ولم يشأ ان يتخلى عنها، لايضيره ان تضره في دينه مادامت تفيده في دنياه وهكذا حمل معاوية القوم ما لم يقولوه وما ليس لهم برأي

وبهذه الطريقة مهد معاوية الطريق لبيعة يزيد ، ولم يتمكن زعماء المعارضة ان يقولوا شيئاً، بسبب التهديد بالقتل ، ولم يعلم الناس بشيء عما دبره معاوية، ولما عاتبهم الناس على موقفهم ، قالوا لهم خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم.

وعلق حسن إبراهيم حسن على ما حدث بقوله : هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر، فقسا عليهم وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية.

وأيد الخربوطلي هذا الرأي وقال : ان الخلافة في عهد بني أمية أصبحت ملكاً وراثياً استبدادياً لا شأن للرعية فيه ولا رأي لها في إقراره.

إن هذا الأسلوب الذي إتبعه معاوية في سبيل حمل الناس على بيعة إبنه صَوَّره الشاعر عبد الرحمن السلولي وانتقد فيه الناس لأنهم فقدوا عزتهم وكرامتهم وذلوا لدرجة إنهم لا يمتنعون حتى عن بيعة النساء عليهم ، وهم لو كانوا شم الأنوف لردوا آل أمية إلى ديارهم في مكة يأكلون السخينة (طعام من دقيق وسمن أو دقيق وتمر، وكانت قريش تعيّر به لأنهم يكثرون من أكله) فقال :

وإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفاً لو إن لنا أنوفاً ولكن لانعود لما عنينا
إذاً لضربتمُ حتى تعودوا بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ماروينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

ولما وصل هذا الشعر إلى معاوية ، قال ما ترك ابن همام شيئاً عَيّرنا بالسخينة وذكر أمهاتنا ، ولو شرب دماءنا ما اشتفى ، اللهم أكفناه.

نجحت خطة معاوية في البيعة ليزيد ، لكن مع ذلك فهناك من عارض في بلاد الشام ، إذ لما تمت البيعة ، قال رجل وقد دعي إلى البيعة : اللهم أعوذ بك من شر معاوية ، فقال له معاوية تعوذ من شر نفسك ، فانه اشد عليك وبايع ، قال إني أبايع وأنا كاره البيعة ، قال معاوية بايع أيها الرجل فان الله يقول (فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله منه خيراً كثيراً).

ان معاوية استطاع بهذه الخدعة ان يحمل عامة الناس على البيعة لكنه أخفق في الحصول على مبايعة زعماء المعارضة ، وإذا نظرنا إلى الواقع نرى ان المعارضة الجدية انحصرت في شخصين هما : الحسين بن علي (ع) وعبد الله بن الزبير ،لأن عبد الرحمن ابن ابي بكر قد توفي ، فزال تأثيره ، أما عبد الله بن عمر فلا يمكن إعتباره معارضاً بقدر ما كان واعظاً، إذ يمتاز بالتردد والمواقف الهشة ويفتقر إلى ألجرأة ، فهو قد وعد معاوية بالبيعة ، وقال له لو اجتمعت الأمة على حبشي لدخلت معها، كما انه لا يتدخل في الأحداث الساخنة إلا بعد أن تبرد وتنتهي إخطارها ، فيعلق عليها ، كما حدث عندما ندم على عدم مشاركة الإمام علي (ع) في قتال الفئة الباغية ، كما ذكرناه سابقاً، فضلاً عن انه لم يبايع الإمام علياً(ع) ، في حين انه بايع معاوية بن أبي سفيان، وحينما سؤل أحدهم عن هذه المفارقة قال : كان ابن عمر يعطي يداً في فرقة ولا يمنعها عن جماعة ، او حينما قتل حجر ، أو لما مات زياد بن أبيه، فإن ابن عمر قال بعد وفاته: لا في الدنيا بقيت، ولا الآخرة أدركت، في حين انه لم يحرك ساكناً بوجه زياد ولم ينتقد جرائمه في حياته أو نصحه على الأقل، ويمكن ان نستنتج شعاره في الحياة من كلامه الذي قاله : لا أقاتل في فتنة ، وأصلي وراء من غلب.

لذلك فان شخصية مثل ابن عمر لا يعبأ بها معاوية ، او ينظر إليها كشخصية معارضة قوية ، بقدر ما ينظر إليه مثل بقية الناس إنه ابن الخليفة عمر بن الخطاب ، لذلك إن بيعته ليزيد تضفي غطاءاً معنوياً عليه لا أكثر ، أو ربما تدفع المترددين لبيعة يزيد ، لذلك فلا خشية منه عند معاوية وافق أم لم يوافق.

وصية معاوية المزعومة ليزيد

في سنة ٦٠هـ أحس معاوية بدنو أجله، فأرسل على إبنه يزيد الذي كان غائباً عن دمشق ، فلما أبطأ عليه ، قيل إن معاوية دعا الضحاك بن قيس رئيس الشرطة، ومسلم بن عقَبة أمر الحرس، ولما حضرا بلغهما وصيته لنقلها لأبنه يزيد ليسير في ضوئها عند حكمه .

وإذا أمعنا النظر فيما أوردت المصادر التاريخية عن وصية معاوية ، نجد إن نصها مختلف في التفاصيل ، لكنه يتشابه في الإطار العام ، وإذا نظرنا إلى النص الذي ورد عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) والبلاذري (ت٢٧٩هـ) والطبري (ت٣١٠هـ) وابن عبد ربه (٣٢٨هـ) ، نجد عند الجاحظ وهو أقدمهم وابن عبد ربه، نصاً واحداً فقط ، ونجد له ما يشابهه عند البلاذري والطبري اللذان ذكرا نصاً آخر إلى جانبه، ونشاهد ان ذلك النص يختلف فيما يتعلق بالموقف من الإمام

الحسين، فهذا النص يمكن ان نقول انه يتألف من مقدمة تحتوي على توجيهات عامة تتناول الأسلوب الذي يجب عليه إتباعه في معاملة أهل العراق والشام والحجاز، فجاءت وصية معاوية له بأهل العراق أن يستجيب لهم حتى ولو طلبوا منه ان يعزل كل يوم عاملاً فعليه ان يفعل ، فانه أفضل من ان يشهرُ عليه مائة ألف سيف ، وإما أهل الحجاز فاعتبرهم أصله فعليه ان يكرم من قدم عليه ويتعاهد من غاب منهم ، في حين جعل لأهل الشام رعاية خاصة ، فعليه ان يجعلهم بطانته ويعتمد عليهم في الملمات وينتصر بهم وأكد عليه معاوية ، ان يردهم إلى بلادهم خوفاً من ان تغيرّ إقامتهم بغير بلادهم ، أخلاقهم ، ويفهم من هذا أن معاوية يريد أن يبقي أهل الشام على ما رباهم عليه من خلق خاص خشيّ عليه من الشك به إذا اطلعوا على حقائق حجبها عنهم بصورة قصدية فتتغير أهواؤهم ويحصل رد فعل خاص فيتأدبوا بغير أدبهم .

وقد حذره بموجب هذا النص من ثلاثة أشخاص وهم عبد الله بن عمر، لكنه رجل وقذته العبادة وأما الحسين (ع) فقال عنه إنه يرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، واما ابن الزبير فانه خب ضب (مخادع وحاقد) فان ظفرت به فقطعه إرباً إرباً.

وفي هذه الوصية التي تتعلق بالحسين يفهم منها إن هناك مشروعاً سرياً يتأهب لاغتيال الإمام الحسين (ع) كما اغتيل الإمام علي (ع) ثم من خذل الإمام الحسن (ع) ، فيا ترى هل وضع معاوية له خطوطاً عامة للقيام بذلك، أم كانت هناك وصية سابقة بهذا الشأن ، يجب ان ينفذها يزيد عندما يعتلي كرسي السلطة ؟إذ ما ذا تعني عبارة : إنه يرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ؟

إما النص الأخر للوصية الذي ورد عند البلاذري والطبري ايضاً وابن الأثير ويضاف إليهم ابن الاعثم فجاء فيه ان النصيحة أدلاها معاوية لابنه يزيد مباشرة، وهذا يعني إنها وضعت قبل وفاته وجاء في هذه النصيحة ان معاوية حذره من أربعة أشخاص وهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير)، ثم ذكر له ما يجب ان يكون موقفه اتجاه كل واحد ، فبيّن له ان عبد الله عمر رجل أشغلته العبادة وانه سيبايعه، وأما عبد الرحمن بن أبي بكر، فرجل ان رأى أصحابه صفوا شيئاً صنع مثله، ليس له هم إلا في النساء، وأما الحسين بن علي ، فان أهل العراق سيدعونه ويخرجونه فان خرج عليك وظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، إلا ان معاوية أمر يزيد ان لا يتهاون في شأن عبد الله بن الزبير ، فانه يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إربً إرباً.

وقد اعتقد الباحث باقر القرشي إن هذه الوصية بعيدة عن الصحة ولا يمكن قبولها واعتبرها من الموضوعات التي افتعلت لإثبات حلم معاوية ، بأنه عهد إلى ولده بالإحسان الشامل إلى

المسلمين ، وهو غير مسؤول عن تصرفات إبنه ، وقد عزز الباحث اعتقاده بتحليلات رصينة للنص نذكرها فيما يأتي:

١-تناول القرشي قول معاوية ليزيد عن أهل الحجاز، وكيف وصفهم له إنهم أصله، وقال إن معاوية أوصى يزيد بغير ذلك ، واستشهد بما جاء في تاريخ ابن خليفة إذ حذره وقال له ، إن لك يوماً من أهل المدينة ، فان فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة ، فانه رجل قد عرفنا نصيحته ، وكان مسلم جزاراً جلاداً لا يعرف الرحمة والرأفة ، وقد استعمله يزيد في إخماد ثورة الحرة، فاقترف كل موبقة واثم ، فكيف نلتقي هذه الوصية بتلك التي عهد فيها بالإحسان إلى أهل الحجاز ؟

٢-إن معاوية أوصاه برعاية العراقيين ، والاستجابة لهم في عزل الولاة حتى اذا كان ذلك كل يوم ، في حين ولى عليهم عبيد الله بن زياد وهو يعلم شدته وصرامته واغرق العراق بدماء الأبرياء ، فهل ذلك من الإحسان إلى العراقيين؟

٣-جاء في الوصية إنه يتخوف عليه من عبد الله بن عمر وقد وصفه إنه شغلته العبادة ، فإذا كان كذلك فلماذا التخوف منه ؟

٤-كما انه ذكر في الوصية انه يتخوف عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نص المؤرخون على انه توفي في حياة معاوية ، فما معنى التخوف من رجل ميت ؟

٥-ولعل النقطة المهمة التي ذكرها الباحث باقر القرشي، هي وصيته التي تتعلق بالإمام الحسين، حيث أوصاه بأن للحسين رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقرابة من رسول الله، لكن معاوية بالذات لم يراع أي جانب من جوانب القرابة من رسول الله، فقد قطع جميع أواصرها، من سب الإمام علي على المنابر، وتربية الناشئة على بغض أهل البيت ، ثم استشهد القرشي برأي احد الكتاب وقال إن معاوية لم يتردد في إغتيال الإمام الحسن ، فكيف يوصي إبنه برعاية الحسين ؟ فقد حارب الرسول في الجاهلية حتى اسلم كرهاً يوم فتح مكة ، وحارب ابن عم الرسول علياً ، ونزا على خلافة المسلمين، لذلك لا يمكن تصديق وصيته، ثم يعقب على ذلك بالقول، ربما يكون معاوية أوصى يزيد أن يغتال الحسين سراً ويدس السم، أو يبعث له من يطعنه بليل ، وقد رأينا صدى لهذا العمل في النص الأول للوصية .

ومما يؤيد ذلك ما ورد في رسالة عبد الله بن عباس، في معرض رده على رسالة يزيد بن معاوية التي وجهها إليه، عندما علم أن ابن عباس لم يبايع عبد الله بن الزبير، فاعتقد أن ذلك من قبيل تأكيد بيعته، لذلك أثنى يزيد على موقف عبد الله ووعده بالصلة وطلب إليه تحشيد الناس ضد ابن الزبير .

وقد أجابه ابن عباس برسالة هاجم فيها بشدة يزيد وأباه وقدم له كشفاً بمفردات ما اقترفاه من فضائع، ولعل ما يهمنا من الرسالة في هذا الموضع هي الفقرة التي أشارت الى محاولة اغتيال

الحسين، إذ جاء فيها : فلست بناسٍ إطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم رسول الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقب.

فهذه الرواية تشير إلى أن هناك مخطط أُعد مسبقاً لاغتيال الحسين، إلا أن ذلك المخطط لم يكتب له النجاح، لذلك خرج الحسين من مكة إلى المدينة .

كما أن القندوزي الذي أورد مقتل أبي مخنف في كتابه (ينابيع المودة) جاء فيه : أن يزيد أرسل مع الحجاج ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية وأمرهم بقتل الحسين، لذلك لم يتم الحسين حجته، مخافة أن يبطش به ويقع الفساد في الموسم، فجعل حجه عمرة منفردة، وعجلت بالإمام الحسين بالاستجابة الى كتب أهل العراق للمجيء إلى الكوفة .

ومن ناحية أخرى إن يزيد بعد وفاة أبيه لا همَّ له إلا ان يحصل على بيعة الحسين والتشديد على عاملة في المدينة بوجوب إجبار الحسين عليها ، بالإضافة إلى هذه الملاحظات الوجيهة التي أبداها القرشي على الوصية ، يمكن بان نضيف الى ان التناقض الموجود في الوصية حول عبد الرحمن بن ابي بكر ، إذ صورته بأنه رجل إمعة لا رأي له ، وان همه الرئيس النساء ، في حين ان عبد الرحمن شيخاً كبيراً زاد عمره على السبعين ، فكيف يمكن اتهام الشيخ باللهو مع النساء وهو في عمر لا يسمح له بذلك ويمكن تأكيد عمره بما ذكرناه عندما نعلم إن عبد الرحمن بن أبي بكر شارك في موقعتي بدر ٢هـ وأُحد ٣هـ في صفوف المشركين ، كما أنه أسن أولاد أبي بكر ، ومن ناحية أخرى صورته الروايات التاريخية بأنه كان معارضاً شديداً لتولية يزيد ورد على مروان بالكذب وظل على هذا الموقف حتى وفاته ، فكيف صار في الوصية يصنع إذا صنع الآخرون؟ مع انه توفي في حياة معاوية لذلك تنتفي الوصية بالوصية أو الحذر منه.

ومن جانب آخر لا نجد لوصية معاوية أثراً على يزيد الذي كتب إلى واليه في المدينة الوليد بن عقبة ان يأخذ الحسين بالشدة ومن معه، فلو كانت هناك توصية بصلة الرحم لكتب يزيد بذلك لواليه ان يأخذ بيعة الحسين بالتي هي أحسن ، ولكن لم يحصل هذا فهل هذا يشير الى إن يزيد كان ولداً عاقاً لأبيه لأنه لم ينفذ وصيته التي أمره بها ، أم إن الأصح انه لا وجود لهذه الوصية إطلاقاً؟ بدليل إن كل أعماله ألتي قام بها في خلافته لا تتسق مع ما جاء فيها.

وقد ذكر ابن الاعثم أمراً صادراً من معاوية ليزيد جاء فيه : ان يبعد قاتلي الأحبة ، وان يقدم بني أمية وال عبد شمس على بني هاشم ، وان يقدم آل عثمان بن عفان على آل أبي تراب وذريته ، فمن قرئ عليه هذا الكتاب وقبله حق قبوله وبادر إلى طاعة أميره يزيد بن معاوية فمرحباً وأهلاً، ومن تأبى عليه وامتنع فضرب الرقاب حتى يرجع الحق إلى أهله .

ومن هنا يمكن القول ان الأحداث توحي بعدم وجود وصية بتلك الصيغة ليسير عليها يزيد كخطة عمل في سياسته فهي وليدة خيال محدث أو راوٍ أو مؤرخ جاء بها ليصنع فضيلة جديدة لمعاوية تتمثل بأنه يمتلك فراسة نادرة في قراءة المستقبل واستشراف أحداثه لاسيما فيما يتعلق بأن

ألحسين لابد أن يظهر عليه، وهكذا نجد إن معاوية ختم حياته بوضع أساس تدمير الروح الإسلامية، بنظام الوراثة ، الذي مهد لتأمير من يفتقر إلى الصلاح في تولي شؤون الأمة، فتعطل المعروف وشاع المنكر، لذلك لابد من نهضة توقف هذا التيار قبل أن يؤدي بالأمة إلى الانهيار ، فأخذ الإمام الحسين (ع) على عاتقة الثورة بوجه هذا الطغيان، إلا إن النتائج القريبة حققت أحلام الأمويين، في أخذ ألثأر لأجداده صرعى بدر، بقتل الحسين أعز آل البيت عند رسول الله ألأعظم .

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وحياته وتوليه الخلافة

أولاً : **اسمه ونسبه وكنيته** :

ثانياً : **ولادته ونشأته** :

ثالثاً : **زوجاته وأولاده** :

رابعاً : **أهم أعمال يزيد في عهد والده غزو القسطنطينية**:

خامساً : **أهم صفات يزيد بن معاوية**:

سادساً : **بيعة يزيد**:

أولاً : **اسمه ونسبه وكنيته** :

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى ((أبو خالد)) ، وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح، وكانت من أعقل النساء، حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة وأبوها من أشراف قبيلة كلب.

ثانياً : ولادته ونشأته :

كانت ولادة يزيد بن معاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه في سنة ست وعشرين، وقيل أن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان في سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة، نشأت والدته في البادية حيث أن والدته طلقها أبوه فعاش مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت في طباعه تلك النشأة فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة والكرم، والشجاعة، واستمر متعلقاً بالبادية، حتى أنها أثرت في لباسه وعدم التكلف في حياته، فقد تلقوه أهل الشام بعد موت أبيه عائداً من أخواله ليس له عمامة ولا سيف فقال الناس: هذا الأعرابي الذي ولي أمر هذه الأمة، واهتم به والده وعين له مؤدباً ليعلمه وهو دغفل بن حنظلة السدوس الشيباني، وجعل معاوية ابنه يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجهرمي الذي استقدمه

معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالماً بأيام العرب، وأحاديثها وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين، وقد تأثر يزيد من هذا الشيخ الحكيم الذي حنكته التجارب والسنون وقد توفي عبيد بن شرية سنة ٧٠هـ ، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير، قال الذهبي في ترجمة عبد الصمد بن علي الهاشمي وكان في تعدُّد النسب نظير يزيد الخليفة، وقد توفر ليزيد ما لم يتوفر لغيره إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم وكاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى عن أبيه أحاديث منها: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة وقال له أحاديث، وقد كان معاوية رضي الله عنه يحاول دوماً أن يوجه يزيد نحو الاستفادة من مجالس الوفود التي تفد عليه، فقد ذكر ابن المبارك أن معاوية قال لبعض رجالات الوفود ما تعدون المروءة فيكم قالوا: العفاف في الدين، والإصلاح في المعيشة، فقال معاوية: أسمع يا يزيد، فقد كان معاوية رضي الله عنه منذ أن استقر له الأمر في الشام شديد الاهتمام بتربية ولده، فأشركه منذ وقت مبكر في الصوائف وتحمل المسئوليات، وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبي ولده، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد قال: لا يا أمير المؤمنين قال: ولم؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل، وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده ، على الرغم من صغر سنه مما يدل على مدى إهتمام أبيه به، فيروي ابن ظفر الصِّقلّي: أن معاوية بن أبي سفيان قال لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين: يا بني في أي سورة أنت؟ فقال: في السورة التي تلي يا أمير المؤمنين. فقال: يا بني إن هذه السورة تليها سورتان وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟ قال: في السورة التي في أولها((والذين آمنوا وعلموا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم)) (محمد ، الآية : ٢). فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوي حيث يقول:

ملوك وأبناء الملوك وسادة
تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
متى تلقَ منهم ناشئاً في شبابه
تجده على أعراق والده يجري
فهم يغفرون الذَّنب ينقم مثله
وهم تركوا رأي السَّفاهة والهجر

وكان معاوية يوجه أبنه ويرشده وينصحه ويدله على الصواب فقد رأى ابنه يضرب غلاماً له، فقال له: سوأة لك، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من ذوى

الإحن، وإنَّ أحقَّ من عفا لمن قدر، وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أبا مسعود يضرب غلاماً له، فقال له: اعلم أبا مسعود للهُ أقدر عليك منك عليه، وذات يوم غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة، وأرضى ذليلة إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حياتك ويتمنَّوا موتك، فقال معاوية: لله درُّك يا أبا بحر، يا غلام ائت يزيد فأَقْرِئه مني السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائه ألف. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف. فقال: لا جرم لأُقاسمنه فبعث إلى الأحنف بخمسين ألف وخمسين ثوباً ، وكان يزيد حاضر البديهة، قال العتبي: وقدم زياد بأموال عظيمة، وبسفط مملوءة جواهر على معاوية، فسرَّ بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عُبيد إلى حرب بن أميه. فقال له معاوية أجلس فداك أبي وأمي وكان معاوية يربي يزيد على القيام بالواجبات الاجتماعية مع أعيان المجتمع، فعندما وفد عبد الله بن عباس إلى معاوية، أمر ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن علي، فلمّا دخل على ابن عباس رحّب به وأكرمه وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المُعزِّي لا المُهَنِّي، ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله ابا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وعوّضك من مُصابك ما خير لك ثواباً وخيرٌ عقبى. فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابنُ عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً

مَغَاضٍ عن العوراءِ لا ينطقونها

وأهلُ وِراثات الحلوم الأوائل

وكان معاوية رضي الله عنه يختبر ابنه بين الفينة والأخرى فذات يوم سأله: كيف تُراك فاعلاً إن وُلّيت؟ قال: يُمتعُ الله بك. قال: لتُخبرني قال: كنت والله يا أبة عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله، سبحان الله، والله يا بُنيَّ لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها.

ثالثاً : زوجاته وأولاده :

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبي سفيان بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

١ . معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمن كما يعرف باسم أبي ليلى وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إني أرى فِتنة قد حان أوَّلُها

والملك بعد أبي ليلى لمن غلب

٢ . خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.
٣ . أبو سفيان بن يزيد: وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم.
وتزوج أيضاً يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فأنجبت له عبد الله بن يزيد ويعرف بلقب ((الأسوار)). وكان من أرمى العرب وهو الذي يقول فيه الشاعر:
زعم الناسُ أن خيرَ قريش
كلِّهم حين يُذكرُ الأُسوار
وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد، ويبدو أن لمحمد هذا الأخير عقب لا يزال موجوداً حتى الآن في شبه جزيرة العرب في المنطقة المعروفة باسم عسير، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البقعة عند قيام الدولة العباسية وملاحقة الأمويين، واستطاع بعد مدة من تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة واستمرت في أمرها حتى العصر الحديث، وكان منها آل عائض بن مرعي الذين كان لهم حكم المنطقة قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة.
رابعاً : أهم أعمال يزيد في عهد والده غزو القسطنطينية:
تكمن أهمية هذه الغزوة بذكرها في الحديث الشريف، وفضيلتها وفضيلة أهلها المجاهدين، فقد ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا ذهب إلى قباء يدخل إلى أم حرام بنت ملحان فتطعمه . وكانت تحت عبادة بن الصامت . فدخل يوماً، فأطعمته، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت، ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو قال: مثل الملوك على الأسرة . قلت: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة . أو مثل الملوك على الأسرة، فقلت ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت من الأولين، فركبت البحر زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت. وفي رواية: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم. قال ابن كثير في تعليقه على هذا الحديث: وقد كان ذلك في سنة سبع وعشرين مع معاوية حين استأذن عثمان في غزو قبرص، فأذن له فركب المسلمون في المركب حين دخلها وفتحها قسراً، وتوفيت أم حرام في هذه الغزوة في البحر وكانت مع معاوية فاخته بنت قرظة وأما الثانية فكانت في سنة اثنين وخمسين في أيام ملك معاوية، بعث ابنه يزيد ومعه الجنود إلى غزو القسطنطينية ومعه في الجيش جماعة من سادات الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد رضي الله عنه، فمات هناك وأوصى إلى يزيد بن معاوية، وأمره أن يدفنه تحت سنابك الخيل، وأن يوغل إلى أقصى ما يمكن أن تنتهي به إلى نحو جهة العدو، ففعل

ذلك، وفضيلة غزو القسطنطينية ليزيد، جعلت الذهبي مع شدة حمله على يزيد يقول: يزيد بن معاوية أبو خالد الأموي له هنات حسنة، وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاري، وما أجمل قول ابن تيمية: ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم، ويبدو أن يزيد قد قام ببعض الحملات حتى وصل إلى خليج القسطنطينية ومعه زوجته أم كلثوم، ويبدو أن معرفة يزيد بحرب الروم، وإدراكه بخطرهم الداهم، وأخذه بنصيحة والده رضي الله عنه، فكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شد خناق الروم، كل هذه الأمور جعلته بعد أن تولى الخلافة يسير على خطته في جهاد الروم، ولم تمنعه أحداث ابن الزبير وشيعة العراق من قتالهم، وقد كانت وفاة يزيد فيما بعد متنفساً للروم، ليس فقط في وقف الهجمات الحربية عليهم من قبل المسلمين، بل بلغت بهم الجرأة إلى الإكثار من الغارات على بلاد الشام ومنطقة الثغور، ولما عاد يزيد من غزوة القسطنطينية في نفس السنة حج بالناس، وهذه الأعمال التي قام بها يزيد في غاية الأهمية في ذلك العصر، فكان يزيد يقود جيشاً من أعظم الجيوش في عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم وساداتهم وأبناءهم ويتجه هذا الجيش بقيادة يزيد إلى أهم جبهة في الدولة الإسلامية، وغير هذه الاعتبارات تدل على أن يزيد الذي يبلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين (٢١ . ٢٣) يملك روحاً قيادية وكفاءة حربية ، ولم يعترض أحد من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد في تلك المرحلة، كما أن هذا التصرف من معاوية رضي الله عنه في توليه يزيد هذا الجيش . والذي يضم أكابر الصحابة وأبنائهم وفقهائهم وسادات المسلمين فيه دلالة على أن معاوية رضي الله عنه، يرى في ولده يزيد ملامح النجابة والكفاءة التي تؤهله لقيادة هذا الجيش.

خامساً : أهم صفات يزيد بن معاوية:

إن المصادر التاريخية والأدبية على حد سواء تزودنا بأخبار قليلة عن صفات يزيد المكتسبة والموروثة، إلا أنها تحدد لنا بعض الملامح من شخصية يزيد بن معاوية فمنها:

١ . القوة والشجاعة: قال عنه الذهبي: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وكان يتمنى أن يوليه أبوه في الغزو على الصائفة بالمسلمين. وكان يحرص على إقامة السباقات بين الخيل، ويجعل الجوائز، لرفع مستوى الفروسية عند المسلمين، علاوة على تمكنه من قيادة الجيش الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال، وذكر صفوان بن عمرو أن المسلمين لما جاوزوا بالأسارى من الروم، ضرب أعناقهم يزيد بن معاوية والروم تنظر إليهم، كما أن من حزمه ما حكاه العتبي بإسناد أن أبا أيوب الأنصاري مرض في غزوة القسطنطينية، فأتاه يزيد عائداً فقال: ما حاجتك يا ابا أيوب؟ قال: ادفني عند اسوار القسطنطينية... فلما مات أمر يزيد بتكفينه وحُمل على سريره، ثم أخرج الكتائب فجعل قيصر يرى سريراً والناس يقتتلون فأرسل

إلى يزيد: من هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله. قال: العجب كيف من ينسب أبوك للدهاء ويرسلك فتأتي بصاحب نبيك، وتدفنه في بلادنا، فإن وليت أخرجناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له، لئن بلغني أنه نبش من قبره أو مثل به، لا تركت بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي.

٢ . الفصاحة والشعر: ذكر الذهبي بأنه صاحب فصاحة. ولما تكلم الخطباء عند معاوية قال والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد تكلم، وقد ذكر المدائني بإسناده أن رجلاً قال لسعيد بن المسيب: أخبرني عن خطباء قريش، قال: معاوية، وابنه يزيد، ومروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، وسعيد بن العاص وابنه وما ابن الزبير بدونهم، وأما شعره فقد كان شاعراً مجيداً، جعل الناس يقولون بدء الشعر بملك، وختم بملك، إشارة إلى امرؤ القيس وإلى يزيد، ومن شعره ما كان ينشده هارون الرشيد ليزيد بن معاوية:

إنها بين عامر بن لؤَيٍّ
حين تَنْمِي وبين عبد مناف
ولها في المُطَيَّبِين جدودٌ
ثم نالت مكارم الأَخْلافِ
بنتُ عمِّ النبي أكرمُ من
يمشي بنعل على التُّراب وحافي
لن تراها على التَّبَذُّل والغلظة
إلا كدرة الأصداف

٣ . الكرم: اشتهر عن يزيد الكرم فكان يجزل العطاء لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وليس غريباً عنه وهو الذي يقول: حفظ النديم والجليس وإكرامهما من كرم الخليفة وقضاء حق النعمة، ولقد حازت هذه الأعطيات على إعجاب عبد الله بن جعفر وقال له: فداك أبي وأمي فوالله ما قلتها لأحد قبلك، وكان يقول: أتلوموني على حسن الرأي في يزيد. ومن كرمه أيضاً: أن عبد الله بن حنظلة عندما قدم عليه من المدينة وبنيه أعطاه مائة ألف وأعطى كل واحد منهم شعرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم وقصته مع الأحنف في مقاسمته الجائزة التي أمر بها معاوية قد مرت معنا.

وأما صفاته الخَلْقية: فقد كان ضخم الجسم سمينا طويلاً غليظ الأصابع كثيف الشعر جعده أسمر البشرة في وجهه أثر الجدري أحور العينيين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً.

سادساً : البيعة ليزيد :

لم يكشف معاوية عن خطته في جعل الحكم وراثياً في إسرته عندما أصبح سلطاناً للمسلمين ، تفادياً لردود الفعل التي سيواجها عند إعلانه فجأة ، فهو قد إنشغل في السنوات الأولى من السلطة في تثبيت أقدامه في البلاد ، وتعيين كبار أهل بيته ولاة في الإدارة ، فضلاً عن كسب الأتباع والمؤيدين عن طريق البذل والعطاء أو تصفية الحساب مع الهاشميين وأتباعهم، والتخلص من أولئك الذين يجأرون بالشكوى من الأوضاع الجديدة ، وبعد ان تسنى له تهيئة أرضية سهلة ، فبدأ يفكر بالوسيلة التي تنقل الحكم من المهاجرين إلى الأمويين ، بصورة لا يصاحبها رد فعل عنيف تنهار على أثرها الآمال الأموية التي انتعشت بعد وفاة رسول الله ، لاسيما وان هذا المبدأ في الحكم يعتبر انقلاباً عما تعوده المسلمون في اختيار الخليفة ، لذلك إرتأى ان يكون وصوله إلى ذلك بشكل تدريجي يمتص النقمة المتوقعة بالتدريج أيضاً.

لقد كانت خطواته الأولى كما مرت بنا، تقوم على التخلص من كل الشخصيات التي بوجودها لا يمكن طرح مشروع الوراثة لإبنه يزيد فتخلص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حرب صفين ، وسم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والإمام الحسن ابن علي (ع) وسعد بن أبي وقاص كما ارتبط بهذه الخطوات شراء الذمم بالأموال والتضييق على أنصار العلويين ومطاردتهم ، أما الذين يمتلكون حساً ثورياً يخشى منه أن يشتد ، فكان نصيب هؤلاء القتل كما حصل لحجر وأتباعه في مجزرة مرج عذراء.

وقد وجد معاوية إن مشروعة يسير في طريقه الصحيح ، وأراد ان يدعم هذا النجاح بالحصول على مؤازرة مستشارية ، فتمكن من خداع مروان الطامع في العرش بان لوح له بأنه سيكون وصياً ليزيد أما المستشار الثاني زياد بن أبيه ، فكان له وجهة نظر تخالف ما يريده معاوية ، إذ وجد إن حياة يزيد وما فيها من تهتك باتت معروفة للجميع ومكشوفة لحد التفاصيل ، فاقترح عليه تأجيل المشروع لعل يزيد يقلع عما تعود عليه ، حينذاك تكون الفرصة مواتيه لذلك ، ولما نقل موفد زياد هذا الرأي لمعاوية ، غضب على زياد واعتقد إنه يحدث نفسه بالخلافة .

لكن معاوية استمر في تهيئة مستلزمات مشروع الوراثة ، الذي يقطع الطريق على بني هاشم ولا يفسح مجال العودة إلى حكم أبناء الإمام علي (ع) ، فعمد على ترويض الناس على تقبل هذه الفكرة لمدة سبع سنيين يشاور ويعطي الأقارب ويداني الأباعد حتى استوثق له أكثر الناس

وذكر ابن قتيبة ، ان معاوية لم يلبث يسيراً بعد وفاة الحسن حتى بايع ليزيد بالشام وكتب ببيعته إلى الآفاق، وذكر السيوطي ان معاوية لما حج عام ٥١هـ أخذ البيعة لابنه يزيد .

أما ما قيل إن المغيرة بن شعبة هو الذي أوحى بفكرة ولاية العهد ليزيد لأن معاوية كان ينوي عزل المغيرة ، فابتكر هذه الفكرة ليبقى في منصبه، وقد أدلى برأيه أولاً ليزيد الذي بدورة نقلها إلى أبيه ، وإثر ذلك رده إلى ولايته تثميناً لما جاء به ، فاخذ بها معاوية وتبناها .

وتبدو هذه الرواية غير مقنعة من الناحية التاريخية ، وذلك ان هاجس حكم المسلمين ترسخ في نفوس الأمويين منذ إختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين من قبل مجلس الشورى ، حينما خاطب أبو سفيان الأمويين (تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة..) لذلك لابد ان جرس تلك العبارة ما يزال يرن في أذن معاوية وينتظر اليوم الموعود لذلك الحدث ، فترسخت تلك الفكرة في ذهنه ، ووجد الفرصة سانحة عند تأزمت الأوضاع في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، لذلك لم يبذل معاوية أي مجهود في سبيل إنقاذ الخليفة ، وإنما كان يأمل في أن يقتل ليكون وسيلة للوصول إلى منبر الخلافة ، ومن ناحية أخرى إن معاوية رفع راية العصيان ورفض مبايعة الإمام علي (ع) ، وحرض على التمرد عليه في مؤامرة الجمل ، ثم خاض ضده حرباً شعواء في يوم صفين التي أغرقت المسلمين في بحر من الدماء ، كاد فيها ان يفقد نفسه لولا رفع المصاحف وما صاحب عن ذلك من بذل أموال ومكر وحيلة تلاه اغتيال الإمام علي (ع) ومن ثم عقد الصلح مع الإمام الحسن (ع) لهذا فليس من المعقول ، بعد كل هذا العناء ، أن يترك الحكم بعد وفاته للأقدار، فمعاوية الذي اعتلى منصب الخلافة في حين لم يكن فيه خصلة ينافس بها علياً (ع) ، كان يحمل مشروعاً بعيد المدى يعيد ما كان لأمية قبل الإسلام من جاه وهيبة، ثم ان السنوات الأربعين التي قضاها معاوية في ولاية الشام وخلافة المسلمين ، ذاق فيها لذة عيش لم يحلم بها لذلك لا يمكن ان يتركها للآخرين لاسيما وان الأمويين وولاتهم خلال إدارتهم للدولة ارتكبوا كثيراً من المجازر ضد أبناء القبائل العربية ، فهذا الأمر يجعل معاوية يخشى على مستقبل أهله وعشيرته من انتقام القبائل المنكوبة فيما إذا خرج الحكم من أيديهم ، وعليه لا يمكن لمعاوية ان يفارق ذهنه هذا التفكير ،وربما كان في قوله عن يزيد يكشف لنا جزءاً مما ذهبنا إليه ، إذا أشار لولا حبي ليزيد لأبصرت رشدي.

لذلك فان حكاية المغيرة، أو ما قيل عن تأثره بالنظام الوراثي البيزنطي والساسان ،لا يمكن قبولها أساساً لتفسير ما أدخله معاوية من تغيرات في نظام الحكم ، وإنما يعود إلى تاريخ تسنم عثمان مقاليد الأمور ، إذا لم نقل أنها تعود إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب حينما استخدم آل أبي سفيان قواداً وولاة على بلاد الشام ، وإذا عدنا إلى إجراءات معاوية في سبيل اخذ البيعة لابنه يزيد نستنتج مما ذكره ابن قتيبة ان هناك عدة مراحل سلكها معاوية من اجل ذلك، فالخطوة الأولى بدأت في حياة الإمام الحسن (ع) عندما دعا وفود الأمصار إلى دمشق وهيأ معاوية نخبة من أتباعه على رأسهم الضحاك بن قيس ، طلب منهم ان يتكلموا بعد أن ينتهي خطابه بذكر يزيد والدعوة له حتى تتوجه أنظار الناس إلى يزيد وبالفعل فقد قام الضحاك ودعا إلى بيعة يزيد ونسب إليه أوصافاً نادرة من حسن المذهب والسيرة ومحبة المسلمين له ، ثم تلته المجموعة الأخرى التي لقنت بما تقول فجعلوا من يزيد أصلاً لكل فضيلة ، وكان الأحنف بن قيس الذي كان ضمن الوفد العراقي ، لم يشارك في الحديث ، إلا بعد أن حدثه معاوية بأنه يريد سماع رأيه

فقال إن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون ليزيد ولا يبايعونه مادام الحسن حياً ، وهذا يعني ان بدايات الدعوة لبيعة يزيد بدأت والإمام الحسن ما يزال على قيد الحياة.

وقد رد على الأحنف، الضحاك ونسب إلى أهل العراق النفاق وطلب من معاوية أن يدفع رأيهم الى نحورهم وان من يفارقوه لا يضره ذلك ، لكن الأحنف تكلم ثانية ووجه كلامه لمعاوية قائلاً أنت أعطيت الإمام الحسن (ع) وعوداً فالأجدر الوفاء بها وان تغدر تعلم ، ثم بين إن أهل العراق لا يحبونه منذ أبغضوه ، ولم يبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، فتدخل معاوية وقام خطيباً وقال : ان العيابين والمرتابين من شأنهم الحنق والإسراف ، وهم لا ينتهون حتى تحل بهم قوارع أمر جليل .

وقد أدرك الأحنف بن قيس إن العراقيين هم المقصودون بذلك التهديد ، فنهض مرة أخرى ، وقال لمعاوية انك أعلم بليل يزيد وبنهاره ، وسره وعلنه ، فان كنت تعلم إنه خير لك فولِّه واستخلفه ، وان كنت تعلم إنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ،فانك ليس لك من الآخرة إلا ما طاب.

ومما يلاحظ إن قول الأحنف هذا فيها الشيء الكثير من الإيماءات الخفية التي لا تعجب معاوية ولا أهل الشام ، وقد صرح به بالرغم من إن أحد أعوان معاوية (يزيد بن المقنع) هدد بالقتل كل من يعارض توليه يزيد عندما خاطب معاوية : أنت أمير المؤمنين فان مت ، فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى هذا ، فهذا وأخذ بقائم سيفه ، فقال له معاوية : إقعد فأنت من أخطب الناس ، وعلى اثر ذلك أعرض معاوية عن ذكر البيعة مؤقتاً لعدم توفر الظرف المناسب.

أما المرحلة الثانية فهي ما حدثت في سنة خمسين هجرية حيث قدم المدينة ودعا عبدالله بن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، ولكنه لم يدع الإمام الحسن (ع) ولا أخاه الحسين (ع)، وهذا يعني ان الحسن مازال حياً في هذه السنة ، وذكر للعبادلة انه يريد استخلاف يزيد ، فأما عبد الله بن عباس فلم يكن رده واضحاً إلا ان عبد الله بن جعفر دعا بالخلافة إلى أولي رسول الله ، إما عبد الله بن الزبير فذكر له بصورة غير مباشرة إلى هؤلاء الأربعة الذين دعاهم وعدم إهمال الحسن والحسين ، وجاءت كلمة عبد الله بن عمر في إن الخلافة ليست هرقلية ولا قيصرية وإنما هي لمن هو أهل من قريش ، لكن معاوية ختم الاجتماع بقوله بان الخلافة لبني عبد مناف إلى يوم القيامة وقد عنى بهذا إخراج عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر من ألخلاقة ، ثم سكت عن البيعة ولم يشر إليها .

ثم تأتي مرحلة ثالثة حدثت في ٥١هـ بعد وفاة الإمام الحسن ، إذ لما أتاه الخبر اظهر البيعة له بالشام ، ثم كتب الكتب إلى تلك الشخصيات التي ذكرناها يطلب منها البيعة ليزيد لكن لم يظفر منهم بشيء .

إن تلك الدعوات والمخاطبات التي قام بها معاوية كانت ضرورية للدعاية لمشروعه في توريث يزيد الخلافة ، وقد بذل معاوية هذا الجهد الكبير لأن الوراثة نظام مستحدث تتعارض مع المبدأ الإسلامي التي يؤكد على إختيار أصلح المسلمين لمنصب الخلافة ، وفي نفس الوقت يتعارض حتى مع الأعراف القبلية التي لا تعترف بالوراثة المباشرة ، لهذا وجد معاوية في إجراءاته تلك وسيلة تخفف من شدة المعارضة بصورة تدريجية، وكجزء من حملة الدعاية دفع يزيد للحج بالناس ، في سبيل ان يبرز شخصيته بين الناس ، وقد استغل يزيد وجوده في مكة ففرق أموالاً كثيرة يشتري بها قلوب الناس وقد رفض عقيبة شاعر أهل البصرة بيعة يزيد في أبيات جاء فيها :

فهبها أمة هلكت ضياعاً يزيدُ يسوسها وأبو يزيد
دعوا حق الأمارة واستقيموا وتأميل الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لاتزركم جنود مردفات بالجنود

ولما بلغ شعره معاوية ، أرسل إليه عشرة آلاف درهم ، فكف لسانه عن ذلك وغيَّر رأيه ، وأصبح عنده يزيد هو الخليق الذي يملأ فراغ المنبر الغربي إذا توفي معاوية.

وبعد أن هيأ معاوية الوسائل الكفيلة لنشر فكرة الوراثة في الشام والعراق ، أراد التوجه نحو المدينة، عاصمة رسول الله ومقر أبناء الصحابة ، وهؤلاء هم الذين يشكلون عنده الهاجس الأكبر ، فكتب إلى مروان والي المدينة بعد مراسلات معه في هذا الموضوع ان يخبر أهل المدينة ، أن أمير المؤمنين ! قد اختار لكم فلم يأل ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده ، وعندما كشف مروان إن يزيد هو مرشح معاوية للخلافة إنتفض عبد الرحمن بن ابي بكر على مروان وقال له : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ، ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ، وطالب ان تكون الخلافة شورى بين المسلمين ،ولما سمع مروان قول عبد الرحمن رد عليه كذباً في سبيل تحقيره بين الناس ، وأشار على عبد الرحمن قائلاً هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا / الاحقاف ١٧) ، ولما سمعت السيد عائشة هذه الفرية ، نادت عليه من وراء الحجاب فأنصت الناس ، فقالت كذبت والله ما هو به ولكنك فضض من لعنة نبي الله ، وقد أيد موقف عبد الرحمن الإمام الحسين (ع) وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

إن معارضة هذه الشخصيات التي تقود الرأي العام في المدينة ، يعني تعثر مشروع معاوية في الوراثة ، فاعتقد معاوية إن المصلحة تقتضي أن يذهب شخصياً الى الحجاز لاستخدام وسائله الخاصة في حملهم على البيعة ليزيد .

معاوية يجتمع بالمعارضين :

نجد ان الروايات التي تتناول زيارة معاوية للمدينة مقر المعارضة ، تختلف بشكل كبير، فبعضها يصف معاوية انه قابل الشخصيات المعارضة بجفاء وقابلهم بكلام تطغي عليه الخشونة ، لدرجة انه رد على سلامهم قائلاً : لا مرحباً ولا أهلاً، وقيل انه هددهم بالقتل إذ استمروا بمعارضتهم تولية يزيد ، إلا ان السيدة عائشة تدخلت في هذا الموضوع وأقنعته بالرفق بهم ، لذلك اضطر الإمام الحسين (ع) والنفر الذين معه بالذهاب الى مكة ، وهناك أيضاً اجتمع بهم معاوية ثانية .

ومع ان قناعتنا ان جعبة معاوية تحمل الكثير من هذه الأساليب، إلا إنه لا يمكن تقبل هذه الرواية ، فمعاوية الذي يحمل عناء سفر طويل من دمشق إلى المدينة في سبيل إقناع هذه المجموعة على البيعة لأبنه ، لا يمكن ان يلجأ إلى هذا الأسلوب العكر في البداية، لأن فيه تعقيد للأمور، كما انه يدفعهم إلى الإصرار على موقفهم، لاسيما وإن مرشحه يزيد ، لم تكن سمعته جيدة لما عرف عنه من الانشغال بالصيد والملذات المحرمة ، لذلك فان الموقف يستدعي ان يكون الموقف ودياً لا عدائياً .

لذلك يمكن قبول الروايات الأخرى التي تذهب إلى عكس ذلك وترى انه استقبلهم بترحال وود ظاهر، واستناداً إلى هذه الرواية ، فان معاوية لجأ إلى الحيلة في التعامل معهم، وقابلهم بصورة انفرادية كل على حدة، وابتدأ بمقابلة الإمام الحسين (ع) ، ثم بقية الشخصيات الأخرى ، واتهم كل شخص إنه قائد المجموعة في المعارضة ، وطلب من كل واحد ان لا يخبر الآخر بما جرى من محادثات معه ، وتقول هذه الرواية التي استقيناها من الطبري ، انه هدد فقط عبد الرحمن بن أبي بكر بالقتل، وهذه الرواية تبقى ناقصة وغير مقبولة ، لأن الشخصيات الأخرى أخطر منه في نظر معاوية ، فالأجدر ان ينالها تهديداً أكثر .

إلا إن عبد الرحمن قد توفي فنقصت عصبة المعارضين واحداً وقد اختلف في سنة وفاته ما بين سنة ٥٣هـ الى ٥٥هـ وقيل انه توفي في السنة التي قدم فيها معاوية للمدينة لأخذ البيعة ليزيد ، والسؤال في هذا الموضع : هل كان موت عبد الرحمن الذي تزامن مع مجيء معاوية طبيعياً أم لمعاوية له يد فيه ؟ لاسيما وان الروايات وصفت عبد الرحمن بأنه عاند معاوية بصلابة ، حتى انه رفض مبلغ مائة ألف أرسلها له معاوية فردها عليه ، وقال لا أبيع ديني بدنياي ، فخرج إلى مكة، فمات قبل أن تتم البيعة ليزيد وكان موته فجأة.

ومع إن معاوية تخلص من أحد المعارضين ، لكنه كان مصراً على بيعة الآخرين، لان إمتناعهم يترتب عليه امتناع الناس، لذلك جاء بكوكبه من الفرسان معه تقدر بألف شخص ، وكان الهدف المعلن من هذه الزيارة هو حج بيت الله، لكن الواقع إن السبب الرئيس لها هو انتزاع البيعة من مجموعة القمة المعارضة، وقد ذكر أبن الاعثم ان معاوية أغدق بالهدايا على بطون مكة واستثنى منهم بني هاشم، ولما استفسر منه ابن عباس عن سب ذلك ، أجابه إن صاحبكم

الحسين بن علي (ع) أبى عليّ أن يبايع يزيد، إلا إن ابن عباس هدده ، فاستجاب معاوية له ، وأعطى بني هاشم ، لكن الإمام الحسين (ع) لم يقبل من ذلك شيئاً.

ويعلل الباحث الدكتور بيضون سبب المعارضة قائلاً إنَّ زعماء الحجاز كانوا يجدون في أنفسهم كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة ، فضلاً عن إن غياب معاوية بالنسبة إليهم يكون مقروناً بارتفاع الكابوس المخيم على حياتهم السياسية ، وانتعاش الآمال المكبوتة ، وعودة الاعتبار إلى مقر دولتي الرسول والخلافة وحرية التحرك لأبناء الصحابة الذين عاشوا طوال عهد معاوية ، فيما يشبه الإقامة الجبرية.

ومع أهمية هذه العوامل التي ساقها الدكتور بيضون ، إلا إن هناك عامل مهم يتمثل بما عرف عن يزيد من هوايات شاذة ، فإن هذا النفر شعروا إذا أصبح يزيد أميرهم، فإن ذلك يكون خزياً عليهم وعاراً على المسلمين، لذلك أصروا على الرفض لبيعة يزيد برغم كل ما فعل معاوية من إنفاق وبذل وحسن استقبال وعودة ، ومع عدم وضوح الروايات بالشكل المطلوب، إلا إنه يبدو إن معاوية في قرارة نفسه كان يهتم بالدرجة الأولى بموقف الإمام الحسين (ع) وابن عباس لقرابتهم من رسول الله ومكانتهم بين المسلمين ، فعبد الله بن عمر كان رجلاً منعزلاً متعبداً، وعبد الله بن الزبير على الرغم من ان والده الزبير حواري رسول الله، إلا ان الناس ومعهم معاوية لا يعدلونه بالإمام الحسين (ع)، وحتى ان عبد الله بن الزبير نفسه يشعر بذلك الشعور أيضاً، وهذا يتضح عندما جاء الحسين إلى مكة بعد وصول عبد الله إليها ، لم يجرأ عبد الله بعد وفاة معاوية بالدعوة إلى نفسه بوجود الإمام الحسين (ع) إلى جانبه، بل كان الحسين أثقل الناس عليه ، وكان أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين (ع) بالبلد.

ونتيجة لذلك حرص معاوية على الاجتماع بالإمام الحسين (ع) وعبد الله بن عباس لهذا الغرض، وابتدأ معاوية حديثه مع الإمام الحسين (ع) حول بني أخيه الحسن وأعمارهم كمقدمة للدخول في الموضوع الرئيس وهو بيعة يزيد ، فقال بعد حمد الله ورسوله وما بذله النبي من تضحيات في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى إنتقل إلى ربه زاهداً في الدنيا راغباً عنها ، ثم تناول إبنه يزيد ، وقال انه يحاول ان يسد الخلل به ورأب الصدع بولايته، ثم وجه كلامه إليهما وقال فيكما فضل القرابة وخطوة العمل وكمال المروءة ثم قارنهما مع يزيد وفضَّله عليهما بملكته على المناظرة والمقابلة مع علمه بالقرآن والسنة ، والحلم الذي عرف به ، ثم ضرب مثلاً بغزوة السلاسل وكيف ان رسول الله ولى على المسلمين من كان دونهم وفيهم أوائل الصحابة من المهاجرين ، وفي رسول الله إسوة حسنة ، وطلب منهما الإنصاف لأن القائل لا يقول إلا بفضل قولكما .

أراد ابن عباس الكلام ، إلا إن الإمام الحسين (ع) قال له : على رسلك فأنا المقصود ، فأمسك ابن عباس ، فقام الإمام الحسين (ع) وحمد الله وصلى على نبيه، وخاطب معاوية بعد

ان ذكر له بأن الناس مهما أطنبوا في ذكر فضائل رسول الله فإنهم لم يؤدوا عنه ، ثم فند أقوال معاوية ، وقال هيهات يا معاوية فضح الصبح فحمة الدجى وبهرت الشمس أنوار السرج ، ثم حلل حديث معاوية وقال له فصلت حتى أفرطت واستأثرت حتى أجحفت ، واستمر الإمام في حديثه وإتهم معاوية إنه يريد أن يوهم الناس في يزيد وشبهه كمن يريد أن يصف محجوباً او ينعت غائباً ، وتخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، ثم سرد الحسين (ع) قائمة بصفات يزيد وقال انه باصر باستقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش ، والحمام السبق لا ترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي، ثم نصح الإمام الحسين (ع) معاوية بترك ذلك وان لا يلقى الله بوزر هذا الخلق ، وقال له إنك تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فالأجدر أن تقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ، ثم أوضح الإمام ما تعرضت له الخلافة بعد وفاة رسول الله ، من حجج واحتجاج حتى سارت في غير طريقها، كما فند المثل الذي ضربه معاوية عن سرية ذات السلاسل وقال ان القوم أنفوا من إمرته (عمرو بن العاص) وعدّوا عليه أفعاله (أي عمرو بن العاص)، لذلك قال لهم رسول الله : لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري، لذلك لا يصح الاحتجاج بالمنسوخ.

طار صواب معاوية لهذا الرد الذي تميز بالبلاغة والإحاطة بالتاريخ والقدرة على الجدل المبنى على المنطق ، لذلك التفت لابن عباس فقال له : ما هذا؟ فأجابه ابن عباس، إنها لذرية الرسول واحد أصحاب الكساء.

رأى معاوية ان مناوراته سواء تلك التي أجراها مع المعارضة في المدينة او في مكة، لم تحقق الهدف المطلوب الذي جاء لأجله، لذلك أراد أن يستطلع رأيهم للمرة الأخيرة ، فان تحصل المطلوب فهذا ما أراد، وان أصروا على الرفض فهناك الوسائل البديلة للوصول إلى الهدف ، فاحضر معاوية الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، تحدث معهم بلسان معسول، ولفت نظرهم إلى صلاته وجوائزه التي أغدقها عليهم ، وبيّن لهم إن يزيد أخوهم وابن عمهم وإنه يريد ان يقدموه إلى الخلافة، وهم الذين يأمرون وينهون، وقد فوض المعارضون عبد الله بن الزبير ليكون الناطق باسمهم، فطلب من معاوية بان يترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين، ولما سأل البقية عن رأيهم أجابوه بنفس القول، وفي ضوء ذلك اتخذ قراره الأخير، وقال لهم إنه سيلقي خطبة على الناس، وهددهم بالقتل إن هم عارضوه وأشار انه لا يرد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، حتى يسبقها السيف إلى رأسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال له: أقم على رأس كل واحد من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل يرد عليّ بكلمة صدق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما.

بعدها صعد معاوية المنبر وخطب بالناس ، وقال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، ولا يبتز أمر دونهم ولا يقضى أمر عن غير مشورتهم ، وقد بايعوا يزيداً فبايعوه باسم الله، وفي

هذا الصدد قال احد الباحثين ان سياسة معاوية التي نشأ عليها واحدة فكسب بها ولم يشأ ان يتخلى عنها، لايضيره ان تضره في دينه مادامت تفيده في دنياه وهكذا حمل معاوية القوم ما لم يقولوه وما ليس لهم برأي

وبهذه الطريقة مهد معاوية الطريق لبيعة يزيد ، ولم يتمكن زعماء المعارضة ان يقولوا شيئاً، بسبب التهديد بالقتل ، ولم يعلم الناس بشيء عما دبره معاوية، ولما عاتبهم الناس على موقفهم ، قالوا لهم خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم.

وعلق حسن إبراهيم حسن على ما حدث بقوله : هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر، فقسا عليهم وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية.

وأيد الخربوطلي هذا الرأي وقال : ان الخلافة في عهد بني أمية أصبحت ملكاً وراثياً استبدادياً لا شأن للرعية فيه ولا رأي لها في إقراره.

إن هذا الأسلوب الذي إتبعه معاوية في سبيل حمل الناس على بيعة إبنه صَوَّره الشاعر عبد الرحمن السلولي وانتقد فيه الناس لأنهم فقدوا عزتهم وكرامتهم وذلوا لدرجة إنهم لا يمتنعون حتى عن بيعة النساء عليهم ، وهم لو كانوا شم الأنوف لردوا آل أمية إلى ديارهم في مكة يأكلون السخينة (طعام من دقيق وسمن أو دقيق وتمر، وكانت قريش تعيّر به لأنهم يكثرون من أكله) فقال :

وإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفاً لو إن لنا أنوفاً ولكن لانعود لما عنينا
إذاً لضربتمُ حتى تعودوا بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ماروينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

ولما وصل هذا الشعر إلى معاوية ، قال ما ترك ابن همام شيئاً عَيّرنا بالسخينة وذكر أمهاتنا ، ولو شرب دماءنا ما اشتفى ، اللهم أكفناه.

نجحت خطة معاوية في البيعة ليزيد ، لكن مع ذلك فهناك من عارض في بلاد الشام ، إذ لما تمت البيعة ، قال رجل وقد دعي إلى البيعة : اللهم أعوذ بك من شر معاوية ، فقال له معاوية تعوذ من شر نفسك ، فانه اشد عليك وبايع ، قال إني أبايع وأنا كاره البيعة ، قال معاوية بايع أيها الرجل فان الله يقول (فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله منه خيراً كثيراً).

ان معاوية استطاع بهذه الخدعة ان يحمل عامة الناس على البيعة لكنه أخفق في الحصول على مبايعة زعماء المعارضة ، وإذا نظرنا إلى الواقع نرى ان المعارضة الجدية انحصرت في شخصين هما : الحسين بن علي (ع) وعبد الله بن الزبير ،لأن عبد الرحمن ابن ابي بكر قد

توفي ، فزال تأثيره ، أما عبد الله بن عمر فلا يمكن إعتباره معارضاً بقدر ما كان واعظاً، إذ يمتاز بالتردد والمواقف الهشة ويفتقر إلى ألجرأة ، فهو قد وعد معاوية بالبيعة ، وقال له لو اجتمعت الأمة على حبشي لدخلت معها، كما انه لا يتدخل في الأحداث الساخنة إلا بعد أن تبرد وتنتهي إخطارها ، فيعلق عليها ، كما حدث عندما ندم على عدم مشاركة الإمام علي (ع) في قتال الفئة الباغية ، كما ذكرناه سابقاً، فضلاً عن انه لم يبايع الإمام علياً(ع) ، في حين انه بايع معاوية بن أبي سفيان، وحينما سؤل أحدهم عن هذه المفارقة قال : كان ابن عمر يعطي يداً في فرقة ولا يمنعها عن جماعة ، او حينما قتل حجر ، أو لما مات زياد بن أبيه، فإن ابن عمر قال بعد وفاته: لا في الدنيا بقيت، ولا الآخرة أدركت، في حين انه لم يحرك ساكناً بوجه زياد ولم ينتقد جرائمه في حياته أو نصحه على الأقل، ويمكن ان نستنتج شعاره في الحياة من كلامه الذي قاله : لا أقاتل في فتنة ، وأصلي وراء من غلب.

لذلك فان شخصية مثل ابن عمر لا يعبأ بها معاوية ، او ينظر إليها كشخصية معارضة قوية ، بقدر ما ينظر إليه مثل بقية الناس إنه ابن الخليفة عمر بن الخطاب ، لذلك إن بيعته ليزيد تضفي غطاءاً معنوياً عليه لا أكثر ، أو ربما تدفع المترددين لبيعة يزيد ، لذلك فلا خشية منه عند معاوية وافق أم لم يوافق.

وصية معاوية المزعومة ليزيد

في سنة ٦٠هـ أحس معاوية بدنو أجله، فأرسل على إبنه يزيد الذي كان غائباً عن دمشق ، فلما أبطأ عليه ، قيل إن معاوية دعا الضحاك بن قيس رئيس الشرطة، ومسلم عقَبة أمر الحرس، ولما حضرا بلغهما وصيته لنقلها لأبنه يزيد ليسير في ضوئها عند حكمه .

وإذا أمعنا النظر فيما أوردت المصادر التاريخية عن وصية معاوية ، نجد إن نصها مختلف في التفاصيل ، لكنه يتشابه في الإطار العام ، وإذا نظرنا إلى النص الذي ورد عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) والبلاذري (ت٢٧٩هـ) والطبري (ت٣١٠هـ) وابن عبد ربه (٣٢٨هـ) ، نجد عند الجاحظ وهو أقدمهم وابن عبد ربه، نصاً واحداً فقط ، ونجد له ما يشابهه عند البلاذري والطبري اللذان ذكرا نصاً آخر إلى جانبه، ونشاهد ان ذلك النص يختلف فيما يتعلق بالموقف من الإمام الحسين، فهذا النص يمكن ان نقول انه يتألف من مقدمة تحتوي على توجيهات عامة تتناول الأسلوب الذي يجب عليه إتباعه في معاملة أهل العراق والشام والحجاز، فجاءت وصية معاوية له بأهل العراق أن يستجيب لهم حتى ولو طلبوا منه ان يعزل كل يوم عاملاً فعليه ان يفعل ، فانه أفضل من ان يشهرُ عليه مائة ألف سيف ، وإما أهل الحجاز فاعتبرهم أصله فعليه ان يكرم من قدم عليه ويتعاهد من غاب منهم ، في حين جعل لأهل الشام رعاية خاصة ، فعليه ان يجعلهم بطانته ويعتمد عليهم في الملمات وينتصر بهم وأكد عليه معاوية ، ان يردهم إلى بلادهم خوفاً من ان تغيرّ إقامتهم بغير بلادهم ، أخلاقهم ، ويفهم من هذا أن معاوية يريد أن يبقي أهل

الشام على ما رباهم عليه من خلق خاص خشيّ عليه من الشك به إذا اطلعوا على حقائق حجبها عنهم بصورة قصدية فتتغير أهواؤهم ويحصل رد فعل خاص فيتأدبوا بغير أدبهم .

وقد حذره بموجب هذا النص من ثلاثة أشخاص وهم عبد الله بن عمر، لكنه رجل وقذته العبادة وأما الحسين (ع) فقال عنه إنه يرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، واما ابن الزبير فانه خب ضب (مخادع وحاقد) فان ظفرت به فقطعه إرباً إرباً.

وفي هذه الوصية التي تتعلق بالحسين يفهم منها إن هناك مشروعاً سرياً يتأهب لاغتيال الإمام الحسين (ع) كما اغتيل الإمام علي (ع) ثم من خذل الإمام الحسن (ع) ، فيا ترى هل وضع معاوية له خطوطاً عامة للقيام بذلك، أم كانت هناك وصية سابقة بهذا الشأن ، يجب ان ينفذها يزيد عندما يعتلي كرسي السلطة ؟إذ ما ذا تعني عبارة : إنه يرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ؟

إما النص الأخر للوصية الذي ورد عند البلاذري والطبري ايضاً وابن الأثير ويضاف إليهم ابن الاعثم فجاء فيه ان النصيحة أدلاها معاوية لابنه يزيد مباشرة، وهذا يعني إنها وضعت قبل وفاته وجاء في هذه النصيحة ان معاوية حذره من أربعة أشخاص وهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير)، ثم ذكر له ما يجب ان يكون موقفه اتجاه كل واحد ، فبيّن له ان عبد الله عمر رجل أشغلته العبادة وانه سيبايعه، وأما عبد الرحمن بن أبي بكر، فرجل ان رأى أصحابه صفوا شيئاً صنع مثله، ليس له هم إلا في النساء، وأما الحسين بن علي ، فان أهل العراق سيدعونه ويخرجونه فان خرج عليك وظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، إلا ان معاوية أمر يزيد ان لا يتهاون في شأن عبد الله بن الزبير ، فانه يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إربً إرباً.

وقد اعتقد الباحث باقر القرشي إن هذه الوصية بعيدة عن الصحة ولا يمكن قبولها واعتبرها من الموضوعات التي افتعلت لإثبات حلم معاوية ، بأنه عهد إلى ولده بالإحسان الشامل إلى المسلمين ، وهو غير مسؤول عن تصرفات إبنه ، وقد عزز الباحث اعتقاده بتحليلات رصينة للنص نذكرها فيما يأتي:

١–تناول القرشي قول معاوية ليزيد عن أهل الحجاز، وكيف وصفهم له إنهم أصله، وقال إن معاوية أوصى يزيد بغير ذلك ، واستشهد بما جاء في تاريخ ابن خليفة إذ حذره وقال له ، إن لك يوماً من أهل المدينة ، فان فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة ، فانه رجل قد عرفنا نصيحته ، وكان مسلم جزاراً جلاداً لا يعرف الرحمة والرأفة ، وقد استعمله يزيد في إخماد ثورة الحرة، فاقترف كل موبقة واثم ، فكيف نلتقي هذه الوصية بتلك التي عهد فيها بالإحسان إلى أهل الحجاز ؟

٢-إن معاوية أوصاه برعاية العراقيين ، والاستجابة لهم في عزل الولاة حتى اذا كان ذلك كل يوم ، في حين ولى عليهم عبيد الله بن زياد وهو يعلم شدته وصرامته واغرق العراق بدماء الأبرياء ، فهل ذلك من الإحسان إلى العراقيين؟

٣-جاء في الوصية إنه يتخوف عليه من عبد الله بن عمر وقد وصفه إنه شغلته العبادة ، فإذا كان كذلك فلماذا التخوف منه ؟

٤-كما انه ذكر في الوصية انه يتخوف عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نص المؤرخون على انه توفي في حياة معاوية ، فما معنى التخوف من رجل ميت ؟

٥-ولعل النقطة المهمة التي ذكرها الباحث باقر القرشي، هي وصيته التي تتعلق بالإمام الحسين، حيث أوصاه بأن للحسين رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقرابة من رسول الله، لكن معاوية بالذات لم يراع أي جانب من جوانب القرابة من رسول الله، فقد قطع جميع أواصرها، من سب الإمام علي على المنابر، وتربية الناشئة على بغض أهل البيت ، ثم استشهد القرشي برأي احد الكتاب وقال إن معاوية لم يتردد في إغتيال الإمام الحسن ، فكيف يوصي إبنه برعاية الحسين ؟ فقد حارب الرسول في الجاهلية حتى اسلم كرهاً يوم فتح مكة ، وحارب ابن عم الرسول علياً ، ونزا على خلافة المسلمين، لذلك لا يمكن تصديق وصيته، ثم يعقب على ذلك بالقول، ربما يكون معاوية أوصى يزيد أن يغتال الحسين سراً ويدس السم، أو يبعث له من يطعنه بليل ، وقد رأينا صدى لهذا العمل في النص الأول للوصية .

ومما يؤيد ذلك ما ورد في رسالة عبد الله بن عباس، في معرض رده على رسالة يزيد بن معاوية التي وجهها إليه، عندما علم أن ابن عباس لم يبايع عبد الله بن الزبير، فاعتقد أن ذلك من قبيل تأكيد بيعته، لذلك أثنى يزيد على موقف عبد الله ووعده بالصلة وطلب إليه تحشيد الناس ضد ابن الزبير .

وقد أجابه ابن عباس برسالة هاجم فيها بشدة يزيد وأباه وقدم له كشفاً بمفردات ما اقترفاه من فضائع، ولعل ما يهمنا من الرسالة في هذا الموضع هي الفقرة التي أشارت الى محاولة اغتيال الحسين، إذ جاء فيها : فلست بناسٍ إطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم رسول الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقب.

فهذه الرواية تشير إلى أن هناك مخطط أُعد مسبقاً لاغتيال الحسين، إلا أن ذلك المخطط لم يكتب له النجاح، لذلك خرج الحسين من مكة إلى المدينة .

كما أن القندوزي الذي أورد مقتل أبي مخنف في كتابه (ينابيع المودة) جاء فيه : أن يزيد أرسل مع الحجاج ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية وأمرهم بقتل الحسين، لذلك لم يتم الحسين حجته، مخافة أن يبطش به ويقع الفساد في الموسم، فجعل حجه عمرة منفردة، وعجلت بالإمام الحسين بالاستجابة الى كتب أهل العراق للمجيء إلى الكوفة .

ومن ناحية أخرى إن يزيد بعد وفاة أبيه لا همَّ له إلا ان يحصل على بيعة الحسين والتشديد على عاملة في المدينة بوجوب إجبار الحسين عليها ، بالإضافة إلى هذه الملاحظات الوجيهة التي أبداها القرشي على الوصية ، يمكن بان نضيف الى ان التناقض الموجود في الوصية حول عبد الرحمن بن ابي بكر ، إذ صورته بأنه رجل إمعة لا رأي له ، وان همه الرئيس النساء ، في حين ان عبد الرحمن شيخاً كبيراً زاد عمره على السبعين ، فكيف يمكن اتهام الشيخ باللهو مع النساء وهو في عمر لا يسمح له بذلك ويمكن تأكيد عمره بما ذكرناه عندما نعلم إن عبد الرحمن بن أبي بكر شارك في موقعتي بدر ٢هـ وأُحد ٣هـ في صفوف المشركين ، كما أنه أسن أولاد أبي بكر ، ومن ناحية أخرى صورته الروايات التاريخية بأنه كان معارضاً شديداً لتولية يزيد ورد على مروان بالكذب وظل على هذا الموقف حتى وفاته ، فكيف صار في الوصية يصنع إذا صنع الآخرون؟ مع انه توفي في حياة معاوية لذلك تنتفي الوصية بالوصية أو الحذر منه.

ومن جانب آخر لا نجد لوصية معاوية أثراً على يزيد الذي كتب إلى واليه في المدينة الوليد بن عقبة ان يأخذ الحسين بالشدة ومن معه، فلو كانت هناك توصية بصلة الرحم لكتب يزيد بذلك لواليه ان يأخذ بيعة الحسين بالتي هي أحسن ، ولكن لم يحصل هذا فهل هذا يشير الى إن يزيد كان ولداً عاقاً لأبيه لأنه لم ينفذ وصيته التي أمره بها ، أم إن الأصح انه لا وجود لهذه الوصية إطلاقاً؟ بدليل إن كل أعماله ألتي قام بها في خلافته لا تتسق مع ما جاء فيها.

وقد ذكر ابن الاعثم أمراً صادراً من معاوية ليزيد جاء فيه : ان يبعد قاتلي الأحبة ، وان يقدم بني أمية وال عبد شمس على بني هاشم ، وان يقدم آل عثمان بن عفان على آل أبي تراب وذريته ، فمن قرئ عليه هذا الكتاب وقبله حق قبوله وبادر إلى طاعة أميره يزيد بن معاوية فمرحباً وأهلاً، ومن تأبى عليه وامتنع فضرب الرقاب حتى يرجع الحق إلى أهله .

ومن هنا يمكن القول ان الأحداث توحي بعدم وجود وصية بتلك الصيغة ليسير عليها يزيد كخطة عمل قي سياسته فهي وليدة خيال محدث أو راوٍ أو مؤرخ جاء بها ليصنع فضيلة جديدة لمعاوية تتمثل بأنه يمتلك فراسة نادرة في قراءة المستقبل واستشراف أحداثه لاسيما فينا يتعلق بأن ألحسين لابد أن يظهر عليه، وهكذا نجد إن معاوية ختم حياته بوضع أساس تدمير الروح الإسلامية، بنظام الوراثة ، الذي مهد لتأمير من يفتقر إلى الصلاح في تولي شؤون الأمة، فتعطل المعروف وشاع المنكر، لذلك لابد من نهضة توقف هذا التيار قبل أن يؤدي بالأمة إلى الانهيار ، فأخذ الإمام الحسين (ع) على عاتقة الثورة بوجه هذا الطغيان، إلا إن النتائج القريبة حققت أحلام الأمويين، في أخذ ألثأر لأجداده صرعى بدر، بقتل الحسين أعز آل البيت عند رسول الله ألأعظم .

أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي ٢٦) هـ - ٨٦ هـ / ٦٤٦ - ٧٠٥م)

الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية والمؤسس الثاني للدولة الأموية. ولد في المدينة وتفقه فيها علوم الدين، وكان قبل توليه الخلافة ممن اشتهر بالعلم والفقه والعبادة، وكان أحد فقهاء المدينة الأربعة، قال الأعمش عن أبي الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان». استلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ الموافق ٦٨٤م، وحكم دولة الخلافة الإسلامية واحدًا وعشرين عامًا. تسلم عبد الملك بن مروان حكم الدولة الأموية في وقت كانت الفتن والاضطرابات والانقسامات تعصف بها. في الكوفة كان أنصار الحسين يشعرون بالتقصير والذنب بعد معركة كربلاء، وعندما عم الاضطراب أنحاء بلاد العالم الإسلامي بعد موت يزيد بن معاوية، خرجت من الكوفة ثورة التوابين في ٥ ربيع الثاني ٦٥ هـ وفي منطقة عين الوردة استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على ثورتهم. ما إن أُخمدت ثورة التوابين حتى خرج المختار الثقفي بشعار يا لثارات الحسين، واصطدم مع الأمويين في أكثر من وقعة انتصر فيها، لكن مصعب بن الزبير كفى عبد الملك مواصلة قتاله واستطاع قتله وإخضاع الكوفة تحت سلطة ابن الزبير. كان الحجاز وبقية بلاد المسلمين إلا دمشق وجزء من الأردن تدين لعبد الله بن الزبير، وأدى زوال خطر المختار الثقفي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، فخرج عبد الملك إلى العراق، وانتصر على مصعب في معركة دير الجاثليق عام ٧٢ هـ، ثم سارع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمواجهة عبد الله بن الزبير، فحاصر الحجاج مكة، وانتهى الحصار بمقتل عبد الله بن الزبير ودخول مكة تحت سيادة بني أمية على الحجاز عام ٧٣ هـ، وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير وتوحد العالم الإسلامي تحت ولاية عبد الملك بن مروان وأصبح الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

بعد أن استشرى خطر الخوارج عيَّن عبد الملك المهلب بن أبي صفرة قائدًا لمحاربتهم، وبعد سلسلة طويلة من المعارك دامت ثلاث سنوات تمكن من التغلب على الخوارج الأزارقة عام ٧٨ هـ. ثم أمر عبد الملك الحجاج بن يوسف ببدأ عمليات التصدي للخوارج الصفرية، وتمكن بعد عدة معارك من التغلب عليهم. ما إن استتب الأمر لابن مروان حتى قامت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ واستمرت حتى عام ٨٣ هـ، وانتهت بوقعة دير الجماجم التي تصدى لها

الحجاج وانتهت الثورة بانتحار ابن الأشعث بعد هروبه من المعركة في سيجستان. لم يكن لعبد الملك نشاط كبير في الفتوحات الإسلامية: ففي جبهة المشرق الإسلامي ظلت فتوحات المسلمين على ما كانت قبل توليه الخلافة، أما على الجبهة البيزنطية، فقد عانى المسلمون من هجمات النصارى المردة، وبسببهم عقد عبد الملك مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة عام ٧٩ هـ الموافق ٦٨٩م لمدة عشر أعوام. في حين كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدِّي لفتوحات عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي لإفريقية، وإخضاع البربر لسلطة الدولة، واستطاع القائد حسان بن النعمان الغساني الاستيلاء على قرطاجنة البيزنطيين، والقضاء على جيش البربر بقيادة الكاهنة ديهيا.

كانت خلافة عبد الملك بن مروان مليئة بالصراعات والثورات والحروب التي أخذت جُلَّ وقته وجهده، وعلى الرغم من ذلك تذكر كتب التاريخ عددًا من إنجازاته أهمها: سك أول دينار ذهبي إسلامي خالص عام ٧٧ هـ والاستغناء عن كافة الصور والرموز الملكية والمأثورات الدينية المسيحية التي يحتملها الدينار البيزنطي. وتعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية، إذ يُعد أول من بدأ تعريب الدواوين في التاريخ الإسلامي. بالإضافة لقيامه بجهود كبيرة في العمارة والبناء: فقام ببناء الكعبة على بناء قريش، وبناء مسجد قبة الصخرة، بالإضافة لبناء مدينتي واسط في العراق وتونس في الشمال الإفريقي.

نسبه ونشأته

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأموي القرشي. أبوه مروان بن الحكم رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق، ومؤسس الدولة الأموية الثانية، بويع بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، في وقت كان نفوذ الأمويين قد ضعف، وبايعت أغلب الأقاليم عبد الله بن الزبير خليفةً للمسلمين. استطاع مروان السيطرة على الشام، وخرج بجيشه إلى مصر التي كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير ودخلها وولى ابنه عبد العزيز عليها، لكنه فشل في السيطرة على الحجاز والعراق. توفي سنة ٨٦ هـ. أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية الأموية القرشية، أمها فاطمة بنت عامر الجمحي. قُتِل أبوها يوم أحد، وأدركت عائشة حياة النبي محمد نحو سبع سنين، ولم يبق بمكة في حجة الوداع أحد من قريش إلا أسلم وشهدها.

ولد عبد الملك في المدينة في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٦ هـ وهي ذات السنة التي ولد فيها ثاني خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية. أول من سمي باسم عبد الملك في الإسلام هو عبد الملك بن مروان، وقيل أول من سمي عبد الملك وعبد العزيز هما أبناء مروان بن الحكم. كان عبد الملك ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم،

وربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، ولذلك كان يقال له: أبو الذبَّان، وكان أبيض اللون ليس بالنحيف ولا البدين، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف، أبيض الرأس واللحية. كان عبد الملك قبل توليه الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، قال نافع: «لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشد تشميرًا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»، وقال الأعمش عن أبي الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك قبل أن يدخل الخلافة»، وقال الشعبي: «ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه، ولا شعرًا إلا زادني فيه». روى عبد الملك الحديث عن أبيه ومعاوية بن أبي سفيان وعن أم المؤمنين أم سلمة وعن بريرة مولاة عائشة بنت أبي بكر، وعن جماعة من التابعين. وممن روى عن عبد الملك البخاري في كتابه الأدب المفرد، والإمام الزهري وعروة بن الزبير وخالد بن معدان وهو من فقهاء التابعين وعبَّادِهم، ورجاء بن حيوة أحد الأعلام. قال ابن كثير: «وسمع من عثمان بن عفان، وهو ممن سار بالناس في بلاد الروم سنة اثنين وأربعين، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والصلحاء والعبَّاد، وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة منهم: خالد بم معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان». كان عبد الملك حبوبًا ومرغوبًا من عمومته ومن كبار بني أمية، وذُكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسًا يومًا ومعه عمرو بن العاص ومر بهما عبد الملك فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالًا ثلاثًا، أخذ بحسن الحديث إذا حدث، وحسن الاستماع إذا حدث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروته.

سيرته قبل الخلافة

كان أول حادث سياسي شهده عبد الملك هو حادث مقتل عثمان بن عفان، وكان عمره حينها عشر سنوات. وكان أول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد عينه عاملًا على هجر، ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت، وشارك في الجهاد على رأس حملة إلى أرض الروم سنة ٤٢ هـ، وكان ضمن الجيش الذي غزا أفريقيا مع معاوية بن حديج، وكلفه بفتح جلولا في الشمال الإفريقي. في عهد يزيد بن معاوية كانت علاقته بالزبيريين تسير بشكل جيد، فكان يقول عن ابن الزبير: ما على الأرض اليوم خيرًا منه، وكانت علاقته بمصعب بن الزبير حسنة. بعد وفاة يزيد استلم سدة الحكم ابنه معاوية بن يزيد، الذي لم تدم فترة حكمه قبل موته عدة أشهر على قول، وأربعين يومًا على قولٍ آخر، في هذه الفترة بدأت الحركات المناوئة للأمويين تظهر على السطح، وبدأ الانقسام في العالم الإسلامي يستشري؛ ففي

العراق ظهرت ثورة التوابين المطالبة بدم الحسين بن علي، وفي الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير استقلاله بالخلافة عن تبعية بني أمية. كانت هذه الأحداث وتسارعها محركًا لاجتماع بني أمية في دمشق، بعد أن أحسوا أنهم أسرى القوى القبلية المتنافسة والمتصارعة سياسيًا وعسكريًا، فالحزب اليمني بقبيلته كلب النافذة في البلاط الأموي بزعامة حسان بن مالك الكلبي كانت متشددة بالحفاظ على امتيازاتها في ظل الدولة الأموية، وخشيت من انتقال الخلافة إلى الحجازيين. أما الحزب القيسي فقد كان مستاءً من محاربة يزيد لأهل المدينة، وقد وصل زعيمها الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة منحته الأحداث السياسية بعد وفاة معاوية الثاني مركزًا متقدمًا من خلال منصبه كأمير بلاد الشام حيث أتيحت له الفرصة أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية، كما وجد القيسيون في دعوة ابن الزبير فرصة تمكنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع القوة من أيديهم، وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت آراؤهم بين ثلاثة مرشحين: فقد أيد حسان بن مالك خالد بن يزيد بن معاوية، ومال بعض القادة إلى مروان بن الحكم، وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد.

اتفق بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية، ترأسه حسان بن مالك، ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة، وكان مروان ابن الحكم الأوفر حظًا لشيخوخته وكبره وعظم تجربته. انتهى المؤتمر لمصلحة ابن الحكم حيث اختير بإجماع الحاضرين، وخرج الكلبيون ممن أيدوا خالد بن يزيد بترضية حيث اختير مرشحهم وليًا للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد. بذلك انتقل الملك والخلافة في البيت الأموي من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني. استاء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فغادر دمشق إلى مرج راهط، وعسكر هناك وانضم إليه النعمان بن بشير والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين. خرج مروان بن الحكم ومعه بني أميه وأنصاره لقتال القيسيين، وجرت بين الطرفين مفاوضات لتسوية الموقف، وعقد صلح بين الطرفين استمر عشرين يومًا، لكنه انهار لما وصلت أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان بن الحكم فيها. في شهر ذي القعدة عام ٦٤ هـ الموافق ٦٨٤م التقى الجمعان في مرج راهط، وانتهت المعركة بهزيمة القيسيين وقتل زعيمهم الضحاك، وهروب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيساء وتحصن بها، فلما جاءت خيول بني أمية فر منها إلى العراق، واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين.

أما عن دور عبد الملك السياسي في عهد والده مروان بن الحكم، فقد تولى إمارة فلسطين، ولكنه كان يبعث نائبًا عنه وهو روح بن زنباع وذلك حتى يبقى في دمشق قريبًا من إدارة الدولة ولمساعدة والده هناك، حيث كانت الدولة في الفترة التي تولى فيها والده الحكم محاطة بالأعداء والخصوم من الداخل والخارج، ثم تولى إمارة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر. في شهر رمضان من عام ٦٥ هـ توفي مروان بن الحكم ولم يحقق هدفه بإعادة الحجاز والعراق إلى الحكم

الأموي، وكان ابن الحكم قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقنع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في مؤتمر الجابية من العهد لخالد بن يزيد ومن بعد لعمرو بن سعيد ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن.

الخـــــــلافــة

بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده في دمشق عام ٦٥ هـ. بايع بنو أمية ابن مروان بالخلافة، لكن الوضع كان مختلفًا مع العلماء، فقد بايع بعض العلماء ابن مروان في الشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئًا وكان هناك العلماء الذين بايعوا عبد الله بن الزبير، أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة. اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا حول عبد الملك، فهناك من خرج عليه مثل عبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري، وهناك من كان قريبًا منه ناصحًا له كقبيصة بن ذؤيب. في بداية ولاية عبد الملك كان العالم الإسلامي منقسم بين أربع جماعات: فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر، وعبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز والعراق، والحركة العلوية في العراق بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وجماعة الخوارج. وأكبر ما يوضح هذا الانقسام في العالم الإسلامي أنه في موسم حج عام ٦٨ هـ ارتفعت أربعة ألوية: لواء عبد الملك بن مروان، ولواء محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، ولواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة، ولواء ابن الزبير.

خلافة الوليد بن عبد الملك:

وهو سادس خلفائهم، لما توفي عبد الملك، بويع الوليد بالخلافة، في منتصف شوال من هذه السنة، أعني سنة ست وثمانين، بعهد من أبيه إليه، وكان مغرماً بالبناء، واستوثقت له الأمور، وفتحت في أيامه الفتوحات الكثيرة، من ذلك جزيرة الأندلس، وما وراء النهر، وولى الحجاج خراسان مع العراقين، فتغلغل في بلاد الترك، وتغلغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الروم، ففتح وسبى، وفتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد الهند. وفي هذه السنة أعني سنة ست وثمانين، ولى الوليد ابن عمه، عمر بن عبد العزيز المدينة، فقدم إليها ونزل في دار جده مروان، ودعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم عروة بن الزبير بن العوام، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأبو بكر ابن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد.فقال لهم عمر بن عبد العزيز: أريد أن لا أقطع أمراً إلا برأيكم، فما علمتموه من تعدي عامل، أو من ظلامة، فعرفوني به، فجزوه خيراً.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وسنة ثمان وثمانين:فيها كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وهدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم،

وأن يدخل البيوت في المسجد، بحيث تصير مساحة المسجد مائتي ذراع، في مائتي ذراع، وأن يضع أثمان البيوت في بيت المال، فأجابه أهل المدينة إلى ذلك، وقدمت الفعلة والصناع من عند الوليد، لعمارة المسجد، وتجرد لذلك عمر بن عبد العزيز.وفي هذه السنة أيضاً أعني سنة ثمان وثمانين، أمر الوليد ببناء جامع دمشق فأنفق عليه أموالاً عظيمة، تجل عن الوصف .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وما بعدها حتى دخلت سنة ثلاث وتسعين:

فيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن المدينة.ثم دخلت سنة أربع وتسعين:فيها قتل الحجاج سعيد بن جبير، بسبب أن سعيداً كان خلع الحجاج، وصار مع عبد الرحمن بن الأشعث، وكان سعيد بن جبير قد هرب من الحجاج، وأقام في مكة، فأرسل الحجاج يطلب جماعة من الوليد قد التجأوا إلى مكة، فكتب الوليد إلى عامله على مكة، وهو خالد بن عبد الله القسري، يأمره بإرسال من يطلبه الحجاج، وطلب الحجاج سعيد بن جبير وغيره، فبعث بهم إليه فضرب عنق سعيد بن جبير، وسعيد بن جبير المذكور، كان من أعلام التابعين، أخذ العلم عن عبد اللّه بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعنه روى القرآن أبو عمرو، وقال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أحد إلا مفتقر إلى علمه.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وتسعين، توفي سعيد بن المسيب، وكان من كبار التابعين، وفقهائهم.

وفيها وقيل في سنة خمس وتسعين توفي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين، وكان مع أبيه الحسين لمّا قتل، وسلم من القتل، لأنه كان مريضاً على الفراش، وكان كثير العبادة، ولهذا قيل له زين العابدين، وتوفي بالمدينة، ودفن بالبقيع وعمره اثنان وخمسون سنة.ثم دخلت سنة خمس وتسعين:فيها توفي الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراقيين وخراسان، وعمره أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ولايته العراق نحو عشرين سنة، وكان الحجاج، أخفش، رقيق الصوت، في غاية الفصاحة، قيل إنه أحصي من جملة الذين قتلهم الحجاج، فكانوا مائة ألف وعشرين ألف.ثم دخلت سنة ست وتسعين:وفاة الوليد:وفي جمادى الآخرة، من هذه السنة، أعني سنة ست وتسعين، توفي الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر، وكانت وفاته بدير مران، ودفن بدمشق، خارج الباب الصغير، وصلى عليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وستة أشهر، وكان سائل الأنف جداً، وكان له من الولد ثمانية عشر ابناً، وهو الذي بنى مسجد دمشق، واحتمل له الصناع من بلاد الروم، ومن سائر بلاد الإسلام، وكان في جانب الجامع كنيسة، قد سلمت للنصارى، بسبب أنها في نصف البلد الذي أخذ بالصلح، وكانت تعرف بكنيسة ماريحنا فهدمها الوليد، وأدخلها في الجامع، وكان الوليد لحاناً، دخل عليه أعرابي يشكو صهراً له، فقال له الوليد: ما شأنك، بفتح النون. فقال الأعرابي أعوذ بالله من الشين، فقال له سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول:

ما شأنك بضم النون. فقال الأعرابي: ختني ظلمني، فقال الوليد: من ختنَك بالفتح. فقال الأعرابي: إنما ختنني الحجام، ولست أريد ذا. فقال سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول من ختنُك بالضم؟ فقال: هذا وأشار إلى خصمه، وكان أبوه عبد الملك فصيحاً، وعرف بلحن ابنه، فقال له: إنك يا بني لا تصلح للولاية على العرب، وأنت تلحن، وجعله في بيت؛ وجعل معه من يعلمه الإعراب، فمكث الوليد كذلك مدة، ثم خرج وهو أجهل مما دخل.

خلافة سليمان بن عبد الملك

يُعدُّ سليمان بن عبد الملك من أفضل خلفاء بني أمية، فلقد حرص والده على تربيته تربية عالية، وتعليمه أصول الحكم، كما كانت أخلاقه مضربًا للأمثال، ولذلك كانت بطانته من العلماء والحكماء والصالحين، أمثال رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز وغيرهما.

فهو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو أيوب. وأمه: ولادة بنت العباس، فهو شقيق الوليد، وقد وُلِدَ سليمان بالمدينة إلا أنه نشأ بالشام. بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ.

تربيته وأخلاقه

كان عبد الملك بن مروان، يعتني بأبنائه عناية فائقة، كما كان حريصًا على تربيتهم تربية إسلامية عربية، وعلى الرغم من مشاغله، إلا أنه كان حريصًا على تعهد أبنائه بين الحين والآخر، فقد روى أبو بكر الصولي: أن عبد الملك جمع بنيه: الوليد وسليمان ومسلمة بين يديه فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى، فلامهم على ذلك، ثم قال: لينشدني كل رجل منكم أرقَّ بيت قالته العرب ولا يفحش، هات يا وليد، فقال الوليد:

ما مركب وركوب الخيل يعجبني *** كمركب بين دملوج وخلخال

فقال عبد الملك: وهل يكون من الشعر أرق من هذا؟ هات يا سليمان فقال:

حبذا رجعها يديها إليها *** في يدي درعها تحلُّ الإزارا

فقال: لم تصب، هات يا مسلمة، فأنشده قول امرئ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربني *** بسهميك في أعشار قلب مُقتَّل

فقال: كذب امرؤ قيس ولم يُصِبْ، إذا ذرفت عيناها بالوجد فما بقي إلا اللقاء، وإنما ينبغي للعاشق أن يغتضي منها الجفاء ويكسوها المودة، ثم قال: أنا مؤجلكم في هذا البيت ثلاثة أيام فمن أتى به فله حكمه، أي مهما طلب أعطيته، فنهضوا من عنده، فبينما سليمان في موكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول:

لو ضربوا بالسيف رأسي في مودتها *** لمال يهوي سريعًا نحوها رأسي

فأمر سليمان بالأعرابي فاعتقل، ثم جاء إلى أبيه فقال: قد جئتك بما سألت: فقال: هات، فأنشده البيت فقال: أحسنت، وأني لك هذا، فأخبره خبر الأعرابي فقال: سل حاجتك ولا تنس صاحبك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك عهدت للأمر من بعدك للوليد وإني أحب أن أكون ولي العهد من بعده؛ فأجابه إلى ذلك وبعثه على الحج في سنة إحدى وثمانين، وأطلق له مائة ألف درهم فأعطاها سليمان لذلك الأعرابي الذي قال ذلك البيت من الشعر، فلما مات الوليد بن عبد الملك بويع سليمان أخوه بالخلافة، وكان سليمان أثناء خلافة أخيه الوليد بمنزلة الوزير والمشير بين يديه.

خـــلافتـــه

كان سليمان بن عبد الملك ورعًا تقيًّا، ويتضح ذلك من خطبه، فلا تكاد تخلو خطبة من خطبه من حثٍّ الناس على التقوى والخوف من الله ومدارسة القرآن، وتتضح هذه السيرة الطيبة من هذه الخطبة؛ فعن جابر بن عون الأسدي قال: أوّل ما تكلم به سليمان حين ولي الخلافة أن قال: "الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع. إن الدنيا دار غرور. يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارضوا به حكمًا واجعلوه لكم قائدًا، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده...".

كما اتخذ سليمان بن عبد الملك بطانة من صلحاء الرجال أمثال عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وغيرهما، وقد أثر ذلك في سليمان بن عبد الملك تأثيرًا كبيرًا فقد كان عمر بن عبد العزيز دائم التذكير بمسئوليته نحو رعيته فيروي أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس سنة ٩٧هـ وهو خليفة فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصِي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غدًا خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاءً شديدًا ثم قال: بالله أستعين.

وكان عمر بن عبد العزيز ذات يوم في سفر مصاحبًا سليمان بن عبد الملك، فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة حتى فزعوا لذلك، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك، فقال له سليمان، ما أضحكك يا عمر؟ أما ترى ما نحن فيه؟ فقال له: يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترى، فكيف بآثار سخطه وغضبه؟!

وكان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك، ويقول: افتتح خلافته بخير وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

شبهات وردود حول سليمان بن عبد الملك

لقد ثارت بعض الشبهات حول سليمان بن عبد الملك منها عزل ولاة الحجاج بن يوسف والتنكيل بهم، انتقامًا منهم ومن الحجاج لا لشيء إلا لأن الحجاج كان قد أيد أخاه الخليفة الوليد

بن عبد الملك عندما أراد أن يعزله من ولاية العهد، وأن يولي ابنه عبد العزيز. وهذه نظرة سطحية للأمور وبعيدة عن الواقع تمامًا، فالأمر لم يكن أمر عواطف أو انتقام شخصي، وإنما هي سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه فأي حاكم مكان سليمان كان لا بد أن يغير في الأسلوب والمناخ الذي أشاعه الحجاج وعماله من قسوة وإرهاب بين الرعية أحيانًا، وإذا كان للحجاج مبرراته في انتهاج أسلوبه القاسي، فقد تغيرت الظروف التي ألجأته إلى القسوة، وعَمَّ الهدوء والاستقرار أرجاء الدولة الإسلامية منذ أواخر عهد عبد الملك، فكان من الحكمة أن يتغير أسلوب الحجاج، وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبة العارمة لدى غالبية الناس.

ولعل هذا هو السر في رضاء الناس عن سليمان وثنائهم عليه، يقول الطبري: كان الناس قد استبشروا بخلافة سليمان، وكانوا يقولون: سليمان مفتاح الخير، ذهب عنهم الحجَّاج، فولي سليمان فأطلق الأسرى وخلَّى أهل السجون، وأحسنَ إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز".

وعندما ندقق النظر في مسألة الولاة الذين قيل إن سليمان بن عبد الملك نكَّل بهم، وقتل بعضهم وهم: موسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم الثقفي، سنرى أن سليمان بريء تمامًا من هذه التهمة.

فأما موسى بن نصير، فعندما وصل إلى دمشق حدثت له مساءلة من الخليفة عن بعض المخالفات، وهذا شيء طبيعي، ولكنه مع ذلك ضمَّه إلى كبار مستشاريه، يقول ابن كثير بعد حديثه عن الجيش الذي أرسله سليمان بن عبد الملك لحصار القسطنطينية والجهود التي بُذلت في إعداده: "وذلك كله بمشورة موسى بن نصير حين قدم عليه من المغرب". فهذا يدل على حرص الخليفة على الاستفادة من خبرة قائد عسكري بارز، وفاتح من كبار الفاتحين، فكيف يكون قد نكل به وعذبه؟ وهل يتفق هذا مع ذاك؟

ثم إن المصادر تجمع على أن سليمان بن عبد الملك حين حج سنة ٩٧هـ اصطحب معه موسى بن نصير، وقد مات موسى بالمدينة، فهل كان سيصحبه معه إلى الحج لو كان غاضبًا عليه؟!! ثم إن ابن عبد الحكم يقول: "وكان سليمان قد أمر موسى برفع حوائجه وحوائج من معه"، وهذه العبارة لا تُقال لرجل موضع الغضب والنقمة من الخليفة.

ثم إن الروايات التي تذكر تعذيب سليمان لموسى ونقمته عليه ترجع ذلك إلى سبب يتعلق بالأموال والهدايا التي اصطحبها موسى بن نصير معه من المغرب والأندلس، وأن سليمان كان قد كتب إلى موسى ليتمهل في مسيرته، حتى لا يصل دمشق إلا بعد موت أخيه الوليد –الذي كان مريضًا– وحينئذٍ يكون هو قد أصبح خليفة، وتكون تلك الغنائم من نصيبه، وهذه روايات مدسوسة ومن الواضح أنها وُضِعَتْ لتنال من الخلفاء الأمويين، وتصورهم على أنهم نهِمون حريصون على المال، يحاولون جمعه بأية طريقة، حتى ولو ضحُّوا في سبيل ذلك بدينهم

وخلقهم، وإلا فكيف يعرف سليمان أن أخاه سيموت، فلم يكن الوليد طاعنًا في السن، حتى يكون موته متوقَّعًا. وهَبْ أن الوليد قد شُفِيَ من مرضه، وعلم بما صنع أخوه، فكيف يكون شكل العلاقات بينهما، ثم هل من الممكن أن يكون سليمان الوَرِع التَّقِي متهافتًا على المال إلى حدِّ أن يتمنى من أجله موت أخيه؟

لا يمكن أن يكون سليمان كذلك، فلدينا من الروايات ما يؤكد عفته عن أموال المسلمين، وتوخِّيه العدل في جمعها، فابن عبد الحكم يروي في قصة موسى بن نصير مع سليمان ما يؤكد هذا حيث يقول: فبينما سليمان يقلِّب تلك الهدايا، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى بن نصير، يقال له: عيسى بن عبد الله الطويل، من أهل المدينة، وكان على الغنائم؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام، وإني صاحب هذه المقاسم، وإن موسى لم يخرج خُمُسًا من جميع ما أتاك به. فغضب سليمان، وقام عن سريره فدخل منزله ثم خرج إلى الناس؛ فقال: نعم، قد أغناني الله بالحلال عن الحرام، وأمر بإدخال ذلك بيت المال".

بل لدينا ما هو أكثر دلالة في تأكيد عفة سليمان بن عبد الملك، وجميع خلفاء بني أمية عن أموال المسلمين، حيث يقول صاحب (أخبار مجموعة): إن الخلفاء الأمويين كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أُخِذَ بحقه، وإنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة".

فهل يكفي ذلك في الدلالة على عفة سليمان وورعه عن أموال المسلمين، وأن ما رُويَ من غضبه على موسى بسبب الأموال والهدايا لم يكن إلا محض اختلاق.

أما قتيبة بن مسلم فقد راح ضحية تسرعه –يرحمه الله– فلم يأمر سليمان بقتل قتيبة، بل أرسل إليه كتاب توليته على خراسان، ولكنه هو الذي أسرع وأعلن الثورة، وخلع طاعة الخليفة؛ مما أدَّى إلى خروج الجند عليه وقتله.

أما محمد بن القاسم فقد راح ضحية أحقاد شخصية بين والي العراق صالح بن عبد الرحمن وبين آل الحجَّاج، ولم يثبت أن سليمان أمر بقتل محمد بن القاسم، وإذا كان هناك من مسئولية على سليمان فقد تكون محصورة في السكوت على قتل محمد بن القاسم، وعدم معاقبة قاتليه، وقد يكون له مبرراته في ذلك، ولو كان الأمر يحتاج إلى قصاص لما سكت عنه عمر بن عبد العزيز.

ومن الأكاذيب التي نسبت إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك أنه كان نهمًا في الأكل، ومن ذلك ما يرويه المسعودي: "أن سليمان بن عبد الملك قُدِّمَ إليه عشرون خروفًا فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة، ثم قُرِّبَ الطعامُ بعد ذلك، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئًا".

وقد فطن ابن كثير إلى هذه الروايات المدسوسة؛ فقال: وذكروا أن سليمان كان نهمًا في الأكل، وقد نقلوا عنه في ذلك أشياء غريبة".

فالذين رووا هذه الأخبار من أعداء الأمويين، اتخذوا منها نوادر لتسلية خلفاء بني العباس، فلم يكن هؤلاء الأعداء للأمويين يَدَعُون فرصة للنَّيْلِ منهم والتشهير بهم إلا انتهزوها حتى ولو دفعهم ذلك إلى الكذب إرضاءً لخلفاء بني العباس ونيل جوائزهم.

وفاة سليمان بن عبد الملك

توفي سليمان بن عبد الملك في مرج دابق مرابطًا في سبيل الله في شهر صَفَر سنة ٩٩هـ، وبُويِعَ في اليوم نفسه لابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي عهد له من بعده.

خلافة عمر بن عبد العزيز (٦١- ١٠١هـ / ٦٨١- ٧٢١م)

المولد والنشأة:

مولده: لقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ومكان ولادة عمر بن عبد العزيز، وهو على عدة أقوال:

القول الأول: أنه ولد سنة ٥٩ هـ .

القول الثاني: أنه ولد بالمدينة سنة ٦٠ هـ، عام توفي معاوية أو بعده .

القول الثالث: أنه ولد سنة ٦٢ هـ .

القول الرابع: أنه ولد بحلوان قرية بمصر وأبوه عبد العزيز أمير عليها سنة ٦١ هـ وقيل سنة ٦٣ هـ .

القول الخامس:

أن ولادته كانت سنة إحدى وستين للهجرة، ليالي قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، والراجح أنه ولد بالمدينة سنة ٦١ هـ وبه قال الكثير من المؤرخين.

أما عن نسبه: فهو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف ، بن قصي بن كلاب، الإمام الحافظ، العلامة المجتهد، الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقا، القرشي الأموي، المدني ثم المصري، الراشد، أشج بني أمية، أبوه عبد العزيز بن مروان ، يكنى بأبي حفص التقي النقي الصوام القوام .

نشأته:

ولد عمر بن عبد العزيز بحلوان في مصر فترعرع في بيئة مصرية اشتهرت بالنعيم واشتهرت بالكرم والتقوى ، كان بوجهه شجة ضربته دابة في جبهته وهو غلام، وجعل أبوه عبد

العزيز يمسح له الدم وقول له: "إن كنت أشج بني أمية فإنك لسعيد"، وكان عمر بن الخطاب يقول: "من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً " .

ففي حلوان سكن عبد العزيز مع أسرته وبنى في الدور وغرس النخيل والأعناب، وهناك قضى عمر فترة صباه فكان من عادة الخلفاء والأمراء أنهم يعتنون بأبنائهم فيضعون لهم المؤدبين والمعلمين كي ينشؤوا على المكارم والفضائل وطلب المعالي وأول ما كانوا يعتنون به هو كتاب الله .

وروي ابن الجوزي أن عبد العزيز بن مروان بعث عمر إلى المدينة ليتأدب بها وكتب إلى صالح بن كيسان ، وكان يختلف مع عبيد الله بن عبد الله، يسمع منه العلم وكان صالح بن كيسان يلزمه الصلاة فأبطأ يوماً عن الصلاة فقال: "ما حسبك؟ قال: كانت مرجلتي تسكن شعري، فقال: بلغ بك تسكين شعرك أن تُؤثره عن الصلاة، وكتب إلى عبد العزيز بلك فبعث إليه أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه .

ولمّا حج أبوه عبد العزيز اجتاز في المدينة وسأل صالح بن كيسان عن ابنه عمر فقال له صالح: "ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام" .

وهكذا عاش عمر بن عبد العزيز في المدينة يتزود بالعلم من علمائها، في نعمة اعمامه وحنان أخواله من أسرة الفاروق، فجمع بين خصال العلم والدين، إلى جانب الترف والثراء.

ولايته على خناصرة:

وفي سنة ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر، وكان ابنه عمر قد تم تأديبه فاستدعاه عمه عبد الملك، إلى دمشق عاصمة الدولة الاموية، وخلطه على كثير من أولاده، وزوجه من ابنته فاطمة، ثم ولاه على إمارة صغيرة تدعى "خناصرة". فلبث عمر واليا عليها لمدة سنتين ، وهكذا عاش عمر في كنف عمه عبد الملك –وكان أحد كبار فقهاء المدينة –فأخذ عنه العلم وحضر مجالسه وشهد فيها محاورات العلماء والفقهاء والشعراء، فنمى معرفته ووسع دائرة ثقافته واكتسب فهم شؤون الحياة، ويبدو أن عبد الملك أراد ان يعلم عمر على الإدارة وفن الحكم، ولقد بقي عمر واليا على خناصرة حتى وفاة عمه عبد الملك، وتولية الخلافة من بعده إلى الوليد بن عبد الملك، الذي استمر في التعاون مع ابن عمه عمر، أي أن تولية عمر لخناصرة هي أولى المناصب التي تولاها.

ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة:

١- تعيين عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة:

وفي سنة ٨٧ هـ اختار الخليفة الوليد بن عبد الملك ، عمر بن عبد العزيز ليكون واليا على المدينة، وكان عمر عمره خمسة وعشرون سنة ، فقد قام الوليد بعزل هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة، وعين بدله عمر بن عبد العزيز، ولقد كانت مدة إمرة هشام بن

إسماعيل المخزومي على المدينة أربع سنوات، فقام عمر بضم الطائف سنة ٩١ هـ ، وبذلك صار واليا على الحجاز كلها، ولقد اشترط عمر لتولية الإمارة ثلاث شروط هي:

١ الشرط الأول: أن يعمل بين الناس بالحق ولا يظلم أحدا، ولا يجوز لأحد أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال.

٢ الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة، لأن عمر لم يحج في ذلك الوقت.

٣ الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء، وأن يخرجه للناس في المدينة

فوافق الوليد على مطالب عمر، وقال له: " اعمل بالحق، وإن لم ترفع لنا درهما واحدا "

٢ أعماله بالمدينة:

ومن أبرز الأعمال التي قام بها عمر خلال فترة ولايته على المدينة نذكر:

أ–تكوين مجلس فقهاء المدينة العشرة:

عندما وصل عمر بن عبد العزيز إلى المدينة وهو واليا، فصلى الظهر ودعا عشرة من فقهاء المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال: "إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا الا برايكم أو براي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي في ظلامة فأحرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني، فجزوه خيرا وافترقوا"، فقد استطاع عمر بن عبد العزيز أن يكون من هؤلاء مجلس شورى للإمارة، فهو في هذه الحالة كجده الفاروق رضي الله عنه .

ب–توسعة المجلس النبوي:

قام الوليد بن عبد الملك بكتب كتاب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بإدخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وان يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ويقول له: "قدم القبلة إن قدرت وأنت تقدر لمكان أخوالك وإنهم لا يخالفونك"، ثم اهدم عليهم وادفع إليهم الأثمان، فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان، فأراهم كتاب الوليد وهم عنده، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه، وأخذ في هدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وبنى المسجد، وهكذا استطاع عمر بن عبد العزيز أن يوسع المسجد بناءً على رغبة الوليد.

٣ عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة:

وفي سنة ٩٣ هـ عزل الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز عن الإمارة والسبب في ، ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بعسف الحجاج ، وظلمه فكتب الخليفة الوليد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلي يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحى عن المدينة، ولما علم الحجاج بما كتبه

عمر في شأنه سارع على الخليفة يقول: أن عندي من المراق وأهل الشقاق قد جلو عن العراق ولحقوا بمكة والمدينة ورأيي أن نعزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة ومكة حرصا على سلامة امنكم وممتلكاتكم ، فكتب الخليفة الوليد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يستشيره فيمن يتولى الإمرة، فأشار الحجاج لرجلين هما: خالد بن عبد الله القسري على مكة، وعثمان بن حيان عن المدينة، فعينهما الوليد بن عبد الملك عن إمرتهما وعزل عمر بن عبد العزيز عنهما، ويبدوا أن ميول الوليد كانت واضحة لسياسة الحجاج، فالخليفة الوليد كان يظن أن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة معزولا باكيا ومعه مزاحم ونزل بمكان يسمى " السويداء" ، ثم قدم دمشق على بني عمه ، وكانت السويداء بها بيت ومزرعة وأقام بها فرأى أن مصلحته تقتضي إقامته بدمشق بجوار الخليفة لعل وعسى يستطيع أن يمنع ظلما لأن بقاءه بجوار الخليفة لم يخل من المشاكل .

خلافة عمر بن عبد العزيز

١ مبايعته بالخلافة :

في سنة ٩٩ هـ توفي سليمان بدابق ، وكان في مرضه يعهد إلى ولده داود، ثم استصغره ، ثم قال له كاتبه رجاء بن حيوة ، ابنك غائب عنك بالقسطنطينية ولا يعرف أهو حي أم ميت فعدل إلى عمر بن عبد العزيز وقال له: أني والله لأعلم أنها تكون فتنة ولا يتركونه أبدا يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده وكتب بعد البسملة هذا كتاب من سليمان أمير المؤمنين لعمر بن العزيز: أني وليت الخلافة من بعدي وبعده يزيد بن عبد الملك فاسمعوا وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته: فقال: أدع أهل بيتي فجمعهم كعب ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم، فبايعوا رجلا رجلا ولم يعلموا من في الكتاب قال: رجاء

فأتاني عمر بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكون هذا أسند إلي من هذا الأمر شيئا، فأنشدك الله إلا أعلمتني إن كان قد وقع حتى استعفي قبل أن يأتي حال لا أقدر على ذلك فيها، فقال له رجاء ما أنا مخبرك فذهب عني غضبان .

ثم أرسل رجاء بن حيوة إلى كعب بن رجاء العبسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين في ، مسجد دابق فقال لهم بايعوا، فقالوا: بايعنا مرة أنبايع أخرى؟ فقال لهم رجاء نعم فبايعوا فلما قُرأ الكتاب، فإذا هو باسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ثم قال هشام : والله لا نبايعنه أبدا، فقال له رجاء بن حيوة: والله لنضرب عنقك ثم بايع فقام وهو يجر رجليه، ثم طلبوا عمر بن عبد العزيز فإذا هو في المسجد فسلموا عليه بالخلافة فعقر عليه فلم يستطع النهوض حتى أخذ قوم فأجلسوه على المنبر فجلس طويلا لا يتكلم فلما رآهم رجاء جالسين أن لا

تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعونه، فنهضوا إليه فبايعوه رجلا رجلا، ومد يده إليهم، فصعد إليه هشام، فلما مد يده قال هشام: "إنا لله وإنا إليه راجعون فقال عمر: إنا لله حين صار يلي هذه الأمة أنا وأنت ثم قام فحمد الله. ثم صعد المنبر وقال في أول لقاء له مع الأمة بعد استخلافه:

»أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي مني ولا طلب له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم أمير « ،فصاح الناس صيحة واحدة: » قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فلِ أمرنا باليمن والبركة « ، فلما رأى الأصوات هدأت ورضي الناس جميعا حمد الله وأثنى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال » : أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وإني والله لست بقاض ولكني منفذ ولست بمبتدع، ولكني متبع ولست بخير من أحد ولكني أثقلكم حملا« ، ثم رفع صوته حتى اسمع الناس فقال» : من أطاع الله فقد وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم «وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في ذلك اليوم وهو يوم الجمعة سنة ٩٩ هـ وبهذا يكون عمر بن عبد العزيز في عداد خلفاء بني أمية.

٢ مبادئ عمر بن عبد العزيز في إدارة الدولة:

أ- إقامة الحق:

منذ اللحظات الأولى لخلافته رضي الله عنه أبان أن منهجه يقوم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين، وأعلن ذلك لكل الناس ، وبعث كتبه إلى الأنصار لإقامة الحق وحراسته ، فكان يأمر الناس أن يتجنبوا لغو الحديث ويفيضوا بكتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وسلم وانتهج عمر بن عبد العزيز سياسة التسامح مع النصارى واليهود ونادى بالهدنة بين الفئات المتصارعة والثائرة، وتنبه لمسألة استملاك رجال بني أمية وأشراف قبائل العرب الأ راضي، ورأى أن ذلك خروجاً عن الشريعة التي قضت بملكية الأمة الإسلامية لأراضيها.

ب- إقامة الشورى:

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام الذي أوحي إليه من العلي القدير، وكان من مبادئ هذا الدين الذي دعا إليها مبدأ الشورى، لأن المجتمع الدي يراد له الاستقرار والاستمرار ينبغي أن يقوم على الشورى.

إن أول قرار اتخذه عمر بن عبد العزيز بعد ان تولى إمرة المدينة للوليد بن عبد الملك يتعلق بتطبيق مبدا الشورى وجعله أساسا في إدارته حين دعا عشرة من فقهاء البلدة وكبار علمائها وجعل منهم مجلسا استشاريا دائما، كما مر بنا الذكر وقال لهم :" إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من

حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي في ظلامة فأحرج بالله على أحد ، بلغه ذلك إلا أبلغني ، فجزوه خيرا وافترقوا "، أي أنه لا يقطع أمرا إلا برأيكم أو بمشورة منهم .

ولقد كان عمر يستشير العلماء ويطلب نصحهم في كثير من الأمور، أمثال سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرضي ، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: " إني ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي" كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال، فقد قال لرجل" :أشرعلي فيمن أستعمل " فأشار عليه الرجل وقال: "أما أرباب الدين؛ فلا يريدونك–أي أنهم لا يرغبون المناصب زهدا فيها– وأما ارباب الدنيا فلا تردهم، ولكن عليك بالأشراف–أي الاخلاق لا الأنساب–فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح" .

ج– إقامة العدل والمساواة:

إن العدل من الموازين التي وضعها الله تعالى للخلق، وهي الصفة التي أمر بها الله وحث عليها، فالعدل من محاسن الأخلاق ومكارمها التي دعا عليها الإسلام، فالعدل هو الذي تستقيم به الحياة البشرية وتصلح.

فقد قام رضي الله عنه بهذا المبدأ العظيم على أتم وأحسن وجه، وكان يرى ان المسؤولية والسلطة في نظره هي القيام بحقوق الناس، والخضوع لشروط بيعتهم وتحقيق مصلحته المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة ولقد اعترف بعض المستشرقين أن مبدأ المساواة كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديماً نحو الإسلام، والمقصود بالمساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية مساواة مقيدة بأحوال فيه التساوي وليست مطلقة في جميع الأحوال، والمساواة تأتي في معاملة الناس اما القانون والقضاء وكافة الأحكام الإسلامية .

ومن الصفات التي يجب أن يقوم بها الإمام العادل كما عدّها الحسن البصري عندما كتب له عمر بن العزيز يسأله في ذلك فأجابه أنه كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، والإمام العادل كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها، الإمام العادل وصي اليتامى، وحازن المساكين، والإمام العادل كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد على الله ويقودهم .

خلافة يزيد بن عبد الملك (٧١–١٠٥هـ)

نشأته

يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ويكنى «أبا خالد» وأمّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهناك حي من أحياء دمشق ينسب إلى المكان الذي دفنت به «قبر عاتكة».

نشأ وترعرع في كنف والده عبد الملك، وتناقضت الروايات حول شخصية يزيد، وتباينت آراء من تحدث عنه، بين من وصفه برجل دولة له أثره، وبين من وصفه بكثرة اللهو وما إليه، ومن المؤكد أن لكل حسناته وسيآته، وقد ذُكر أنه قبل توليه الخلافة كان يكثر من مجالسة العلماء، ويحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز، وإلى جانب ذلك كانت له بطانة غير صالحة حببوا إليه الإقبال على الدنيا وربما كان لديه الاستعداد لذلك، ومما يروى عنه عند استلامه الخلافة قوله: «سيروا بمسيرة عمر بن عبد العزيز» وبقي كذلك أربعين ليلة.

تولى يزيد بن عبد الملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه واتخذ نهجاً آخر تابع فيه كثيراً من سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية والمالية، وخالف عمر بن عبد العزيز في بعض تجديداته وإصلاحاته، وخاصة في المجال المالي، ويرى بعض المؤرخين كابن الأثير بأن يزيد عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه، فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً عاجلاً.

وعلق عماد الدين خليل على عهد يزيد بن عبد الملك فقال: سنجد يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر، مما لم يوافق هواه، وإنما إلى بعضه فحسب، وبرر مقولة ابن الأثير وغيره ممن حذا حذوه، بأن قولهم جاء نتيجة خيبة الأمل التي أصيبوا بها من جراء ما آلت إليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز من انتكاس، وواضح أن الذي قاد إلى الانتكاس حقاً لم يكن هدم الخليفة يزيد لبعض جوانب سياسة عمر، بل فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية.

والصحيح أن يزيد راح ضحية قول ابن الأثير برده كل ما صنعه عمر، وما أورده اليعقوبي من عزله جميع عمال عمر، كما أن مجيئه عقب خلافة عمر جعله متوارياً في خلالها لا يرى، وأن رؤي في صورة الخليفة اللاهي المنغمس في الملذات قد شغله عشقه لجاريتيه حبابة وسلامة عن مباشرة أمور الدولة وشؤون الحكم، وذلك كما صورته كثير من المصادر التي تناولت سيرته الذاتية، في شيء من المبالغة والتهويل.

وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته يتبين أن الاختلاف بين شخصيتي يزيد وسلفه عمر هو الذي كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين، فقد غلب على عمر الوازع الديني، فاتسمت سياسته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة والكفاءة الإدارية، والحضور الدائم والانصراف إلى العمل وتحمل المسؤولية، والحق أن يزيد لم يدع الأمور تجري بلا ضابط أو لغيره، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث يعالجها ويوجهها ويخطط لها، لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشؤون دولته كما كان يفعل سلفه عمر، ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة مصونة في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي

حدثت في زمنه، وصد القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته، وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر.

قال ابن تغري بردي: غير أنه لما ولي يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز غيَّر غالبَ ما كان قرره عمر. وقال: ثم عزل جماعة من العمال. فلم يقل غيَّر كلَّ ما قرره عمر أو عزل جميع عماله، ويبدو جلياً أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق استراتيجية مرسومة.

كما يظهر أنه لم يحط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التي تمت في عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التي تعيشها من جراء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها في جسم الأمة ونشر الدين الإسلامي بينها، وهذا ما لمسه عمر وسعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك، فعاد إلى سياسة من سبق عمر من خلفاء بني أمية، وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط حركة الفتوح، وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلي، وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة في أمة الإسلام، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم، وللحق أن سياسة يزيد لم تكمن وراء الوهن الذي أصاب دولة بني أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة في تلك المرحلة من إصلاح، وما تعيشه من متغيرات، استمر في سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير مما صنعه عمر، فاستمر الوهن في عهده، وجرت بعض سياساته بالدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جلياً في زمنه، بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة، وكيانها موحداً مهاباً، فظل ينخر في جسم الدولة متوارياً، حتى ظهر ذلك متأخراً فيما بعد.

١ . أهم صفات يزيد الإدارية:

أ . الحزم: فقد تجلى حزمه في تعامله مع بعض الحركات الداخلية ومواجهة الخطر الخارجي، كجديته وحزمه في إخماد حركة ابن المهلب، ومواجهة خطر الترك والصغد فيما وراء النهر، والخزر في أرمينية.

ب . المرونة: وأما المرونة واللين فلاحظناها في تعامله مع حركة عقفان الحروري، عندما لجأ للطريق السلمي في إخمادها، فكان موفقاً، وكذلك ملاينته لأهل الكوفة إبان حركة ابن المهلب حتى يضمن لزومهم الحياد وعدم انضمامهم لخصمه.

جـ الواقعية: فلعلها تتجلى في إقرار تصرف البربر عندما قتلوا أميرهم يزيد بن أبي مسلم وولوا عليهم غيره، وقصة هذا الحديث: في سنة اثنتين ومئة: قتل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية وهو والٍ عليها، وكان سبب ذلك أنه عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق؛ من ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم

على ذلك تآمروا في أمره، فأجمع رأيهم . فيما ذكر . على قتله، فقتلوه، وولوا على أنفسهم الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم. سامنا ما لا يرضي الله والمسلمين، فقتلناه، وأعدنا عاملك، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إني لم أرضَ ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على إفريقية. وبهذا الفعل من يزيد جنب الدولة كثيراً من المشاكل، ووفر عليها كثيراً من الجهد والمال.

٢ . سياسته في إدارة الولايات:

اتبع يزيد النهج الأموي في إطلاق يد العامل، وجعل ولايته عامة، بل إنه عاد إلى ضم الولايات إلى بعض، فجمع العراقين لمسلمة بن عبد الملك، ثم لعمر بن هبيرة، وفوض لهما أمر المشرق كله، كما جمع لعبد الواحد النصري المدينة ومكة والطائف. وأعاد الأندلس تابعة إلى ولاية إفريقية، إلا أنه لم يطبق السياسة الأموية في الفصل بين السلطة الإدارية والمالية إلا في مصر والمدينة، فقد أعاد أسامة بن زيد على خراج مصر.

أما بقية الأقاليم فقد جمع لولاتها السلطات الإدارية والمالية، فلم نعثر على نص يدل على ذلك، بل إننا نجد نصوصاً تدل على استعمال الأمراء والقضاة، وعمال الخراج والصدقات والدواوين بشكل عام، ونوابهم على المناطق التابعة لهم، من قبلهم، فأصبحت الولاية وكأنها نيابة عامة عن الخليفة، يستمد الأمير فيها سلطاته من سلطة الخليفة، ومع ذلك فقد كان يتدخل إذا ما لزم الأمر، واقتضت الحاجة والمصلحة؛ من ذلك أمره ابن هبيرة عامله على المشرق استعمال الحرشي على خراسان.

ومن سمات سياسته الإدارية إتاحة الفرصة للموالي في إدارة الدولة، وشغل بعض الأعمال الكبيرة، وقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء، فقد أمر على قضاء مصر عبد الله بن يزيد بن خذامر الصنعاني مولى سبأ، كما يبدو أن يزيد بن عبد الملك تابع الخليفة عمر بن عبد العزيز في منع أهل الذمة من العمل في دواوين الدولة، إذ لم نلمس ما يُشير إلى عملهم فيها.

٣ . أشهر ولاة يزيد بن عبد الملك:

كان العامل على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة محمد بن عمرو ذو الشامة، وعلى قضائها القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان، وعلى خراسان سعيد بن عبد العزيز الحرشي، وعلى مصر أسامة بن زيد.

اعماله الخارجية والداخلية :

توفيَّ عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة ١٠١ هـ (يناير سنة ٧٢٠ م)، بعدَ أن دامت خلافته لسنتين ونصف تقريباً. وقد تولّى الخلافة بعده ابن عمِّه يزيد بن عبد الملك. يَعتبر الكثير من المؤرخين – مثل ابن كثير – أن يزيد تأثر بعمر في بداية خلافته، وأرادَ اتباعه في خلافته وحسن سيرته، غير أن أقران السوء أفسدوه. وعلى أي حال فإن يزيد بن عبد الملك لم يَكن ذا خبرة ومقدرات تؤهله للخلافة، إذ كان شاباً لا يزيد عمره عن ٢٩ عاماً قضى أغلب حياته في اللهو والترف، وقد كان يُمكن لعهده أن يَشهد انحطاطاً كبيراً للدولة لولا بعض رجالها الذين حافظوا على قوتها مثل مسلمة بن عبد الملك، وقد كان عهده بالفعل عهد ضعف نسبيٍّ للدولة.

غزا المسلمون إقليم الصغد في ما وراء النهر عدَّة مرات خلال خلافة يزيد بعد أن نقض أهله عهدهم مع المسلمين (في سنتي ١٠٢ و١٠٤ هـ)، كما استمرُّوا بغزواتهم المعتادة في الصوائف والشواتي ضد البيزنطيين. كما كانت هناك موقعتان كبيرتان في فرنسا، حيث عبرَ السمح بن مالك الخولاني جبال البرانس بجيشه سنة ١٠٢ هـ وحاصرَ طولوز، فسار إليه دوق فرنسا والتقيا في معركة تولوز التي انتهت بهَزيمة المُسلمين. كما سار أمير الأندلس – عنبسة بن سحيم الكلبي – بعدها على رأس جيش إلى فرنسا وفتح سبتمانيا وليون وتوغل في منطقة بورغونيا، وغزا في فترة مقاربة محمد بن يزيد جزيرة صقلية. وكان من أكبر الأحداث التي شهدها عهد يزيد ثورة ضخمة للخوارج قادها يزيد بن المهلب، حيثُ ثار على الخليفة ودعا إلى خلعه، وبايعه أهل البصرة، ثم امتدَّ نفوذه إلى الجزيرة الفراتية والبحرين وفارس والأهواز، غير أنه هُزمَ وقُتلَ ضد مسلمة – أخو يزيد – في معركة عفر قرب الكوفة بشهر صفر سنة ١٠٢ هـ (أغسطس سنة ٧٢٠م)

خروج يزيد بن المهلب:

أظهرت الأحداث السياسية في عهد يزيد أن هذا الخليفة كان أسير عصبيته التي اقترفت بالتعصب الشديد للحزب القيسي. وكان من نتيجتها خروج يزيد بن المهلب. وتعود الأسباب الأولى لهذه الحركة إلى ذلك الخلاف القديم بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب وهو الذي أدى إلى عزل هذا الأخير بفعل التناحر القبلي على الأرجح.

وأعيد اعتبار يزيد وأسرته في عهد سليمان بن عبد الملك من خلال سياسة الخليفة إقامة التوازنات القبلية، وعينه سليمان حاكماً على العراق والمشرق الإسلامي. وفي عهد عمر بن عبد العزيز أعيد يزيد إلى السجن بسبب تعارض سلوك الخليفة السياسي والاجتماعي مع سلوك آل المهلب ذوي النزعة الأرستقراطية، وكانت التهمة إخفاء الأوراق المطلوب تسليمها إلى الخلافة منذ العهد السابق المتأتية من إيراد خراسان، وغنائم حروبه في جرجان وطبرستان.

وجاءت الكارثة التي حلت بيزيد بن المهلب اليمني الانتماء عندما اعتلى يزيد بن عبد الملك، وهو المتعاطف مع الخط القيسي، سدة الخلافة. وكان يزيد بن المهلب هذا قد فر من

سجنه في أواخر أيام عمر بن عبد العزيز، واستولى على البصرة، وعمل على تفجير الوضع الداخلي ضد السلطة والنظام معتمداً على أنصاره فيها، ورفض، في الوقت نفسه، دعوة أخيه حبيب بن المهلب الخروج إلى خراسان، الأرض الصالحة لمناوئة الأمويين، وكان سقوط البصرة وطرد حاكمها الأموي فرصة طيبة للمضي في حركته، وقد رفض عرضاً من الخليفة للتفاوض بشأن العفو عنه، تجنباً للاصطدام.

وتمادى في معارضته حين استولى على الكوفة، وعلى ما يلي البصرة من فارس والأهواز، وكاد يبسط سلطانه على العراق كله. ورفع شعاراً مناهضاً للنظام "إن جهاد أهل الشام أعظم أجراً وثواباً من جهاد الترك والديلم". وبايعه الناس على "كتاب الله وسنة نبيه محمد صل الله عليه وسلم وعلى ألا تطأ جنود أهل الشام بلادنا ولا بيضتنا ولا تعاد فيناً سيرة الحجاج".

وهكذا فإن حركة ابن المهلب كانت ضد العودة إلى جوهر السياسة التوسعية بما فيها استعمال جيش الشام في العراق وبقاؤه فيه. والظاهرة الملفتة للنظر، في هذه الحركة، ما روي عن انضمام فئة من الجيش الشامي إلى يزيد بن المهلب، في حين نجد أن عرب خراسان، والأزد منهم بشكل خاص، وهم عشيرة يزيد، لم يناصروا الثورة ولم ينضموا إليه، على الرغم من محاولته الفاشلة لاستقطابهم، وتعاون هؤلاء مع بني تميم في صده عن خراسان.

وأظهرت التحالفات التي حظي بها يزيد بن المهلب من أهل العراق وعيد التأييد لحركته، فإذا هي حركة انتقامية ضد تراث الحجاج، فكان الموقف العدائي من هذا الحاكم السابق هو القاسم المشترك بينه وبين أنصاره العراقيين.

غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي مؤقت دون تخطيط منظم، ومرتبط بقائدها الذي كان ملاحقاً من قبل السلطة وجبراً على الهرب من وجهها. وكانت هذه السلطة لا تزال تمسك بزمام المبادرة في العراق، وتمكنت من تصفية هذه الحركة على يد مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على يزيد بن المهلب وحركته بعد معركة قصيرة.

كانت حركة يزيد بن المهلب إحدى أهم الحركات المعارضة للنظام في عهد يزيد الثاني، إذا ما استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، واستطاع أن يهزم عدة جيوش عراقية أرسلت لقمع حركته إلا أنه انهزم أمام سعيد بن عمر الحرشي الذي قاد جيشاً أموياً من عشرة آلاف مقاتل اصطدم به واستطاع القضاء عليه.

وردت قصة يزيد بن عبدالملك وجاريته حبابة في العديد من الكتب التاريخية، وقد اختلف المؤرخون في بعض التفاصيل إلا أنهم أجمعوا على عشق يزيد وولهه بحبابة.

فقد ورد في كتاب "البداية والنهاية " لابن كثير، أن يزيداً قد سمع قبل توليه الخلافة بجارية حسنة الوجه جميلة الصوت ذاع صيتها في مكة لجمالها وإتقانها للشعر والغناء، فبعث

يزيد واشتراها بأربعة آلاف دينار، فلامه في إسرافه أخوه سليمان وقال له "لقد هممت أحجر على يديك" فاضطر يزيد لبيع جاريته بعد أن تعلق بها قلبه.

ولما أفضت إليه الخلافة، سألته زوجته سعدة: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء؟ قال: نعم، حبابة، فبعثت واشترتها له فحظيت الجارية عنده، وكذلك زوجته أيضاً.

يوماً بعد يوم زاد تعلق الخليفة بحبابة وعشقه لها، فانصرف عن أمور الحكم إلى الشرب وجلسات السمر مع محبوبته، حتى لامه أخوه مسلمة بن عبدالملك في ذلك وأغلظ عليه وذكره بعهد عمر بن عبدالعزيز، فأثر ذلك في نفس الخليفة وقرر اعتزال الشرب واعتزال حبابة أيضاً، كما ورد في كتاب "الأغاني" للأصفهاني.

فدفعت حبابة أحد الشعراء –يقال له الأحوص الأنصاري– لينشد بين يدي الخليفة شعراً يعدل به عن رأيه، ووعدته بإعطائه ألف دينار إن هو نجح في ذلك.

فأنشد الأحوص بين يدي يزيد بن عبدالملك:

أَلا لا تَلُمهُ اليَوم أَن يَتبَلدا فَقَد غُلِبَ المَحزونُ أَن يَتَجلَّدا
بَكَيتُ الصِّبا جُهدي فَمَن شاءَ لامَنِي وَمَن شاءَ آسَى فِي البُكاءِ وَأَسعدا
وَإِنِّي وَإِن فُنِّدتُ فِي طَلَبِ الصِّبا لأَعلَمُ أَنِّي لَستُ فِي الحُبِّ أَحدَا
إذا أَنتَ لَم تَعشَق وَلَم تَدرِ مَا الهَوى فَكُن حَجَراً مِن يابِس الصَّخر جَلمَدا
فَمَا العَيشُ إلا ما تَلَذُّ وَتَشتَهي وَإِن لامَ فيهِ ذُو الشَّنان وَفَنَّدا

ولما كان الخليفة خارجاً إلى صلاة الجمعة، وقفت حبابة ببابه والعود في يدها وأنشدت: فَمَا العَيشُ إلا ما تَلَذُّ وَتَشتَهي وَإِن لامَ فيهِ ذُو الشَّنان وَفَنَّدا

فقال: صدقت والله، قبح الله من لامني فيك، وعاد يزيد إلى سابق عهده مع حبابة منذ ذلك اليوم.

حبة عنب تكسر قلب الخليفة

قيل إن الخليفة قد بنى قصراً خاصاً لحبابة وجهزه كما تجهز قصور الخلفاء، وأراد أن يخلو بها في هذا القصر مدة من الزمن بعيداً عن أعين الرقباء ومشاغل الحكم.

وبينما كان الحبيبان يضحكان ويتسامران في إحدى الليالي كما جرت العادة، رمى الخليفة معشوقته بحبة عنب –وقيل بحبة رمان– وهي تضحك فشرقت وماتت.

جن جنون يزيد على موت محبوبته بهذه الصورة المفجعة وراح يذرف الدموع على فراقها، ولم يصدق أنها فارقت الحياة فعلاً فبقي إلى جوارها يشمها ويقبلها ٣ أيام حتى أنتنت وجيفت، فلامه الناس على فعله، فأمر بغسلها ودفنها في منطقة بيت رأس.

وقيل إنه أقام على قبرها أياماً وأنشد فيها الكثير من الشعر منه قوله:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا * فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارني فهو قاتل * من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

وقال في فراقها أيضاً:

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر

وقد ورد في كتاب "الأغاني" نقلاً عن المدائني، أن الشوق إلى حبابة قد غلب يزيداً بعد دفنها بثلاثة أيام، فأمر أن ينبش قبرها لينظر إليها نظرة أخيرة، ولما رآها قد تغيرت إلى حالة بشعة قال له أتباعه: يا أمير المؤمنين اتق الله، ألا ترى كيف صارت؟ فقال: ما رأيتها قط أحسن منها اليوم، أخرجوها.

فجاء أخوه مسلمة مع نفر من الناس وألحوا عليه حتى عدل عما هو فيه وأمر بإعادة دفن حبابة.

الخليفة الوحيد الذي قتله العشق

بعد موت حبابة، عاد يزيد بن عبدالملك إلى قصره في أربد، ومكث فيه مهموماً لا يغادره حتى مات حزناً على محبوبته بعد ٤٠ يوماً من موتها، وقيل ١٧، وقد توفي يزيد شاباً عن عمر لا يتجاوز ٣٤ عاماً.

ولا يعرف على وجه التحديد إن كان الخليفة قد دفن في إربد أم حملت جثته إلى دمشق ليوارى هناك في العام ٧٢٤.

وهكذا انتهت قصة الخليفة العاشق الذي لا يعرف التاريخ خليفة مات حباً سواه.

ومن هؤلاء المؤرخين الرافضين لتلك القصص ابن تغرى بردي صاحب كتاب "النجوم الزاهرة" والذي يقول إنها قصص مدسوسة من قبل العباسيين الناقمين على الأمويين.

خلافة هشام بن عبد الملك

نبذة عن حياته

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي أمير المؤمنين، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

وُلِدَ هشام بن عبد الملك –على القول الراجح– سنة ٧٢هـ، وسمَّاه عبد الملك منصورًا لانتصاره على مصعب في تلك السنة.

قضى هشام الشطر الأخير من طفولته في منزل الخلافة الأموي بالشام في أواخر حكم أبيه وإخوته من الخلفاء وكان مغمورًا في البلاط الأموي زمن أخويه الوليد وسليمان، وقد بقي بعيدًا

عن مسرح الأحداث نسبيًّا حتى توليه الخلافة سنة ١٠٥هـ، وهو الرابع من ولد عبد الملك لصلبه الذين ولوا الخلافة.

وُصِفَ بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً. ويبدو أن السبب في هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصًا على مال المسلمين، ولذلك وصفه الشعراء والكُتَّاب بالبخل؛ لأن الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية.

تربيته لأولاده

كان لهشام عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، ويختلف المؤرخون في عددهم؛ فيذكر ابن حزم أن عددهم كان ستة عشر ولدًا وبعض البنات، وقد حاول هشام أن يُحْسِن تربية أولاده فاختار لهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري المحدث لتأديبهم، واختار هشام لأولاده –أيضًا– من يعلمهم اللغة والشعر، وكان يحضر أحيانًا مجالس مؤدبيهم، وكان يعطي مؤدب ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز، وكان يوصي مؤدب ابنه أن يعلمه القرآن، ويروِّه الأشعار، وأيام الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن، وقيل: أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويقريه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروه من الشعر أحسنه، ويتخلل به مغازي رسول الله ، وطرفًا من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين. وبالرغم من ذلك فقد أساء بعض أبنائه السيرة، ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط الدولة الأموية عدا حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

ويُذكَر أن هشامًا شتم ابنه محمدًا لقيام أحد عبيده بضرب طفل نصراني، كان قد اعتدى على أحد أولاد محمد، كما منع أحد أولاده من ركوب الدابة سنة، عقابًا له على عدم حضوره لصلاة الجمعة بحُجَّة موت دابته، وأنه ليس باستطاعته أن يحضر إلى المسجد ماشيًا، وقد كان هشام يهتم بتصرفات أولاده ويرغب لهم أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس، وتصلح أحوالهم مع ربهم ودينهم، ويتضح ذلك من اختياره لمؤدبهم، وتوليتهم مواسم الحج، وإجبارهم على حضور الجمعة.

كما كان هشام يُشرِكُ أولاده بالحروب، ويقلدهم قيادة جيوش الغزو وقد اشتهر منهم معاوية بن هشام، قال عنه ابن حزم: قاد الصوائف عشر سنين، وقد شارك معاوية في قيادة الحملات الموجهة لغزو الروم زمن أبيه أكثر من عشر مرات، وقد شارك في قيادة حملات الغزو من أولاد هشام: سليمان، ومسلمة، وسعيد، ومحمد.

خلافـــتــه

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة بعهد من أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ، وكان هشام يُعَدُّ من ساسة بني أمية المشهورين، كان شديد المراقبة لعماله ودواوينه، وقد شهد له بجدارته أحد

خصومه، فقال عبد الله بن علي بن العباس: جمعت دواوين بني مروان فلم أَرَ ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

علاقته بالرعية

كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل، وقضائهم حوائج الخلق، ولا يكتفي بذلك بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم، ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم، وكان له موضع بالرصافة تُضرَب له به السرادقات، فيكون فيه ستين ليلة بارزًا للناس، يرد فيها المظالم ويأخذ على يد الظالم، من جميع الناس وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي السوام والأمة السوداء، فمَنْ دونهما وقد وَكَّل رجالاً عقلاء بإدناء الضعفاء، والنساء واليتامى منه، ويستقبل وفود الأمصار فيلبي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنع لهم الطعام بنفسه فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد مفرًّا من إرضائه بكل سبيل، فقد شتم هشامٌ مرة رجلاً من الأشراف؛ فوبخه ذلك الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاسْتَحَى منه وقال: اقتصَّ مني. فقال: إذًا أنا سفيه مثلك. قال: فخُذْ عوضًا من المال. قال: ما كنت لأفعل. قال: فهبها لله. قال: هي لله، ثم لك. فنكس هشام رأسه واستحى، وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبدًا.

وقد حدثت في خلافته أن قحطت البادية، فقدمت عليه وفود العرب، فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة، ثم قال هشام لحاجبه: من أراد أن يدخل عليَّ فليدخل فدخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام طيًّا ونشرًا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أَذِنَ لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته. فأعجبه كلامه، وقال: انشره لله دَرُّك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كان لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، قال هشام: ما ترك لنا الغلام واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: أما لك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين.

كان هشام لا يُدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون رجلاً أنه أُخِذَ من حقه، ولقد أعطى لكل ذي حق حقه، ويقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله.

يوميات هشام ومجلسه

كان هشام إذا صلَّى الغداة كان أول من يدخل عليه حرسه، فيخبره بما حدث في الليل، ثم يدخل عليه مولیان له مع كل واحد منهما مصحف فيقعد أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره

حتى يقرأ عليهما جزأه، ويدخل الحاجب فيقول: فلان بالباب، وفلان، وفلان، فيقول: ائذن، فلا يزال الناس يدخلون عليه، فإذا انتصف النهار وُضِعَ طعامُه، ورُفِعَتِ الستورُ، ودخل الناس وأصحاب الحوائج وكاتبه جالس خلف ظهره، فيقول: أصحاب الحوائج، فيسألون حوائجهم، فيقول: لا، ونعم، والكاتب خلفه يوقع بما يقول: حتى إذا فرغ من طعامه وانصرف الناس صار إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعا بكُتَّابه فناظرهم فيما ورد من أمور الناس حتى يصلي العصر، فإذا صلَّى العشاء حضره سُمَّاره: الزهري وغيره.

وقد كان هشام في خلافته حازم الرأي جمَّاعًا للأموال، ذكيًا مدبرًا، له بُعدٌ للأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، قال فيه الذهبي: كان عاقلاً حازمًا سائسًا فيه ظلم وعدل.

اهتمامه بحلبات السباق

كان هشام بن عبد الملك يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له من خيله فيها وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يكن ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وكان هشام يقبل الهدايا من الخيل، ويقيم حلبات السباق لها، ويصلح الطرق ويوسعها لأجل ذلك، وكان يفرح كثيرًا إذا فازت خيله في السباق، ويطلب من الشعراء وصف الفرس أو الحصان الفائز.

تقبله للهدايا

كان هشام يتقبل الهدايا من الولاة وغيرهم، ولم يَرَ بذلك إضرارًا بمصلحة الدولة أو إجحافًا بحقوق الناس. ولا شك أن قبوله للهدايا من الولاة خاصة، وعدم إمعانه في التحري عن مصادر تلك الهدايا أمر غير مقبول من حاكم مثله، وهذا مخالف للنهج الذي سار الرسول والخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز عليه.

فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: "اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ رَجُلاً عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا. ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللَّهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلاَ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ. ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ بَصْرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي". صحيح البخاري.

اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى

كان الخليفة هشام بن عبد الملك شغوفًا بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به، فترجم

مولاه سالم بعض كتب أرسطو إلى العربية، كما ورث ابنه جبلة بن سالم عن أبيه كثيرًا من معارفه وعلومه؛ فترجم بعض الآثار التاريخية إلى العربية.

اتهامه بشرب الخمر

جاءت روايات لا يصح إسنادها تشير إلى أن هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة، وكانت له مجالس يدار فيها الخمر، فإن تلك الروايات لا تصح من حيث السند، كما أن سيرة هشام منافية لهذا الاتهام الباطل، فقد زجر ولي عهده لمعاقرته وإدمانه الخمر، كما زجر ابنه مسلمة المكَنى أبا شاكر، وألزمه الأدب وحضور الجماعة.

العلماء في عهد هشام بن عبد الملك

عندما تولى هشام بن عبد الملك حاول تقريب بعض العلماء –بعض الشيء– والاستفادة منهم، ومن أشهر هؤلاء العلماء العالم الجليل محمد بن شهاب الزهري، والإمام الأوزاعي، وأبو الزناد وغيرهم، وكان تأثير هؤلاء العلماء في اتخاذ القرار في بعض الجوانب، وبطريق غير مباشر من خلال تأثير قربهم من الخليفة وأسرته –لا سيما الزهري– على سلوك هشام وسيرته، ولعل الذي حَدَّ من تأثير العلماء في توجيه القرار في عهد هشام –مقارنة بتأثيرهم في عهد عمر بن عبد العزيز– هو محاولة هشام أن يمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وَسَطًا بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة المُلك، ووسطًا بين عصبية القبائل القيسية واليمنية، وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه: "...فيه ظلم مع عدل".

سياسة هشام بن عبد الملك الخارجية

لم يكن هشام بن عبد الملك رجل دولة من طراز رفيع في إدارة شئون الدولة الداخلية فحسب، بل أعطى عناية كبيرة للسياسة الخارجية، ولصيانة حدود الدولة وتأديب أعدائها، يقول فلهاوزن: "ولا شك أن المؤرخ يخطئ في تصور هشام، إذا ظن أنه كان خليفة لا هَمَّ له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية، على أن هشامًا لم يكن جنديًّا ولكنه لم يكن يرهب الحروب، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل، وجهَّز جيوشًا كبيرة، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال وكانت يداه –دائمًا– مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعدًا؛ فقد كانت جيوشه تقف بالمرصاد للروم، واستمر في إقامة الحصون على الحدود، وكان قواده لا يكفون عن الغزو والجهاد، وكان هشام يسند قيادة الجيوش في معظم الأحيان إلى رجال من أسرته، مثل: أخيه مسلمة بن عبد الملك، وأبنائه معاوية وسليمان، وأبناء عمه مثل: مروان بن محمد بن مروان، وأبناء إخوته مثل: العباس بن الوليد بن عبد الملك".

وإذا كان هناك من مأخذ على هشام بن عبد الملك فهو تغافله عن دعاة بني العباس الذين نشطوا في عهده في الدعوة لآل البيت، وانبثوا في خراسان، وجَذُّوا في تشويه سمعة الدولة

الأموية، وفي الاستعداد لتقويضه. ولعل كراهية هشام للعنف وسفك الدماء كانت سببًا في تغاضيه عنهم حتى استفحل أمرهم، وقد ظهرت آثار ذلك قبيل وفاته واستفحلت بعده، بحيث لم يستطع خلفاؤه وقف مَدِّ الدعوة العباسية التي نجحت في نهاية الأمر في القضاء التام على أسرته؛ ولذلك يقول ابن كثير: "لما مات هشام بن عبد الملك مات مُلْكُ بني أمية وتولى، وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله، واضطرب أمرهم جدًّا، وإن كانت تأخرت أيامهم بعهده، نحوًا من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهيج، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم، وقتلوا منهم خلقًا وسلبوهم الخلافة".

وفاة هشام بن عبد الملك

تُوُفِّي هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ.

خلافة الوليد الثاني ويزيد الثالث ومروان بن محمد

الوليد_ الثاني

الوليد الثاني بن يزيد الثاني الأموي القرشي ويلقب الوليد الثاني (٧٠٧-٧٤٤م) الحاكم الحادي عشر من حكام_ بني_ أمية يلقب أبو العباس. حكم سنة واحدة وشهرين من ٧٤٣ إلى ٧٤٤ م. أمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج. تولى الحكم في دمشق بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك.

قتل من قبل جنده في الحرب التي وقعت بينه وبين ابن عمه يزيد_ بن_ الوليد سنة ١٢٦ هـ (٧٤٤ م) كان على رأسهم محمد بن خالد_ القسري البجلي وكان ذلك في قصر النعمان بن بشير بالبخراء، وحمل رأسه إلى دمشق فنصب بالجامع. وعرض رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فقال: بعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً.

وكان الوليد أمر بالقبض على خالد بن عبد الله القسري البجلي وتعذيبه حتى مات، فكان توجه ابنه محمد على رأس الجماعة التي قتلت الوليد، إنما كان انتقاما لوالده (خالد القسري) وأخذا بثأره. مات الوليد وعمره ٣٨ سنة ومدة حكمه قصيرة لم تدم أكثر من سنة واحدة.

نســـــبه

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الأكبر

رواية المدافعين عنه:

وتعتبر خلافة الوليد بن يزيد بداية النهاية للدولة الأموية حيث انفجرت المشاكل في كل مكان والاخطر من ذلك ان الانقسامات حدثت بين أبناء البيت الأموي نفسه وأصبح باسهم بينهم شديد. فرغم أن الوليد استهل عهده بزيادة رواتب الجند ـ وقد يسر له ذلك كثرة الأموال التي تركها له عمه هشام، الذي اشتهر بتدبير الأموال ـ

ورغم أنه اشتهر بصفات حسنة وميل الي فعل الخير علي حد تعبير ابن كثير الذي يقول : (ثم ان الوليد بن يزيد سار في الناس سيرة حسنة بادئ الرأي واخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين وزاد في أعطيات الناس ولا سيما اهل الشام والوفود وكان كريما ممدوحا شاعرا مجيدا لا يسأل عن شيء فيقول لا)، رغم هذه البداية الطيبة إلا أن الوليد لقي مصرعه علي اثر ثورة اقامها ضده بتدبير ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وبعض أبناء عمومته الاخرين، هشام وسليمان والحجاج. وقد نجح هؤلاء في تلطيخ سمعة الوليد واتهموه بالفسق والفجور واللواط والعكوف علي شرب الخمر والغناء، حتي اتهموه انه هم بان يشرب الخمر فوق الكعبة عندما امره عمه هشام علي الحج سنة ١١٩ هـ كما اتهم بانه اهان المصحف الشريف الي غير ذلك من التهم الشنيعة التي الصقها أبناء البيت الأموي بابن عمهم، والحقيقة انه بالتكامل والبحث في النصوص اتضح ان هذه التهم مبالغ فيها، بل تكاد تكون مختلقة من أساسها بدافع الحقد والخصومة، فبعض المصادر التاريخية تروي مايدل علي ان الوليد لم يكن علي هذه الصورة الماجنة الفاجرة، فابن الأثير يروي ان الوليد كان عفا ذا مروءة وكان ينهي الناس عن الغناء لانه يزيد في الشهوة ويهدم المروءة، ثم يقول : (وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وانكروه ونفوه عنه، وقالوا : انه قيل عنه وليس بصحيح) (٣). وروي الطبري وتابعه ابن الأثير وابن كثير انه لما احاط اتباع يزيد ابن الوليد بالوليد بن يزيد في قصره وحصروه قبل أن يقتلوه، قالوا : (فدنا الوليد من الباب فقال اما فيكم رجل شريف له حسب وحياء اكلمه، فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي، كلمني قال له : من أنت ؟ قال : انا يزيد بن عنبسة، قال : يا اخي السكاسك، الم ازد في اعطياتكم ؟ الم ارفع المؤن عنكم ؟ الم اعط فقرائكم ؟ الم اخدم زمانكم ؟ فقال :انا ما ننقم عليك في انفسنا، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح امهات أولاد ابيك واستخفافك بأمر الله، قال : حسبك يا أخا السكاسك فلعمري لقد اكثرت واغرقت وان فيما احل لي لسعة عما ذكرت ورجع الي الوراء واخذ مصحفا وقال يوم كيوم عثمان، ونشر المصحف يقرأ، ثم قتلوه، وكان آخر كلامه قبل أن يقتل، أما والله لئن قتلت لا يرتق فتقكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم).

فهذا يدل علي ان التهم التي الصقت بالوليد كانت باطلة أشاعها حوله اعداؤه من أبناء اعمامه ثم كيف لإنسان ان يصدق ان الوليد ـ وكان ولي عهد يعني خليفة المسلمين في المستقبل ـ يهم بشرب الخمر فوق الكعبة وهو أمير الحج ؟ ! وهل ضاقت عليه الدنيا حتي لم يجد مكانا

يشرب فيه الخمر غير الكعبة، ان هذا لو حدث من حاكم مسلم في عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة، فكيف بالوليد ـ خليفة المسلمين ـ

وهو في عصر قريب من عصر النبوة والخلافة الراشدة وملئ بالعلماء والصالحين من التابعين. علي كل حال اذن الله لدولة بني امية ان تزول وحق عليهم قول الله: (يخربون بيوتهم بأيديهم) ولم نبعد عن الصواب حين قلنا أن مقتل الوليد علي أيدي أبناء عمومته كان بداية النهاية لدولتهم ولم تجتمع لهم كلمة بعده كما حذرهم الوليد نفسه ولقد حاول بعض أبناء بني أمية مثل العباس بن الوليد أخي يزيد قائد الثورة علي الوليد، ومروان بن محمد أن يوقفوا التدهور الذي آل إليه بنو أمية وأن يمنعوا الثورة على الوليد لكنهم فشلوا في ذلك واستطاع الثوار الإحاطة بالوليد في قصره في قرية تسمي البخراء علي بعد أميال من تدمر وقتلوه في أواخر جمادي الاخر سنة ١٢٦ هـ.

وجاء مقتله دليلا علي حالة الانهيار الذي وصل اليه أبناء البيت_ الأموي الذين فقدوا كل إحساس بالمحافظة على دولتهم والأخطار التي كانت تحدق بها من كل جانب ولقد سهلوا بعملهم هذا لأعدائهم القضاء على دولتهم وعليهم جميعا في مدى ثلاث سنوات بعد مقتل الوليد بن يزيد.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك:

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، المُلقَّب بيزيد الثالث، أمه شاه قريد بنت فيروز بن يزدجرد بن الكسرى، توفّي بعد خلافته بستة أشهر، وسُمِّي بيزيد الناقص؛ لأنه أراد الاقتداء بعمر بن عبد العزيز، فقام بإنقاص الرواتب بعد أن كان يزيد الثاني زادها بفترة خلافته. وكان يزيد الثالث رجلاً صالحاً، حيث تولَّى الخلافة بعد أن قام بالانقلاب على ابن عمه الوليد بن يزيد، فقام بقتله بعد أن قبض عليه في قصره، وولي عهده كان أخوه إبراهيم بن الوليد، وكان إبراهيم أول من خرج بالسلاح في العيدين.

الأوضاع العامة في عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك:

كانت الأوضاع العامة في عهد يزيد الثالث عبارة عن استمرارية للاضطرابات التي بدأت عند مقتل الوليد بن يزيد، وكانت أيضاً بدايةً لتصدع الدولة الأموية ونهايتها، وقد مرَّت خلافته بمرحلتين متميزتين: المرحلة الأولى كانت أحداث ذيول مقتل الوليد وردود الفعل التي ثارت بسبب مقتله، أما المرحلة الثانية تضمَّنت صدى لأحداث في التغييرات الإدارية والآثار السلبية لها على سير الحكم، وانعكاسات سلبية على أوضاع الدولة الداخلية.

وكان الواقع أن شخصية يزيد الثالث لم يكن عليها إجماع كبير من أفراد الأسرة الأموية، وإن عدم وجود الشخصية المحبوبة المُجتمع عليها، واستمرار الفردية كانا من الأسباب المهمة التي زادت من الصراعات في هذه المرحلة، ومنذ جلوس يزيد الثالث على عرش الخلافة انطلقت الحملات المعارضة، بزعامة أبناء أعمامه. وعند فرار سليمان بن هشام من السجن، انطلق إلى دمشق ليهاجم يزيد الثالث، وبدأ يلعنه وينعته بصفة الكافر، وثارت الأقاليم عليه، وخرج أهل الشام ليأخذوا بثأر الوليد بن يزيد ورفضوا بيعته، وشاركهم أيضاً يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، وأبو محمد السفياني الذي قاموا بمبايعته على الخلافة، وانطلقوا لدمشق ليهاجموه، لكن يزيد الثالث كان الأسرع، فقام بالقبض على أهل حمص وأجبرهم على مبايعته، وقبض على الأميرين وسجنهم. وخرج أهل فلسطين في حملة أخرى ضده، حيث قاموا على مبايعة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وخرج أيضاً أهل الأردن بعد أن بايعوا محمد بن عبد الملك، لكن يزيد الثالث استطاع التصدي لهم وأجبرهم على الخضوع له، وهكذا بدأت الصراعات تزيد في البيت الأموي ولم يعد بمقدور أي أحد سد الفجوة التي حصلت.

وتعمَّد يزيد الثالث أيضاً بعد استلامه للخلافة أن يقوم بعزل الولاة الذين قام بتعيينهم عمَّه هشام بن عبد الملك، وقام بوضع ولاة يثق بهم، فقد عزل يوسف بن عمر عن العراق، وولَّى بدلاً منه منصور بن جمهور، وكان تبريره لذلك أنه يريد للعراق أميراً ذو أخلاق ودين ليعدل بين الناس، فهذه الحركات لم تنال إعجاب الكثير فقاموا بأكثر من حركة وكلها فشلت.

وأراد يزيد الثالث أن يبسط سلطانه على الأقاليم البعيدة في المشرق، خصوصاً السند وخراسان وسجستان، فقام بمنعه حاكم خراسان نصر بن سيار، الذي كان يفكر في الاستقلال بالحكم، ولم ينجح منصور بن جمهور بإقناعه، وفي الوقت نفسه اشتدَّ أمر مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأذربيجان وأمرينيا الذي كان يرفض في البداية البيعة للخليفة، وتناقش الطرفان ودخلوا في مفاوضات على الخلافة وولاية العهد. وعندما اقترب يزيد الثالث ومروان بن محمد على الاتفاق توفي يزيد فجأة في عام ١٢٦هـ، وقام بالخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد، لكن لم تدم الخلافة له، وكان طبيعياً أن يرفض مروان بن محمد خلافة إبراهيم فقد كان متطلِّعاً للخلافة بشدَّه، فقد قام بإعلان تأييده للحكم وعثمان أبناء الوليد الثاني، وعند الخلاف الذي حصل بين إبراهيم ومروان، قام إبراهيم بالاستناد باليمنية، وبعدها تلَّقى مروان مساعدة القيسية، وهذا سبب كافٍ لاشتداد العداوة. وبما عُرف عن مروان بسرعته وحزمه في الأمور، بدأ بالزحف إلى دمشق، واستولى على حمص وقنسرين، واصطدم بجيش أرسله الخليفة إبراهيم للتصدي له في منطقة عنجر التي تقع بين بعلبك ودمشق، وانتصر عليه، وعندما علم إبراهيم بنتيجة المعركة فرَّ من دمشق، وقام بقتل الحكم وعثمان ولديّ الوليد الثاني؛ حتى لا يتخذهما مروان حُجّةً للاستيلاء على العرش، وبعدها قام بدخول دمشق وأخذ بيعة الناس بالحكم فيها في عام ١٢٧هـ. وفاة يزيد

بن الوليد بن عبد الملك: توفي يزيد الثالث في سنة ١٢٦هـ، فكانت خلافته لستة أشهر فقط، وكان الطاعون سبباً لوفاته، وقد بايع أخوه إبراهيم بن الوليد خليفةً من بعده، ودفن في باب الصغير، وكان آخر كلامه: وآحسرتاه وآسفاه، وكان نقش خاتمه يا يزيد قم بالحق .

خلافـــة مـــروان بن محمد

خلافـــته

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو عبد الملك أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني أمية بويع له بالخلافة بعد وفاة يزيد الثالث، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد واستقر له الأمر في منتصف شهر صفر سنة ١٢٧هـ، وعرف بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، كان صبورًا يصل السير بالسير في محاربة الخارجين عليه.

يعتبر مروان بن محمد من فرسان بني أمية وشجعانهم، ورغم ما تمتع به من إقدام وسداد رأي، إلا أن الظروف شاءت أن تكون نهاية دولة الخلافة الأموية في عهده، وقد لا يكون هو المسئول عن ذلك بفعل أن العوامل التي أدت إلى إضعافها وزوالها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد وكان قدره أن يصارع تلك الأحداث الجسام التي كانت تعمل ضده.

وأول خطر واجهه مروان هو انقسام الأمويين على أنفسهم، والذي كان من أسوأ نتائجه انقسام كتلتي العرب الرئيستين في الشام وهما اليمنيون والقيسيون، فقد انقلب اليمنيون ضد مروان، وانحاز القيسيون إليه، وتظهر خطورة هذا الإنقسام في أنه حدث في مقر الخلافة الأموية وبين أكثر أنصار الأمويين قوة، ولهذا كان اضطراب الأمر في الشام، إيذانًا باضطراب أمر الدولة كلها، وقد حاول مروان منذ بيعته في دمشق، أن يهديء خواطر الناس، وأن يبعث الثقة في النفوس، فلما بايعه الناس عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسية، يقول الطبري: "فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجيراني، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي".

كانت تلك سياسة حكيمة من مروان فهو لم يفرق بين عرب اليمن وبين قيس، فهؤلاء الولاة فيهم يمنيون وقيسيون، وقد أظهر مروان بذلك مرونة كبيرة، حتى أنه قبل اختيارهم لثابت بن نعيم الجذامي، مع أنه كان قد سبق له الغدر بمروان في أرمينية، وتزعم حركة عصيان قام بها جند الشام هناك ضد مروان، ولكن مروان عفا عنه، وعينه واليًا على فلسطين تسكينًا للفتنة، وحسمًا للفُرقة والخلاف.

وبعد أن رتب مروان أوضاع الشام غادر دمشق إلى حران –بالجزيرة– التي اتخذها مقرًّا لحكمه، وتمشيًا مع خطته في إصلاح الأحوال، وكَبْح جماح الفتنة فإنه حينما جاءه إبراهيم بن الوليد، الخليفة المخلوع، وسليمان بن هشام اللذان كان قد هربا من دمشق قبل وصوله إليها وطلبا منه الأمان أَمَّنهما وعفا عنهما وبايعاه.

وهكذا بدأت الأمور، وكأنها آخذة في الاستقرار، ولكن ذلك الهدوء لم يكن إلا بمنزلة السكون الذي يسبق العاصفة، فلم تلبث الأنباء أن وافت دار الخليفة بنشوب الاضطراب في الشام مرة ثانية وبسريان حُمَّى الثورة من جديد.

ثورة أهل حمص على مروان سنة ١٢٧هـ

كان أهل حمص قد بايعوا مروان بن محمد، وساروا معه إلى دمشق، إلا أنهم خرجوا على حكمه بعد ذلك، والراجح أن خلافات شخصية هي التي فجرت حركتهم، ذلك أن ثابت بن نعيم الجذامي، أحد القادة المسلمين، كان على خلاف مع مروان منذ أن كان هذا واليًا عليهم، واعترف به الخليفة تسكينًا للفتنة، ويبدو أن الخلاف ظل محتدمًا بين الرجلين فسعى ثابت إلى استقطاب اليمنية في حمص، الذين وقفوا ضد مروان ثم تزعمهم وأعلن خروجه، واستنجد أهل حمص بالكلبيين في تَدْمُر فأمدوهم بقوة عسكرية.

حاول مروان في بادئ الأمر إصلاح الأمور بالطرق السلمية إلا أن أهل حمص لم يرتدعوا، عندئذ اضطر الخليفة أن يخرج بنفسه لوضع حد لحركتهم، وكانت له مع الحمصيين وقائع حاسمة انتصر فيها عليهم، وهدم أسوار مدينتهم.

ثورة أهل الغوطة سنة ١٢٧هـ

بينما كان مروان مشغولاً بقمع ثورة حمص، نشبت ثورة أخرى في الغوطة؛ فقد ثار أهله، وولوا عليهم زعيمًا يمنيًا هو يزيد بن خالد القسري، وساروا إلى دمشق فحاصروها، ولكن مروان أرسل إليهم وهو في حمص قائدين من قواده هما: أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمرو بن الوضاح في عشرة آلاف، تمكنا من القضاء على الثورة وحرق المزة وقرى اليمانية، وقتل يزيد بن خالد، وبعث زامل بن عمرو –والي دمشق– برأسه إلى مروان بحمص.

ثورة أهل فلسطين سنة ١٢٧هـ

عرفنا أن ثابت بن نعيم الجذامي –والي فلسطين– كان وراء حركات الشام ضد الخليفة مروان بن محمد، وها هو الآن يعلن الثورة عليه ويخلع طاعته، ولكن مروان عاجله، وكتب إلى أبي الورد الذي قمع ثورة الغوطة، وفك حصار دمشق، أن يسير إلى ثابت، فسار إليه فاقتتلوا وبعد قتال عنيف تمكن أبو الورد من أسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان، ثم تمكن الوالي

الجديد الذي عينه مروان على فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني من القبض على ثابت بن نعيم، وأن يرسله إلى مروان الذي أمر بقتله هو وأولاده الثلاثة.

الاضطرابات في العراقظ

١- حركات الخوارج:

إذا كانت بلاد الشام قد رفعت راية العصيان ضد حكم مروان بن محمد فطبيعي أن تقوم في العراق حركات أشد خطرًا، خاصة وأنه الإقليم الأكثر عداوة للحكم الأموي، منذ أن أصبحت بلاد الشام مركز السلطان، واشتُهِرَ العراق بأنه مركز الشيعة، وحركات الخوارج وتستعر في نفوس أهله عصبية إقليمية غدت بموجبها الهوية العراقية، منطلقًا لتطرف لا حدود له ضد كل نزعة شامية..

ووجد الخوارج في تصدع بني أمية فرصة للانتفاضة ضد الحكم الأموي، وتوجيه ضربة قاسية إلى مروان بن محمد قد تنهي حكم أسرة طالما مقتوها وأرادوا التخلص منها، وتميزت حركتهم في هذه الفترة بالشمولية، فبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم، أضحوا الآن يقاتلون بأعداد جماهيرية كبيرة.

فيبدو أن حركة الخوارج بعد تسعين عامًا من العمل العقائدي الثوري، غدت أكثر عددًا بما انضم إليها من مختلف الطبقات، إذ لم تعد تقتصر على المؤمنين الصادقين في إيمانهم الخارجي كما في السابق، بل أضحت حركة سياسية أكثر منها حركة دينية، وفتحت أبواب صفوفها لكل من يجيء إليها صادقًا أو غير صادق ذا رأي قد لا يتفق تمامًا مع مبادئه، ولكنه يشاركها العداء لبني أمية.

وتعددت حركاتهم بعد مقتل الخليفة الوليد الثاني في عام ١٢٦هـ وكان مسرحها العراق وشبه الجزيرة العربية، حيث دخلوا الكوفة، واستولوا عل البصرة وعلى حضرموت إلا أن مروان بن محمد تصدى لهم وهزمهم في أكثر من معركة في نواحي كفرتوثا من أعمال ماردين، وفي عين التمر، وفي جيرفت، وفي وادي القرى شمالي الشام، وتغلب عليهم وأجلاهم عن العراق، واستعاد سيطرته على الحجاز واليمن.

من أبرز قواد الخوارج في تلك الفترة الضحاك بن قيس الشيباني الذي قام بثورته في العراق ما بين أعوام ١٢٧– ١٣٠هـ، وأبو حمزة الخارجي الذي قام بثورته في الجزيرة العربية ما بين أعوام ١٢٨– ١٣٠هـ.

٢- حركات الشيعة:

تزعم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية، وانضم إليه شيعة الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج في شهر المحرم من عام ١٢٧هـ لقتال أهل الشام في الحيرة.

ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة، ولم يثبت معه سوى ربيعة والزيدية، فاضطر للتراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون، وشهدت شوارع المدينة معارك عنيفة بين الطرفين، وتمكن الجيش من السيطرة على الموقف، ومنح الوالي الأمويُّ عبدَ الله بن معاوية الأمان والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوف قواته، وقوي أمره بمن انضم إليه من الموالي والعبيد، والعباسيين الثائرين على الحكم الأموي، والأمويين الناقمين على مروان بن محمد، وكل طامع في عطية أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذين طردهم مروان بن محمد من الموصل.

ويبدو أن هذا الحشد الذي التف حوله كان غيرَ متجانس، وواضح أن هدفه تشكيل جبهة مقاومة لا يجمعها إلا العداء لمروان بن محمد؛ لذلك لم يتم له الاستمرار طويلاً، وسرعان ما انفرط عقده على إثر الهزيمة القاسية التي مُنِيَ بها أمام قوات مروان بن محمد عند مرو الشاذان في نهاية عام ١٢٩هـ.

وانهارت آمال عبد الله وتطلعاته وفرَّ إلى سجستان، وبلغ هراة آملاً أن يجد نصيرًا في أبي مسلم، لكن هذا الأخير قبض عليه وقتله.

عقد مروان البيعة لولديه

وسط هذه الثورات المتلاحقة وجد مروان فسحة من الوقت ليأخذ البيعة في "دير أيوب" لابنيه عبيد الله وعبد الله، وانتهز هذه المناسبة لتكون فرصة للمصالحة بين أبناء بيته، فزوج ابنيه من ابنتي هشام بن عبد الملك، وجمع بذلك كما يقول بن الأثير: "بني أمية"، وكان هذا الزواج كما يقول فلهاوزن "بمنزلة حفلة رسمية للدولة، وكان مروان يعتقد أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بني أمية، وأن يضمها إلى جانبه".

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه؛ فسرعان ما قلب له أمراء بني أمية ظهر المِجَنِّ، وواجهوه بالعصيان والتمرد.

حركات بني أمية

١- حركة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:

يبدو أن الفوضى التي آلت إليها أوضاع الأسرة الأموية حرّكت المطامع في نفوس أفرادها، وظن كل منهم نفسه صاحب حق في هذا الأمر.

فكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليًا على العراق ومركزه الكوفة، والراجح أنه كان ذا نزعات استقلالية، إذ بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية، أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان بن محمد، فنقض بيعته له، واعتمد في تحركه على القبائل اليمنية من أهل الشام المقيمين في الكوفة والحيرة، الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسي.

لم يُعِر مروان بن محمد هذه الانتفاضة التفاتة جدية في بادئ الأمر، فترك عبد الله وشأنه لاعتقاده بأنه لا يشكل خطرًا كبيرًا على مركزه، ولكن حين بدا له أن مطامع واليه السابق على العراق قد وصلت إلى حد الخطر بما توافر له من القوة والمنعة، والنية في التوسع، قام لمواجهته وبعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الحرشي، أحد رجالات قيس المشهورين، فاصطدم به، ودارت بين القوتين معارك هي إلى المناوشات الخفيفة أقرب، لم تؤِّد إلى نتيجة حاسمة، وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة، تمثلت في الخوارج الذين برزوا مجددًا على مسرح الأحداث في العراق، وانهمك مروان بن محمد في التصدي لهم، وترك أمر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

٢- حركة سليمان بن هشام بن عبد الملك ١٢٧هـ:

توقع مروان أن مصاهرته لأبناء هشام بن عبد الملك كافية لِرَأْبِ الصدع بين أبناء البيت الأموي كله، وأن الأمر في الشام قد استقام له، ولهذا أخذ في إعدادِ جيشٍ قوامُه عشرون ألفًا تحت قيادة يزيد بن عمر بن هبيرة لمواجهة ثورة الخوارج في العراق الذين خرجوا عليه بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني منتهزين فرصة انشغاله بثورات الشام، كما ضرب على أهل الشام بعثًا للحاق بيزيد ومعاونته في حرب الخوارج، وكان سليمان بن هشام –شقيق زوجتي ولدي مروان– قد استأذنه في الإقامة بالرصافة أيامًا للراحة فأذن له، وبينما يقوم مروان بالإشراف بنفسه على تجهيز جيش ابن هبيرة في قرقيسياء فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان، حيث انفلت عشرة آلاف من أهل الشام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج، وذهبوا إلى سليمان بالرصافة، ودعوه إلى خلع مروان، فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التي قطعها على نفسه للخليفة، ولا مراعاة لصلة الرحم والمصاهرة الجديدة، بل ودون أن يضع في تقديره الظروف التي تمر بها الدولة الأموية كلها.

استفحلت ثورة سليمان فقد اجتمع حوله سبعون ألفًا عسكر بهم في قرية تسمى خساف من أعمال قنسرين. فاجأت هذه الأخبار مروان على غير توقع، فقرر أن يسير إلى سليمان بنفسه؛ فقصده في خساف حيث دارت بينهما معركة كبيرة هُزِمَ فيها سليمان، وقُتِلَ حوالي

ثلاثين ألفًا من أتباعه، وهرب هو بمن بقي من جيشه إلى حمص ثم إلى تدمر ومنها إلى الكوفة حيث انضم إلى حركة الضحاك الخارجي.

ولا شك أن عصيان سليمان بن هشام، وانضمام فئات من أهل الشام إليه وقيام اضطرابات في بعض مدن الشام، كلها مؤشرات واضحة على الحالة المتردية التي آلت إليها وحدة الأسرة الأموية، وإلى خطورة هذا الصراع الذي استمر بين أفرادها بشكل لا يبرره سوى المطامع الشخصية.

النشاط العلمي والعمراني في العصر الاموي

أولاً: الحركة العلمية:

العصر الأموي لم يكن فقط عصر فتوحات عظيمة وعصر بناء وعمران، ولم يكن الأمويون رجال سياسة وإدارة من طراز عال فحسب، بل إن عصرهم شهد بداية نمو الحركة العلمية في كل مجال من مجالات العلوم.

وإن كان الازدهار العلمي لم يتحقق في عهدهم وتحقق بعدهم في عصر بني العباس إلا أن البداية التي بدأت منذ ظهور الإسلام أخذت تنموا وتتقدم في عصرهم حسب ما كانت تسمح به الظروف والإمكانات، فقد أخذت العلوم الإسلامية الأصلية مثل: التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وآدابها، أخذت هذه العلوم الإسلامية تتبلور وتصبح لها مدارس وأساتذة في كل المدن والأمصار الإسلامية، وكان الأساتذة الذين أخذوا يعلمون هذه العلوم هم من الصحابة والتابعين.

ففي مكة أم القرى، التي شهدت أول نزول الوحي ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فيها بعد فتحها:

١-معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وتركه الرسول في مكة ليعلم أهلها ويفقههم في الدين.

٢-كذلك من أساتذة مكة في العصر الأموي عبد الله بن عباس ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يجلس في البيت الحرام ويعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب.

وإلى ابن عباس يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية واسعة، فأشهر من تخرج من هذه المدرسة من التابعين والذين كان له دور كبير في الحركة العلمية في العصر الأموي مجاهد بن جبر ت ١٠٣ هـ، وعطاء بن أبي رباح ت ١١٥ هـ وطاووس بن كيسان...وغيرهم كثير.

واستمرت هذه المدرسة العلمية العظيمة قائمة يلتقي العلم فيها جيل عن جيل وكان من أنجب تلامذتها الإمام الشافعي ت ٢٠٤ هـ.

أما مدرسة المدينة المنورة فكانت أكثر علما وأوفر شهرة من مكة لأن معظم الصحابة الكبار عاشوا فيها وعلموا جيلا كبيرا من التابعين، كان من أشهرهم في العصر الأموي سعيد بن المسيب ت ٩٥هـ، وعروة بن الزبير بن العوام ت ٩٤ هـ الذي كان من أعلم أهل المدينة وأكثرهم تقوى وورعا.

عن هذه الطبقة أخذ العلم طبقة أخرى كان من أشهرها محمد بن شهاب الزهري ت ١٣٤هـ، الذي حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم، واتصل بكثير من خلفاء بني أمية، مثل عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك وقال عنه عمر بن عبد العزيز: "إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه".

وقد أنجبت مدرسة المدينة إمام دار الهجرة مالك بن أنس ٩٣-١٧٩ هـ الذي عاش حوالي نصف عمره في العصر الأموي.

هذا عن الحركة العلمية في العصر الأموي في المدينتين المقدستين: مكة والمدينة.

أما في العراق: فقد نشأت مدرستان عظيمتان في كل من الكوفة البصرة، ففي الكوفة عاش كثيرون من كبار الصحابة الذين نزلوها بعد تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ وكان من أشهر من عاش في الكوفة من الصحابة علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وإذا كان علي رضي الله عنه قد شُغل بالسياسة وأمور الدولة إلى حد كبير عن التفرغ للتعليم فإن ابن مسعود قد قام بهذا الدور، ولذلك يعتبر من أكثر الصحابة أثرا علميا في الكوفة، وقد أخذ عنه كثيرون من علماء الكوفة ولزمه تلاميذ منه تعلموا العلم وعلى يديه وتأدبوا بآدابه، وكان يعلم الناس القرآن ويفسره لهم ويروي لهم الأحاديث التي سمعها من الرسول صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة: أنه تكونت في الكوفة حركة علمية كبيرة اشتهر من علمائها شريح القاضي والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير وكل هؤلاء عاشوا في العصر الأموي ولم تزل مدرسة الكوفة تنموا حتى تُوجت بالإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (٨٠ . ١٥٠ هـ).

أما البصرة: فقد نشأت فيها كذلك مدرسة علمية كبيرة كان أساتذتها من كبار الصحابة مثل: أبي موسي الأشعري وأنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أشهر العلماء الذين خرجتهم مدرسة البصرة في العصر الأموي: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وكلاهما من الموالي، وكلاهما كانت له شخصية علمية ظاهرة في البصرة، فالحسن البصري اشتهر بمتانة خلقه وصلاحه وعلمه وفصاحته، وكان موضع حب واحترام أهل البصرة، حتى أن المصادر تروي أنه عند وفاته سنة ١١٠ هـ تبع أهل البصرة كلهم جنازته، حتى لم يبقى بالمسجد من يصلي العصر. وكان رغم انتقاده العلني لخلفاء بني أمية موضع احترامهم.

وأما محمد بن سيرين فقد تعلم على يد زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم، وكان محدثا ثقة وفقيها يفتي فيما يعرض عليه من القضايا والشؤون، واشتهر أيضا بتفسير الأحلام وتوفي سنة ١١٠ هـ.

وفي الشام: نشأت مدراس علمية منذ بداية الفتح الإسلامي لها في عهد عمر بن الخطاب، فقد روى البخاري في كتاب التاريخ: أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأرسل إليه معاذ ابن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم جميعا، فكان هؤلاء الثلاثة أول مؤسسي الحركة العلمية الإسلامية في الشام، فقد تفرقوا في أقاليمها، فنزل أبو الدرداء في دمشق، وعبادة في حمص، ومعاذ في فلسطين، وتخرج على أيدي هؤلاء الصحابة الكبار عدد كبير من التابعين منهم: أبو إدريس الخولاني ثم مكحول الدمشقي، وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة، وكل هؤلاء من أعلام العلماء في العصر الأموي .

ثم خرّجت مدرسة الشام عبد الرحمن الأوزاعي الذي يعد من أقران الإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس، وكان من الطبيعي أن تكون الشام مقرا لحركة علمية واسعة وأن يقصدها العلماء من كل صقع لأنها أصبحت مركز الخلافة الأموية وفيها عاصمتها مدينة دمشق.

وفي مصر: نشأت مدرسة علمية إسلامية عظيمة بعد الفتح الإسلامي وكان أساتذتها ومؤسسوها أيضا من الصحابة الذين نزلوا مصر، ومن أشهرهم: عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما الذي يعد من أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يدوّن ما كان يسمعه من الرسول، وقد سكن مصر فلم يكن يغادرها إلا للغزو أو الحج أو العمرة، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية وأخذ عنه العلم كثيرون من أهلها.

وقد اشتهر من علماء مدرسة مصر بعد جيل الصحابة كثير من التابعين الذين عاشوا في العصر الأموي، منهم: يزيد بن أبي حبيب، الذي قال عنه الكندي المؤرخ المصري: أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز إليهم الفتيا بمصر والآخران هما جعفر بن ربيعة، وعبد الله بن أبي جعفر .

واستمرت مدرسة مصر التي كان مقرها جامع عمرو بن العاص في الفسطاط تنمو وتزدهر حتى خرّجت الكثير من العلماء، كان من أشهرهم: الليث بن سعد فقيه مصر وإمامها، والذي قال عنه الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك بن أنس، وقد توفي الليث سنة ١٧٥ هـ.

ويطول بنا الكلام لو تحدثنا عن الحركة العلمية في بقية أقطار العالم الإسلامي في العصر الأموي ولكن هذه مجرد إشارات تنبه الأذهان إلى أن العصر الأموي كان عصر فتوحات عظيمة وإدارة وسياسة وعمران ، وكان أيضا العصر الذي شهد بداية نمو الحركة العلمية الإسلامية التي

كان قوامها القرآن وتفسيره، والحديث وشرحه والفقه وأصوله، والتاريخ والسير والمغازي، واللغة العربية وآدابها.. الخ.

وهناك فضيلة أخرى يجب أن تذكر للأمويين وتحسب لهم في صحائف حسناتهم: تلك هي حفاظهم على التراث العلمي الأجنبي الذي وجدوه في البلاد المفتوحة، فقد عرفنا فيما سبق أن الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي امتدت إلى آفاق بعيدة، شملت مساحات واسعة في قارات الدنيا القديمة الثلاث أسيا وإفريقيا وأوربا، وهذه المناطق التي حوتها الدولة الإسلامية، كانت هي موطن الحضارة في العالم يومئذ، وفيها مدراس علمية وفكرية تركز فيها كل ما أنتجه العقل البشري من علوم على مدى آلاف السنين، فعِلم الهنود والفرس والإغريق على اختلاف أنواعه كان منتشرا في البلاد التي فتحها المسلمون في العصر الأموي، ووضع المسلمون أيديهم على هذا الكنز العلمي الذي كان موزعا على مدن زاهرة تعج بالنشاط العلمي مثل: الإسكندرية وغزة وبيروت ودمشق وحران والرها وغيرها، وكانت العلوم التي تدرس في أغلب مدارس هذه المدن هي علوم الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والهندسة والطبيعة والكيمياء والجغرافيا، وكانت تقوم على أساس وثني فماذا صنع المسلمون في العصر الأموي بهذه المدارس ؟ هل أغلقوها وعطلوا الدراسة فيها ؟

لم يحدث من ذلك شيء من ذلك على الإطلاق، بل أبقوا هذه المدارس على ما كانت عليه وتركوا الأساتذة يعلمون والطلاب يتعلمون في جو من الحرية لم يسبق له مثيل، بل لم يتدخلوا مطلقا في شؤون هذه المدارس وتركوا كل شيء للقائمين عليها، فلما رأى العلماء والطلاب هذه الحرية وهذا التسامح مع العلم والعلماء الذي أبداه المسلمون نحوهم والذي هو في الواقع من وحي الدين الإسلامي نفسه الذي يحترم العلم والعلماء ويكرمهم، بل يحث الناس على العلم والتعليم ويعتبر التفكير فريضة من فرائضه: أقبلوا على العلم والتعليم بصدور منشرحة وعقول منفتحة، وأخذت هذه المراكز العلمية تؤدي عملها تحت الحكم الإسلامي حتى جاء العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) وكانت الدولة الإسلامية قد استقرت والعلوم الإسلامية الأصيلة والتي أشرنا إليها قبل قليل من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه ولغة عربية وآدابها قد تأصلت ووضعت قواعدها وأصبحت لها مدارس شهيرة في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط الخ.

عندئذ بدأ المسلمون يتجهون للعوم الأجنبية والتي كانوا يسمونها العلوم الدخيلة وهي الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء.. الخ، اتجهوا إلى هذه العلوم وبدأوا يترجمونها إلى اللغة العربية وكان الخلفاء العباسيون يشجعون حركة الترجمة ويجزلون العطاء للعلماء على عملهم ويحترمونهم وينزلونهم منزلة كبيرة، فقد كان الخليفة المأمون يعطي العالم الذي يترجم كتابا علميا من لغة أجنبية إلى اللغة العربية وزن هذا الكتاب من الذهب الخالص،

لذلك أقبل العلماء على الترجمة في همة ونشاط حتى لم يكد يمضي قرن واحد على بداية حركة الترجمة حتى أصبح ذلك التراث العلمي العظيم الذي خلفته البشرية على مدى أجيال عديدة يُقرأ باللغة العربية، والتي كانت أكثر اللغات انتشارا في العالم لأنها لغة الإسلام والمسلمين.

والمسلمون في ذلك الوقت كانوا أقوى وأغنى أمة على ظهر الأرض، فهل يقرأ المسلمون تاريخهم العظيم هذا ويحاولون استعادة مجد آبائهم وعظمتهم !؟

والخلاصة: أنه لولا سماحة الخلفاء الأمويين وسعة أفقهم وحفاظهم على هذا التراث لما رأينا هذه النهضة العلمية الكبيرة التي كان لها الأثر الكبير على حياة البشرية...

ثانياً: المنشئات الدينية والعمرانية:

لم يكن خلفاء بني أمية رجال حرب وفتوحات وسياسة وإدارة فقط ،وإنما كانوا رجال بناء وعمران، وشهد عصرهم العديد من المنشآت المعمارية الدينية والمدنية.والعمارة تمثل ناحية هامة من نواحي الحضارة الإسلامية، والعمارة لها جوانب عديدة منها بناء البيوت والقصور والمدارس والجامعات والمستشفيات ودور العبادة ومنها بناء الجسور والقناطر.. الخ .وقد أهتم الأمويون اهتماما كبيرا بكل هذه النواحي فقد اتسعت حدود الدولة الأموية إلى الحد الذي جعل من الضروري ربط أجزاء هذه الدولة الواسعة بشبكة من الطرق المعبدة حتى يسهل الاتصال بين أطرافها وبين عاصمتها دمشق، ولتكون حركة الجيوش بذلك سهلة.

وهناك ناحية هامة جعلت الأمويين يهتمون بالطرق وهي: فريضة الحج إلى بيت الله الحرام فقد كان عليهم أن يعبدوا جميع الطرق التي تربط مكة المكرمة والمدينة المنورة ببقية العالم الإسلامي حتى يسهل للحجاج الوصول إلى تلك الأماكن المقدسة بدون مشقة، كما كانت تنتشر على هذه الطرق الأسواق والاستراحات التي تزود المسافرين بحاجياتهم من طعام وشراب.. الخ.

كذلك اعتنى الأمويون بمشروعات الري للنهوض بالزراعة، لأن دولتهم ضمت العديد من الأقطار الزراعية التي تجري فيها أنهار كبيرة مثل: الشام ومصر والعراق وفارس، فكان لابد لكي تنهض الزراعة من تنظيم عملية الري وما يتطلبه ذلك من شق الترع وإقامة الجسور.. الخ.

كذلك اعتنى الأمويون ببناء القصور الفخمة، فقد كان معظمهم ميالا إلى الاستمتاع بمباهج الحياة بعد أن توفر لديهم المال الكثير، فاتجهوا إلى بناء القصور والتأنق فيها وتزينها بالزخارف والصور النباتية والهندسية، وقد أُكتشف في السنوات الأخير العديد من القصور التي ترجع إلى العصر الأموي والتي وُجدت مزينة بالصور حتى في الحمامات ومعظم القصور الأموية التي اكتشفها علماء الآثار منذ القرن الماضي وجدت في الصحراء – صحراء الشام بصفة خاصة – وذلك لأن الأمويون كانوا يحبون حياة البادية للاستمتاع فيها بالهدوء والهواء الطلق بعيدا عن ضجيج المدن..

وكما اهتم الأمويون بالمباني والمنشآت المدنية كالطرق ومشروعات الري والقصور والتأنق فيها، فقد كان اهتمامهم أعظم بالمنشآت الدينية وفي مقدمتها المساجد، فالمسجد أهم مؤسسة في الإسلام فقد كان أول شئ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عندما هاجر إليها أن أسس مسجده العظيم، الذي كان مكانا للعبادة وتبليغ الوحي وإدارة الدولة الإسلامية وفيه ربى الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم أصحابه شرائع الإسلام وفنون القيادة في ميادين الحرب والسياسة والإدارة، وقد حذا المسلمون حذو الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مكان حلّوا فيه، وفي كل مدينة جديدة أسسوها، فكان أول شيء يهتمون ببنائه هو المسجد وفعلوا ذلك في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان.. الخ.

وقد احتل بناء المساجد والعناية بها مكانا بارزا في عصر بني أمية على اتساع العالم الإسلامي، فكانوا يزيدون في مساحة المساجد التي كانت قائمة في عهدهم لكثرة المسلمين، كجامع صنعاء وجامع عمرو بن العاص اللذين أعيد بناؤهما في عهد الوليد بن عبد الملك.

وكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من أول المساجد التي حظيت باهتمام الأمويين، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بتوسعته وتجديده، وعهد بتلك المهمة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وأمده بكثير من الأموال وكميات كبيرة من مواد البناء والتجميل مثل الفسيفساء حتى جاء البناء على شكل رائع وعظيم.

وأعظم المساجد التي أنشأها الأمويون: المسجد الأموي في دمشق والذي أنشأه أيضا الخليفة الوليد بن عبد الملك، الذي كان مولعا بالبناء والتعمير، لدرجة أن المؤرخين يذكرون أن الناس كانوا في عهد الوليد لا حديث لهم إلا عن البناء والعمارة أسوة بخليفتهم، على قاعدة: أن الناس دائما على دين ملوكهم.

وقد اجتهد الوليد في بناء ذلك المسجد لتتمثل فيه عظمة الإسلام والدولة الإسلامية فجعله آية من آيات العمارة الإسلامية وانفق عليه أموالا طائلة ولا زال هذا المسجد قائما حتى الآن شاهدا على عظمة بنائه.

هذا وقد انتشرت المساجد في العصر الأموي في كل الأمصار الإسلامية بحيث يصعب حصرها، ومنها على سبيل المثال: مسجد القيروان الذي بناه عقبة بن نافع في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠ – ٥٥ هـ، وجامع الزيتونة في تونس الذي بني في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٤ هـ، والمسجد الجامع بواسط، ومسجد قصر الحير الشرقي، والمسجد الجامع بحران، والمسجد الجامع بالإسكندرية، المعروف بجامع الألف عمود...